لمحات
من السيرة النبوية الشريفة

بسم الله الرحمن الرحيم

لمحات
من السيرة النبوية الشريفة

تأليف

السيد العلامة المجتهد
محمد بن عبد الله عوض
حفظه الله وأبقاه

مكتبة أهل البيت (ع)

صف وتحقيق وإخراج:

اليمن ـ صعدة ـ ت (٥٣١٥٨٠) سيار (٧١٣٨٤٢٩٨٩)

الطبعة الأولى

١٤٤٦هـ -٢٠٢٤م

جميع الحقوق محفوظة لمكتبة أهل البيت (ع)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة مكتبة أهل البيت (ع)

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين، وبعد:

فاستجابة لقول الله سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال٢٤]، ولقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران١٠٤]، ولقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى٢٣]، ولقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب٣٣]، ولقوله تعالى: ﴿إنما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [المائدة٥٥].

ولقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((إني تارك فيكم ما إن تمسّكتم به لن تضلوا من بعدي أبداً كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي، إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يَرِدَا عليّ الحوض))، ولقوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((أهل بيتي فيكم كسفينة نوح، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق وهوى))، ولقوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((أهل بيتي أمان لأهل الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء))، ولقوله صلى الله عليه وآله وسلم: ((من سرّه أن يحيا حياتي؛ ويموت مماتي؛ ويسكن جنة عدن التي وعدني ربي؛ فليتول علياً وذريته من بعدي؛ وليتولّ وليه؛ وليقتد بأهل بيتي؛ فإنهم عترتي؛ خُلقوا من طينتي؛ ورُزقوا فهمي وعلمي)) الخبر، وقد بيّن صلى الله عليه وآله وسلم بأنهم: علي، وفاطمة، والحسن والحسين وذريّتهما عليهم السلام- عندما جلّلهم صلى الله عليه وآله وسلم بكساءٍ وقال: ((اللّهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً)).

استجابةً لذلك كلّه كان تأسيس مكتبة أهل البيت(ع).

ففي هذه المرحلة الحرجة من التاريخ؛ التي يتلقّى فيها مذهب أهل البيت(ع) مُمثلاً في

الزيدية، أنواعَ الهجمات الشرسة، رأينا المساهمة في نشر مذهب أهل البيت المطهرين عليهم السلام عَبْر نَشْرِ ما خلّفه أئمتهم الأطهار عليهم السلام وشيعتهم الأبرار رضي الله عنهم، وما ذلك إلا لِثِقَتِنا وقناعتنا بأن العقائد التي حملها أهل البيت عليهم السلام هي مراد الله تعالى في أرضه، ودينه القويم، وصراطه المستقيم، وهي تُعبِّر عن نفسها عبر موافقتها للفطرة البشرية السليمة، ولما ورد في كتاب الله عزّ وجل وسنة نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم.

واستجابةً من أهل البيت عليهم السلام لأوامر الله تعالى، وشفقة منهم بأمة جدّهم صلى الله عليه وآله وسلم، كان منهم تعميدُ هذه العقائد وترسيخها بدمائهم الزكيّة الطاهرة على مرور الأزمان، وفي كلّ مكان، ومن تأمّل التاريخ وجَدَهم قد ضحّوا بكل غالٍ ونفيس في سبيل الدفاع عنها وتثبيتها، ثائرين على العقائد الهدَّامة، منادين بالتوحيد والعدالة، توحيد الله عز وجل وتنزيهه سبحانه وتعالى، والإيمان بصدق وعده ووعيده، والرضا بخيرته من خَلْقِه.

ولأن مذهبَهم عليهم السلام دينُ الله تعالى وشَرْعُه، ومرادُ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وإرْثُه، فهو باقٍ إلى أن يرث الله الأرض ومنْ عليها، وما ذلك إلا مصداق قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض)).

قال والدنا الإمام الحجّة/ مجدالدين بن محمد المؤيدي(ع): (واعْلَمْ أن الله جلّ جلاله لم يرتضِ لعباده إلا ديناً قوياً، وصراطاً مستقيماً، وسبيلاً واحداً، وطريقاً قاسطاً، وكفى بقوله عزّ وجل: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام١٥٣].

وقد علمتَ أن دين الله لا يكون تابعاً للأهواء: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [المؤمنون٧١]، ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس٣٢]، ﴿شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى٢١].

وقد خاطبَ سيّد رسله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله عز وجل: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ

﴿النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [هود]، مع أنه ﷺ ومن معه من أهل بدر، فتدّبر واعتبر إن كنتَ من ذوي الاعتبار، فإذا أحطتَ علماً بذلك، وعقلتَ عن الله وعن رسوله ما ألزمك في تلك المسالك، علمتَ أنه يتحتّم عليك عرفانُ الحق واتباعه، وموالاة أهله، والكون معهم، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة١١٩]، ومفارقةُ الباطل وأتباعه، ومباينتهم ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة٥١]، ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة٢٢]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة١]، في آيات تُتْلى، وأخبار تُمْلَى، ولن تتمكن من معرفة الحق وأهله إلا بالاعتماد على حجج الله الواضحة، وبراهينه البيّنة اللائحة، التي هدى الخلق بها إلى الحق، غير معرّج على هوى، ولا ملتفت إلى جدال ولا مراء، ولا مبال بمذهب، ولا محام عن منصب، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء:١٣٥](١).

وقد صَدَرَ بحمد الله تعالى عن مكتبة أهل البيت (ع):

١-الشافي، تأليف/ الإمام الحجة عبدالله بن حمزة(ع)، ت ٦١٤هـ، مذيّلاً بالتعليق الوافي في تخريج أحاديث الشافي، تأليف السيد العلامة نجم العترة الطاهرة/ الحسن بن الحسين بن محمد ﷺ، ت ١٣٨٨هـ.

٢-مَطْلَعُ البُدُوْرِ وَمَجْمَعُ البُحُوْرِ في تراجم رجال الزيدية، تأليف/ القاضي العلامة المؤرّخ شهاب الدين أحمد بن صالح بن أبي الرجال ﷺ، ١٠٢٩هـ -١٠٩٢هـ.

(١) التحف الفاطمية شرح الزلف الإمامية.

٣-مَطَالِعُ الأَنْوَارِ وَمَشَارِقُ الشّمُوْسِ وَالأَقْمَارِ - ديوان الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة(ع)، ت ٦١٤هـ.

٤-مجموع كتب ورسائل الإمام المهدي الحسين بن القاسم العياني(ع) ٣٧٦هـ - ٤٠٤هـ.

٥-مَحَاسِنُ الأَزْهَارِ فِي تَفْصِيْلِ مَنَاقِبِ العِتْرَةِ الأَطْهَارِ، شرح القصيدة التي نظمها الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة(ع)، تأليف/ الفقيه العلامة الشهيد حميد بن أحمد المحلّي الهمداني الوادعي رحمه الله، ت ٦٥٢هـ.

٦-مجموع السيد حميدان، تأليف/ السيد العالم نور الدين أبي عبدالله حميدان بن يحيى بن حميدان القاسمي الحسني رضي الله عنه.

٧-السفينة المنجية في مستخلص المرفوع من الأدعية، تأليف/ الإمام أحمد بن هاشم(ع)، ت ١٢٦٩هـ.

٨-لوامع الأنوار في جوامع العلوم والآثار وتراجم أولي العلم والأنظار، تأليف/ الإمام الحجة/ مجدالدين بن محمد بن منصور المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ ١٤٢٨هـ.

٩-مجموع كتب ورسائل الإمام الأعظم أمير المؤمنين زيد بن علي(ع)، تأليف/ الإمام الأعظم زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب(ع) ٧٥هـ - ١٢٢هـ.

١٠-شرح الرسالة الناصحة بالأدلة الواضحة، تأليف/ الإمام الحجة عبدالله بن حمزة(ع)، ت ٦١٤هـ.

١١-صفوة الاختيار في أصول الفقه، تأليف/الإمام الحجة عبدالله بن حمزة(ع) ت٦١٤هـ.

١٢-المختار من صحيح الأحاديث والآثار من كتب الأئمة الأطهار وشيعتهم الأخيار، لِمُخْتَصِرِهِ/ السيّد العلامة محمد بن يحيى بن الحسين بن محمد

رحمه الله، اختصره من الصحيح المختار للسيد العلامة/ محمد بن حسن العجري رحمه الله.

١٣-هداية الراغبين إلى مذهب العترة الطاهرين، تأليف/ السيد الإمام الهادي بن إبراهيم الوزير(ع)، ت٨٢٢هـ.

١٤-الإفادة في تاريخ الأئمة السادة، تأليف/ الإمام أبي طالب يحيى بن الحسين الهاروني(ع)، ت ٤٢٤ هـ.

١٥-المنير - على مذهب الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم (ع) تأليف/ أحمد بن موسى الطبري رضي الله عنه.

١٦-نهاية التنويه في إزهاق التمويه، تأليف السيد الإمام/ الهادي بن إبراهيم الوزير(ع)، ت ٨٢٢هـ.

١٧-تنبيه الغافلين عن فضائل الطالبيين، تأليف/ الحاكم الجشمي المحسن بن محمد بن كرامة رحمه الله، ت ٤٩٤هـ.

١٨-عيون المختار من فنون الأشعار والآثار، تأليف الإمام الحجة/ مجدالدين بن محمد بن منصور المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ.

١٩-أخبار فخ وخبر يحيى بن عبدالله (ع) وأخيه إدريس بن عبدالله(ع)، تأليف/ أحمد بن سهل الرازي رحمه الله.

٢٠-الوافد على العالِم، تأليف/ الإمام نجم آل الرسول القاسم بن إبراهيم الرسي(ع)، ت ٢٤٦ هـ.

٢١-الهجرة والوصية، تأليف/ الإمام محمد بن القاسم بن إبراهيم الرسي(ع)، ت(٢٨٥هـ) تقريباً.

٢٢-الجامعة المهمة في أسانيد كتب الأئمة، تأليف/ الإمام الحجة مجدالدين بن محمد بن منصور المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ.

٢٣-المختصر المفيد فيما لا يجوز الإخلال به لكلّ مكلف من العبيد، تأليف/

القاضي العلامة أحمد بن إسماعيل العلفي رضي الله عنه ت ١٢٨٢هـ.

٢٤-خمسون خطبة للجمع والأعياد.

٢٥-رسالة الثبات فيما على البنين والبنات، تأليف/ الإمام الحجة عبدالله بن حمزة(ع) ت٦١٤هـ.

٢٦-الرسالة الصادعة بالدليل في الرد على صاحب التبديع والتضليل، تأليف/ الإمام الحجة/ مجدالدين بن محمد بن منصور المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ.

٢٧-إيضاح الدلالة في تحقيق أحكام العدالة، تأليف/ الإمام الحجة مجدالدين بن محمد بن منصور المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ.

٢٨-الحجج المنيرة على الأصول الخطيرة، تأليف/ الإمام الحجة مجدالدين بن محمد بن منصور المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ.

٢٩-النور الساطع، تأليف/ الإمام الهادي الحسن بن يحيى القاسمي(ع)، ت١٣٤٣هـ.

٣٠-سبيل الرشاد إلى معرفة ربّ العباد، تأليف/ السيد العلامة محمد بن الحسن بن الإمام القاسم بن محمد(ع)١٠١٠هـ - ١٠٧٩هـ.

٣١-الجواب الكاشف للالتباس عن مسائل الإفريقي إلياس - ويليه/ الجواب الراقي على مسائل العراقي، تأليف/ السيد العلامة الحسين بن يحيى بن الحسين بن محمد (ع) (١٣٥٨هـ - ١٤٣٥هـ).

٣٢-أصول الدين، تأليف/ الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين(ع)٢٤٥هـ - ٢٩٨هـ.

٣٣-الرسالة البديعة المعلنة بفضائل الشيعة، تأليف/ القاضي العلامة عبدالله بن زيد العنسي رحمه الله تعالى، ت ٦٦٧هـ.

٣٤-العقد الثمين في معرفة رب العالمين، تأليف الأمير الحسين بن بدرالدين

محمد بن أحمد(ع)، ت ٦٦٣هـ.

٣٥-الكامل المنير في إثبات ولاية أمير المؤمنين(ع)، تأليف/ الإمام القاسم بن إبراهيم الرسي (ع)، ت ٢٤٦هـ.

٣٦-كتابُ التَّحْرِيْرِ، تأليف/ الإمام الناطق بالحق أبي طالب يحيى بن الحسين الهاروني(ع)، ت ٤٢٤هـ.

٣٧-مجموع فتاوى الإمام المهدي محمد بن القاسم الحسيني(ع)، ت ١٣١٩هـ.

٣٨-القول السديد شرح منظومة هداية الرشيد، تأليف/ السيد العلامة الحسين بن يحيى بن الحسين بن محمد (ع) (١٣٥٨هـ - ١٤٣٥هـ).

٣٩-قصد السبيل إلى معرفة الجليل، تأليف السيد العلامة المجتهد/ محمد بن عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

٤٠-نظرات في ملامح المذهب الزيدي وخصائصه، تأليف السيد العلامة المجتهد/ محمد بن عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

٤١-معارج المتقين من أدعية سيد المرسلين، جمعه السيد العلامة المجتهد/ محمد بن عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

٤٢-الاختيارات المؤيَّدية، من فتاوى واختيارات وأقوال وفوائد الإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي(ع)، (١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ).

٤٣-من ثمارِ العِلْمِ والحكمة (فتاوى وفوائد)، تأليف السيد العلامة المجتهد/ محمد بن عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

٤٤-التحف الفاطمية شرح الزلف الإمامية، تأليف الإمام الحجة/ مجدالدين بن محمد المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ.

٤٥-المنهج الأقوم في الرَّفع والضَّم والجَهْرِ ببسم الله الرحمن الرحيم، وإثبات حيَّ عَلَى خَيْرِ الْعَمَلِ في التأذين، وغير ذلك من الفوائد التي بها النَّفْعُ الأَعَمُّ، تأليف الإمام الحجة/ مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدي(ع).

٤٦-الأساس لعقائد الأكياس، تأليف الإمام/ القاسم بن محمد (ع) ٩٦٧هـ - ١٠٢٩هـ.

٤٧-البلاغ الناهي عن الغناء وآلات الملاهي. تأليف الإمام الحجة/ مجدالدين بن محمد المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ.

٤٨-الأحكام في الحلال والحرام، للإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم(ع) ٢٤٥هـ - ٢٩٨هـ.

٤٩-المختار من (كنز الرشاد وزاد المعاد)، تأليف/ الإمام عزالدين بن الحسن(ع)، ت٩٠٠هـ.

٥٠-شفاء غليل السائل عما تحمله الكافل، تأليف/ العلامة الفاضل: علي بن صلاح بن علي بن محمد الطبري رحمه الله، ت ١٠٧١هـ.

٥١-الفقه القرآني، تأليف السيد العلامة المجتهد/ محمد بن عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

٥٢-تعليم الحروف.

٥٣-سلسلة تعليم القراءة والكتابة للطلبة المبتدئين/ الجزء الأول الحروف الهجائية.

٥٤-سلسلة تعليم مبادئ الحساب/ الجزء الأول الأعداد الحسابية من (١ إلى ١٠).

٥٥-تسهيل التسهيل على متن الآجرومية.

٥٦-أزهار وأثمار من حدائق الحكمة النبوية على صاحبها وآله أفضل الصلاة والسلام، تأليف السيد العلامة المجتهد/ محمد عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

٥٧-متن الكافل بنيل السؤل في علم الأصول، تأليف العلامة/ محمد بن يحيى بهران، ت: ٩٥٧هـ.

٥٨-الموعظة الحسنة، تأليف/ الإمام المهدي محمد بن القاسم الحسيني(ع)، ت١٣١٩هـ.

٥٩-أسئلة ومواضيع هامة خاصة بالنساء، تأليف السيد العلامة المجتهد/ محمد عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

٦٠-المفاتيح لما استغلق من أبواب البلاغة وقواعد الاستنباط، تأليف السيد العلامة المجتهد/ محمد عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

٦١-سلسلة تعليم القراءة والكتابة للطلبة المبتدئين/ الجزء الثاني الحركات وتركيب الكلمات.

٦٢-سلسلة تعليم مبادئ الحساب/ الأعداد الحسابية الجزء الثاني.

٦٣-المركب النفيس إلى أدلة التنزيه والتقديس، تأليف السيد العلامة المجتهد/ محمد عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

٦٤-المناهل الصافية شرح المقدمة الشافية، تأليف/ العلامة لطف الله بن محمد الغياث الظفيري، ت ١٠٣٥هـ.

٦٥-الكاشف لذوي العقول عن وجوه معاني الكافل بنيل السؤل، تأليف/ السيد العلامة أحمد بن محمد لقمان، ت ١٠٣٧هـ.

٦٦-الأنوار الهادية لذوي العقول إلى معرفة مقاصد الكافل بنيل السؤول، تأليف/ الفقيه العلامة أحمد بن يحيى حابس الصعدي، ت١٠٦١هـ.

٦٧-مجمع الفوائد المشتمل على بغية الرائد وضالة الناشد، تأليف الإمام الحجّة/ مجدالدين بن محمد بن منصور المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ.

٦٨-كتاب الحجّ والعمرة، تأليف الإمام الحجّة/ مجدالدين بن محمد بن منصور المؤيدي(ع) ١٣٣٢هـ - ١٤٢٨هـ.

٦٩-المسطور في سيرة العالم المشهور، تأليف السيد العلامة المجتهد/ محمد عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

٧٠-محاضرات رمضانية في تقريب معاني الآيات القرآنية، تأليف السيد العلامة المجتهد/ محمد عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

٧١-زبر من الفوائد القرآنية ونوادر من الفرائد والقلائد الربانية، تأليف السيد العلامة المجتهد/ محمد عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

٧٢-المنتزع المختار من الغيث المدرار المعروف بشرح الأزهار، تأليف العلامة عبد الله بن مفتاح رحمه الله، ت ٨٧٧هـ.

٧٣-متن غاية السؤل في علم الأصول للسيد العلامة الحسين بن الإمام القاسم بن محمد (ع) ت ١٠٥٠هـ.

٧٤-درر الفرائد في خطب المساجد، تأليف السيد العلامة عبد الله بن صلاح العجري رحمه الله.

٧٥-الكاشف الأمين عن جواهر العقد الثمين، تأليف الفقيه العلامة محمد بن يحيى مداعس (ت ١٣٥١هـ).

٧٦- الوشي المختار على حدائق الأزهار تأليف/ السيد العلامة الحسين بن يحيى المطهر (ع) (١٣٥٨هـ - ١٤٣٥هـ).

٧٧- عدة الأكياس المنتزع من شفاء صدور الناس في شرح معاني الأساس، تأليف السيد العلامة أحمد بن محمد بن صلاح الشرفي القاسمي رحمه الله، (٩٧٥هـ - ١٠٥٥هـ).

٧٨-معيار أغوار الأفهام في الكشف عن مناسبات الأحكام، تأليف الفقيه العلامة عبدالله بن محمد النجري (٨٢٥هـ- ٨٧٧هـ).

٧٩- البيان الشافي المنتزع من البرهان الكافي، تأليف الفقيه العلامة عماد الدين يحيى بن أحمد بن مظفر ت (٨٧٥هـ).

٨٠-أثمار الأزهار في فقه الأئمة الأطهار، تأليف الإمام شرف الدين يحيى بن شمس الدين بن أحمد بن يحيى المرتضى عليه السلام (٨٧٨هـ - ٩٦٥هـ).

٨١- المختصر المغيث في علم المواريث، إصدارات مكتبة أهل البيت عليه السلام.

٨٢-مجموع رسائل الإمام الهادي إلى الحق، يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم عليه السلام، (٢٤٥هـ - ٢٩٨هـ).

٨٣-شرح الأساس الكبير المسمى (شفاء صدور الناس في شرح معاني الأساس لعقائد الأكياس) تأليف السيد العلامة أحمد بن محمد بن صلاح الشرفي القاسمي رحمه الله تعالى، (٩٧٥هـ - ١٠٥٥هـ).

٨٤-شقاشق الأشجان، تأليف السيد العلامة المجتهد محمد عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

٨٥- حديقة الحكمة النبوية في تفسير الأربعين السيلقية، تأليف الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة (ع) ت (٦١٤ هـ).

٨٦- هداية العقول إلى غاية السؤل في علم الأصول، المعروف بـ(شرح الغاية)، تأليف إمام المحققين الأعلام الحسين بن القاسم بن محمد (ع) (٩٩٩هـ - ١٠٥٠هـ).

٨٧- شفاء الأوام، تأليف الأمير الناصر للحق الحسين بن محمد (ع)، ت(٦٦٣هـ).

٨٨- البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار، تأليف الإمام المهدي لدين الله أحمد بن يحيى المرتضى (ع)، ت (٨٤٠هـ).

٨٩-حاشية السحولي، تأليف القاضي العلامة إبراهيم بن يحيى بن محمد بن صلاح الشجري السحولي رحمه الله تعالى، (٩٧٨هـ - ١٠٦٠هـ).

٩٠-مصباح الراغب شرح كافية ابن الحاجب، تأليف السيد العلامة محمد بن عز الدين المفتي (الكبير) رحمه الله تعالى، ت(٩٧٣هـ).

٩١-لباب الأفكار في توضيح مبهمات الأزهار في فقه الأئمة الأطهار، تأليف السيد العلامة أحمد بن حسن بن أحمد أبو علي حفظه الله.

٩٢-كتاب المنتخب، للإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم(ع) ٢٤٥هـ - ٢٩٨هـ.

٩٣-كتاب الفنون، للإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم(ع) ٢٤٥هـ - ٢٩٨هـ.

٩٤- (مجموع أهل ذمار) المسمى: تيسير الغفار لتجريد الخلاف من البيان وشرح الأزهار وبيان المذهب المختار من مجموع مجتهدي الأئمة الأطهار وشيعتهم الأبرار وسائر علماء الأمصار، تأليف القاضي العلامة عبدالله بن علي العنسي ت(١٣٠١هـ).

٩٥-مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام ت (٢٤٦هـ).

٩٦-المختار من كتاب الروضة والغدير في بيان ما تحتاجه الآيات الشرعية من التفسير، تأليف السيد العلامة الأمير محمد بن الهادي بن أحمد تاج الدين بن محمد بن أحمد بن يحيى بن يحيى (٦٥١هـ - ٧٢٠هـ).

٩٧-القراءات السبع المسمى (الفتح الرباني في تشجير وتوضيح حرز الأماني)، تأليف السيد العلامة عبدالعظيم قاسم العزي حفظه الله.

٩٨-تيسير المطالب في أمالي الإمام أبي طالب، تأليف الإمام الناطق بالحق يحيى بن الحسين الهاروني الحسني عليه السلام (٣٤٠- ٤٢٤هـ)، رتبه: القاضي العلامة شمس الدين جعفر بن أحمد بن عبدالسلام رضي الله عنه (ت: ٥٧٣هـ).

٩٩- شرح التجريد في فقه الزيدية، تأليف الإمام المؤيد بالله أحمد بن الحسين الهاروني الحسني عليه السلام (٣٣٤- ٤١١هـ).

١٠٠- الصحيح المختار من علوم العترة الأطهار، تأليف السيد العلامة المجتهد/ محمد بن الحسن بن محمد بن يحيى العجري المؤيدي رحمه الله (١٣٥٢هـ- ١٤٣٠هـ).

١٠١-لمحات من السيرة النبوية الشريفة، تأليف السيد العلامة المجتهد/ محمد بن عبدالله عوض حفظه الله تعالى.

وهناك الكثير الطيّب في طريقه للخروج إلى النور إن شاء الله تعالى، نسأل الله تعالى الإعانة والتوفيق.

ونتقدّم في هذه العجالة بالشكر الجزيل لكلّ من ساهم في إخراج هذا العمل الجليل إلى النور -وهم كُثُر- نسأل الله أن يكتب ذلك للجميع في ميزان الحسنات، وأن يجزل لهم الأجر والمثوبة.

وختاماً نتشرّفُ بإهداء هذا العمل المتواضع إلى روح مولانا الإمام الحجة/ مجدالدين بن محمد بن منصور المؤيدي -سلام الله تعالى عليه ورضوانه- باعثِ كنوز أهل البيت(ع) ومفاخرهم، وصاحب الفضل في نشر تراث أهل البيت(ع) وشيعتهم الأبرار رضي الله عنهم.

وأدعو الله تعالى بما دعا به (ع) فأقول: اللهم صلِّ على محمد وآله، وأتمم علينا نعمتك في الدارَيْن، واكتب لنا رحمتك التي تكتبها لعبادك المتقين؛ اللهم علّمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علّمتنا، واجعلنا هداة مهتدين؛ ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ۝١٠﴾ [الحشر]، نرجو الله التوفيق إلى أقوم طريق بفضله وكرمه، واللهَ أسأل أن يصلح العمل ليكون من السعي المتقبّل، وأن يتداركنا برحمته يوم القيام، وأن يختم لنا ولكافة المؤمنين بحسن الختام، إنه ولي الإجابة، وإليه منتهى الأمل والإصابة، ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأحقاف١٥].

وصلى الله على سيّدنا محمد وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين.

مدير المكتبة/

إبراهيم بن مجدالدين بن محمد المؤيدي

تقديم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين القائل: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ [الأحزاب:٢١]، والقائل: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [يوسف:١١١]، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين وخاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وعترته ونسله وذريّته الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً، ورضي عن صحابته الأخيار من المهاجرين والأنصار، أما بعد:

فإنّ الأمة الإسلامية بجميع أطيافها وطوائفها في أمسّ الحاجة إلى الرجوع إلى السيرة النبويّة، فالكل بحاجتها العوام وطلاب العلم، والدعاة والمرشدون، العلماء المجتهدون والأئمة، وكذلك علماء العقيدة والفرق والشريعة، وكذلك الحكام والساسة والعسكريون، والباحثون والخبراء الاستراتيجيون وغيرهم، والمدارس والجامعات والدراسات العليا في شتى التخصصات، وذلك للاستفادة منها كلٌّ في مجاله في العلم والعمل في الدين والدنيا.

ولكن ذلك لا يكون إلا بمعرفة السيرة النبوية الواقعيّة الحقيقية الصحيحة الخالية عن دسيس الوضّاع وتخاليط المتوهمين، التي يطمئنّ إليها قلب الباحث عن الحقيقة وخصوصاً في المهمّ منها الذي يَبْتَنِي عليه غيره.

وهذا مما تميّزت به هذه السيرة كما سيأتي.

مميزات هذه السيرة:

١- تطمئنّ إليها النفس وتقطع النزاع؛ لأن القرآن الكريم المصدر الرئيسي فيها، والباقي مما رواه المخالف والموالف ما عدا عدّة مسائل تُعَدّ بالأصابع نبّه عليها المؤلِّف حفظه الله تعالى.

٢- تركز على المهمّ من السيرة وعلى الفوائد التي نستفيدها من تفاصيلها اقتداء بالقرآن الكريم وذلك في شتّى مجالات العلوم فهي بخلاف النمط الروائي المعهود في كتب السيرة.

٣- تدعو إلى الوحدة الإسلاميّة لأن مصادرها حاكمة على الكل.

٤- وجهت الأنظار إلى البحث في كتاب الله تعالى لمعرفة المزيد من السيرة النبوية وغيرها.

٥- ربطت بين الأحداث من ولادته ﷺ إلى بعثته ثم إلى هجرته ثم إلى وفاته ثم بعد وفاته فجاءت بنتائج لا غبار عليها في غاية الأهمية كان غالبها غائباً عن الكثير من الناس.

٦- درست شخصية النبي ﷺ وأطياف المجتمع في حياته ﷺ وبعد وفاته من عدّة نواحٍ؛ كدور كل فريق مع الدين نصرة وحرباً، ومن ذلك دور قريش في حياته وبعد وفاته ﷺ.

٧- بيّنَتْ كيف كانت دولة النبي ﷺ وكيف كانت الدولة بعد وفاته ﷺ من عدّة نواح مهمة جداً.

٨- بيّنت كيفية تدخل السياسة في الدين ودوافعه ومنشأ الافتراق في الدين وكيفيّته وجذوره وأسبابه ونتائجه الكارثيّة في عموم البلدان الإسلامية على مرّ العصور إلى وقتنا الحالي.

٩- بيّنت شدة اهتمام النبي ﷺ بولاية أمير المؤمنين وأهل البيت عليهم السلام منذ مبعثه حتى وفاته وعظيم مكانتها في الإسلام وبنتائج وآثار إخراجها عن محلِّها على الأمة الإسلامية إلى اليوم.

١٠- نبّهَتْنا على الاستفادة من أعمال النبي ﷺ في مكة والمدينة؛ أي في حالة الضعف وحالة القوة، وفي ذلك فوائد مهمة جداً منها أن خلفاء النبي ﷺ الذين قاموا بحق الخلافة هم أئمة الزيدية لأنهم الذين قاموا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كما قام جدهم ونبينا ﷺ.

١١- بينت بكل وضوح وبشكل مُمَيَّزٍ الفِرْقَة الناجية الباقية على الإسلام المحمدي وأهله وذلك بالرجوع إلى الماضي لمعرفة الحاضر.

١٢- قطعت النزاع التاريخي حول الصحابة من القرآن الكريم بآيات كثيرة جداً على الرجوع إليه في مسألة الصحابة وغيرها وبيّنت أيضاً دور السياسة في هذه المسألة.

١٣- ناقشت بأسلوب علمي منصف وبينت الحق في مسائل مهمة غير ما ذكر مثل حادثة شقّ الصدر وروايات الصلوات الخمس ليلة الإسراء، والكتابة عند العرب، وهل كان النبي ﷺ يكتب، وفضل النبي ﷺ على الأنبياء والرسل، ومعنى الفضل، وغير ذلك كثير، فهذا للتنبيه على ما سواه.

١٤- استخدم المؤلف أيده الله تعالى في هذه السيرة كل ما يحتاج إليه في مواضيعها من التفسير والحديث والعقيدة والتاريخ والفرق و.. و... إلخ، ثم أضاف إليها ما وهبه الله تعالى من الدراية وثاقب النظر في نواح متعددة، وبذلك تجلّ وتعظم الفائدة منها ويخرج الباحث منها بفوائد عظيمة لم تكن تخطر له على بال.

١٥- فسّرت بعض الآيات القرآنية التي نزلت في الغزوات والأحداث بذكر دلالاتها مع تفاصيل الغزوة أو الحادثة؛ وفي ذلك من جليل الفوائد ما لا يخفى على الناظر.

وغير ذلك كثير من مميزات هذه السيرة وفوائدها، فما ذكرته ينبّه على ما سواه؛ فأنصح جميع إخواني المؤمنين بهذه السيرة من بدايتها حتى نهايتها لعظيم فائدتها، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله الطيّبين الطاهرين.

قسم التحقيق

مكتبة أهل البيت عليهم السلام

١٩/ ربيع الآخر/ ١٤٤٦هـ

بداية الكتاب

[مقدمة]

[السيرة النبوية في القرآن الكريم وأهميتها]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى أهل بيته الطاهرين، وبعد:

فقد اشتمل القرآن الكريم على ذِكْرِ سيرة نبينا محمد ﷺ منذ بعثته إلى وفاتهِ ﷺ، وما لقيَ من العناءِ والنَّصَب والعراقيل في تبليغ رسالته من المشركين والمنافقين، كل ذلك مذكورٌ في القرآن الكريم إمَّا تفصيلاً أو إجمالاً أو إشارة، كما اشتمل القرآن أيضاً على قصصٍ كثيرٍ من الأنبياءِ والرسل، وما لاقَوْهُ في سبيل دعوتهم من الأذى والتعب والنصب والعراقيل، وقد قيل إن قصص القرآن الكريم احتلت ما يقارب نسبة (٢٥٪)[1] من القرآن الكريم مما يدل على عظم شأنها في دين الإسلام وأهميتها الكبيرة في دين المسلمين.

وسنذكر ما يمكننا من بيان أوجه أهميتها بالنسبة للمسلم:

١- يتبيّن للمسلم من الاطلاع على سيرة النبي ﷺ أنه كان في الغاية من الكمال البشري، فما من صفةٍ بشريةٍ حميدةٍ إلا وهي فيه ﷺ في نهاية كمالها، والفائدة في ذلك بالنسبة للمسلم أن الطبائع البشرية تميل بحبّها إلى ذوي الصفات الحميدة، وتنفر بطبعها عن ذوي الصفات القبيحة، فإذا عرف المسلم أن نبيه محمداً ﷺ قد جُمِعَ في شخصه كل ما يُحْمد من صفات الرجال، وأنه قد بلغ في كل صفة منها الغاية والنهاية- مال به

(١) أي: الربع.

حبُّه إليه، واشتدت رغبته في التوجه إليه، وجرَّه ذلك إلى السمع والطاعة له فيما يأمر وينهى.

٢- إذا كان الحال بالنسبة للمسلم كما ذكرنا، فإنه إذا علم أنه رسول من الله تعالى، وأنه لا يأمر بشيءٍ مِنْ تِلْقَاءِ نفسه، وإنما هو رسول مبلِّغ لما يوحى إليه، فإن ذلك يزيد في توجّهه إليه، وإقباله عليه؛ لأنّ حقّ الله أعظم.

٣- إذا رأى المسلم ما كان فيه النبي ﷺ والمسلمون من الفقر والجوع والحاجة، وأن حياتهم كانت متاعب ومصاعب وخوف و..إلخ- هانَ عليه ما هو فيه من البلاء والمصائب.

٤- إذا رأى المسلم ما لقيه النبي ﷺ وأصحابه من العناءِ والأذى والقتل والقتال والمضايقة والخوف الطويل في سبيل دعوة الإسلام- استعظم نعمة الله عليه حيث أَوْلاه نعمة الإسلام من غيرِ عناء ولا تعب، وأدَّاه ذلك إلى تعظيمِ النبي ﷺ وأصحابه المخلصين الذين تحمَّلوا ما تحمَّلوا في سبيل الدين والإسلام، ورأى أن لهم عليه المِنَّة في ذلك.

٥- إذا رأى ما لقي النبي ﷺ في حياته من المكدرات حتى من زوجاته، وهو أكرمُ البشر على الله- علم علماً أن الدنيا دار المحن والبلاء فتطمئن نفس المؤمن لما هو فيه من البلاء، وتشتدّ عزيمته على الرضا بالقضاء، وتنظر عين بصيرته إلى الدار الأخرى.

٦- بالاطلاع على سيرة النبي ﷺ يتبين للدُّعاة إلى الله وإلى دينه الطريق الناجح الذي يسلكونه في دعوتهم إلى الله من بدايتها إلى نهايتها، ومعرفة ذلك إِنَّما تحصل بمعرفة سيرة الرسول ﷺ.

٧- بمعرفة السيرة يَعْرِفُ سلطانُ المسلمين كيف يتعامل مع الأعداء من

المشركين والظالمين في حالة الضعف وحال القوة، وكيف يتعامل مع المنافقين، وكيف يتعامل مع المؤمنين المخلصين، و..إلخ.

٨- وبمعرفة السيرة يعرف المسلمُ كيف يتعامل مع سلطانه العادل، ويعرف ما عليه من الحقوق له، وما يستحقه، وكيف يعامل إخوانه المؤمنين، و..إلخ.

٩- يعلم المؤمن أن النصر ليس بقوة العدد والعُدَّة والكثرة، وأنه إنما يكون بطاعة الله ورسوله ﷺ، وصدق النية.

١٠- السيرة النبوية مليئةٌ بالعبر إذا عرفها البصير اعتبر وحَذِرَ أن يقع في مثل ما وقع هناك، فيتجنّب الأسباب التي أدّت إلى حدوث تلك الأحداث السيئة.

مولده ﷺ

ولد النبي ﷺ: عام الفيل، في فجر الاثنين لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأول، قبل الهجرة بثلاثة وخمسين عاماً، وذلك سنة ٥٧١م، وقد كان أبوه مات وهو في بطن أمه.

وأبوه: هو عبدالله بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبد مناف.

وأمه: هي آمنة بنت وهب الزهرية.

وقد روى محدّثو الزيدية وأئمتهم أن آباء النبي ﷺ: عبدالله، وعبدالمطلب، وهاشماً، وعمَّه أبا طالب كانوا لا يعبدون الأصنام، ولا يستقسمون بالأزلام(١).

نشأته ﷺ

نشأ النبي ﷺ وتربّى تحت رعاية جده عبدالمطلب، فلما مات عبدالمطلب كفله عمه أبو طالب بوصية من جده عبدالمطلب، فحظي في تلك الكفالتين بالرعاية التامة، والغاية من العناية والتربية والمحافظة، وقد كان آباؤه ﷺ على علم بما له ﷺ من الشأن والكرامة عند الله تعالى بأخبار بلغتهم عن أهل الكتب السماوية، ثم بما ظهر من الآيات والكرامات منذ مولده إلى أن بلغ أشده، وتفصيل ذلك يطول وقد تضمّنته كتب السير.

وقد اختار الله تعالى واصطفى بعلمه وحكمته نبيه محمداً ﷺ لتبليغ رسالته من أفضل القبائل، وأشرف البيوتات، وأفضل البقاع، فكان ﷺ قبل أن يبعثه الله نبياً أوسط الناس نسباً، وأشرفهم أماً وأباً، وأزكاهم عقلاً، وأكرمهم أخلاقاً، وأحسنهم سيرة، وأوفاهم، وأصدقهم، وأحلمهم، وأعظمهم أمانة،

(١) مصابيح أبي العباس (١٧٢)، تيسير المطالب (٥٨٥).

وأكملهم على الإطلاق في صفات الكمال الخَلْقِية والخُلُقيِّة، فقد بَلَغ ﷺ الغاية والنهاية في كل ذلك، وقد كان قومه يعرفون له ذلك، وكانوا يُسمُّونَهُ الصادق الأمين.

[مدى صحة حادثة شق الصدر]

روي في بعض كتب السِّير وبعض كتب الحديث أن الملائكة شَقُّوا بطنَ النبي ﷺ يوم كان ﷺ مُسْتَرضِعاً عند حليمة السعدية وغسلوا قلبه واستخرجوا منه ما ثَمَّ من الخبث، ورُوي أنهم شَقُّوا بطنه مرةً ثانية في مكة وغسلوا قلبه من ماء زمزم.

وهذه الروايات وإن كانت في صحاح أهل السنة إلا أني أستبعد صحتها لأمور:

١- لأن الله على كل شيء قدير فهو تعالى بقدرته الذي خلق النبي ﷺ وهو في بطن أمه، وجعل له القلب والسمع والبصر من غير عملية جراحية، فهو إذاً قادرٌ على تطهيرِ قلبهِ ﷺ بغير عملية جراحية.

٢- أن الغسل والتطهير والاستئصال إنما يكون للأشياء المادية المحسوسة أما الطبائع البشرية الحسن منها أو الخبيث فإنها صفاتٌ وأعراضٌ غير مادية لا تُستأصل بالعمليات الجراحية، ولا تُغسل بالماء.

٣- لو كان الأمر كما روي من أنها غسلت منه ﷺ الطبائع الخسيسة، لارتفع عنه ﷺ التكليف، ولما استحق المدح والثناء؛ لأن المكلف إنما يستحق المدح والثناء والثواب على قمعه لهوى نفسه، وكَبْحِهِ لشهواتها وجهاده لدواعيها وتسويلاتها، وإيثاره بدلاً عن ذلك لطاعة ربه، وحينئذٍ تتحقق عبوديته لربه التي عندها يستحقُّ التكريم حيث آثر طاعة ربه على

شهوات نفسه وأهويتها، أما الذي غُسِلَت منه طبائع الهوى والشهوات ولم يبقَ له إلا الطبائع الحسنة فلا يلحقه عناء ولا أيّ تعب ولا كلفة، فبماذا يستحق المدح والثواب؟!

٤- أنَّ القرآن قد دلَّ على بقاء الغرائز البشرية المُتنافية في صدر النبي ﷺ، فمن ذلك ما روي أنَّ النبيّ ﷺ حين رأى ما لحق بعمِّه حمزة وبأصحابه في يوم أحد من القتل والْمُثْلَة ثارت عنده طبيعة الانتقام فحلف لئن أظْفَرَهُ الله بقريش لَيُمَثِّلَنَّ بثلاثين منهم، فأنزل الله تعالى عليه قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل]، فعفا رسول الله ﷺ وصبر ونهى عن المثلة.

إذا عرفت ذلك فأنبياء الله تعالى ورسله ﷺ بما فيهم نبيُّنا محمد ﷺ هم في طبائعهم وغرائزهم كسائر المكلفين، إلا أنهم ﷺ أقوى على قمع شهواتهم ودواعي نفوسهم وأهوائهم؛ لما عندهم من معرفة الله تعالى المستحكمة التي ملأتْ نفوسهم خشيةً لله وتعظيماً له وحياءً منه، لذلك فلا يلتفتون إلى دواعي نفوسهم وشهواتها؛ حياءً من الله وتعظيماً وإجلالاً وإكباراً، وللوفاء بما عاهدوا الله عليه من السمع والطاعة، وقد جاء في الحديث المشهور: ((لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن...)) الحديث[1]، والمعنى: أن المؤمن يمنعه إيمانه من الوقوع في جريمة الزنا والخمر

(١) رواه في مصنف عبدالرزاق عن أبي سعيد وعن أبي هريرة، ورواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة وعن ابن عباس، ورواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة وعن ابن عباس، والنسائي في سننه، والترمذي في سننه عن أبي هريرة وقال: حسن صحيح، وقال: وفي الباب عن ابن عباس وعائشة وعبدالله بن أبي أوفى. انتهى. ورواه أبو داود في سننه، وابن ماجه في سننه، وأحمد بن =

والسرقة والقتل ونحو ذلك، ويُقيّده إيمانُه بالله وخشيته من الانقياد لشهوته ودواعي هوى نفسه، وأن الزاني لا يصدر منه فعل الزنا إلا إذا غاب إيمانه، فبناءً على ذلك فأنبياء الله ورسله ﷺ أكمل الناس إيماناً، وأعرفهم بالله؛ لذلك فلا تصدر منهم معصية لله؛ لأنَّ معهم من الإيمان ما يقيدهم ويمنعهم عنها.

العصمة والتعبد

كان النبي ﷺ في الأربعين السنة من عمره وهي فترة ما قبل الوحي مؤيَّداً بعناية الله ورعايته، يحيط به التوفيق والألطاف والتسديد حيثما كان، فلم يصدر منه طوال تلك الفترة ما يُعاب به من فعلٍ مأثمٍ لا كبير ولا صغير، ولم يتلطخ بعائبةٍ، ولم تلحقه نقيصةٌ، فكان ﷺ في تلك الفترة في الغاية من الطهارة والنقاء والصفاء والزكاء والكرامة في ظاهر أمره وباطنه.

وكان ﷺ في تلك الفترة ينفرُ عن الأصنام وعبادتها والذبح لها وما يلحق بذلك من الشرك وأعمال المشركين، وكان ﷺ بدلاً من ذلك يهجر المشركين وينعزل بنفسه في غار حراء، وهذا الغار في رأس جبل طويل[1] بعيد عن مكة، فكان ﷺ يتعبّد لله تعالى في هذا الغار شهراً في كل سنة، وقد كان آباؤه ﷺ من قبلُ يتعبّدون في هذا الغار، فكأنه ﷺ أخذ هذه العادة الحسنة

حنبل في مسنده، ورواه في سنن الدارمي، وابن أبي شيبة في مصنفه عن عائشة وابن أبي أوفى وأبي هريرة، ورواه البيهقي في سننه، والطبراني في الكبير عن ابن عمر وبعض من ذكر، وفي الأوسط عن بعض من ذكر، وفي الصغير عن علي عليه السلام، ورواه في تهذيب الآثار للطبري عن عبدالله بن مغفل وبعض من ذكر، ورواه أبو يعلى في مسنده، وابن حبان في صحيحه، وعبد بن حميد في مسنده، والحميدي في الجمع بين الصحيحين، وأبو نعيم في حلية الأولياء، وابن الجعد في مسنده، ورواه في مسند إسحاق بن راهويه، وفي مسند البزار، وغيرهم كثير تركتهم خشية التطويل.

(١) يقع شرق مكة على يسار الذاهب إلى عرفات أعلى جبل النور على ارتفاع (٦٣٤مترا) ويبعد تقريباً مسافة (٤كم) عن المسجد الحرام.

من آبائه، وكان ﷺ يطوف بالبيت العتيق، ويحجُّ، ويخالف قومه فيقف بعرفات، وكانت قريش لا تقف بعرفات، وتلخيص هذا البحث ما ذكره أئمتنا وهو أمران:

١- أن النبي ﷺ كان معصوماً قبل البعثة من الكبائر ومن الصغائر الذميمة.

٢- أنه ﷺ كان قبل البعثة يتعبّد الله تعالى بالتوحيد والذكر والتفكُّر وبما كان بقي من دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام مثل الحج والطواف و...إلخ.

هذا، وما كان الله تعالى ليختار ويصطفي لرسالته إلا الأزكى والأطهر والأتقى والأكمل والأفضل والأقوى من بريّته، وقد قال سبحانه وتعالى: ﴿**اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ**﴾ [الحج:٧٥]، ﴿**اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ**﴾ [الأنعام:١٢٤] وقال تعالى عن صفيِّهِ ﷺ: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ [القلم].

وحين كان محمد ﷺ قبل البعثة أفضل البشر وأكملهم وأزكاهم وأطهرهم وأشرفهم وأنقاهم وأرفعهم- اصطفاه الله تعالى واختاره لتبليغ رسالته، وأكرمه بنبوّته؛ لعلمه -تعالى- بقوّته على حملها، وصبره على تبليغها، وأنه لا يخور ولا يضعف، ولا يزول ولا يتزلزل، ولعلمه تعالى بعظيم أمانة رسوله ﷺ وصدقه ووفائه، ولعلمه بعظيم رحمته وشفقته بالناس وكبير نصيحته لهم، مع ما جَبَلَهُ الله تعالى عليه من التواضع، وكرم الأخلاق، وطلاقة الوجه والبشاشة، ﴿**وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ**﴾ [آل عمران:١٥٩].

معاصي الأنبياء عليهم السلام

وما وقع من بعضهم عليهم السلام كأبينا آدم ويونس عليهما السلام؛ **فأبونا آدم** عليه السلام نهاه الله تعالى عن الأكل من الشجرة، وحذَّره من الشيطان، إلا أن آدم عليه السلام لم يكُنْ لهُ تجربةٌ بمكائدِ الشيطان ومَكْرِهِ، فوسوس له الشيطان قائلاً لهُ: إن السببَ الذي من أجله منعك الله تعالى ونهاك أنت وحواء عن الأكل من الشجرة هو أنه تعالى كره لكما أن تكونا من جملة الملائكة وتنضمَّا في صفِّ الملائكة وفي منازلها القريبة من الله، وكره أن تكونا من الخالدين الذين لا يموتون، فلو أنك وحواء أكلتما من هذه الشجرة لأصبحتما من جملة الملائكة وكنتما في منازل جبريل وميكائيل والملائكة المقرّبين، ولصِرْتُما من الخالدين الذين لا يموتون، وتماماً كما حكى الله القصة في قوله تعالى: ﴿**وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۝٢٠ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ۝٢١ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ..**﴾ الآية [الأعراف]، فلما وسوس الشيطان لآدم وحواء بهذه المقالة، وعقّبها بالقسم بالله إنه ناصح لهما- اغتر آدم وحواء، وما خطر ببالهما أنَّ أحداً يحلف بالله كاذباً، فلذلك اغتر آدم وحواء وطمعا في منزلة الملائكة التي سيكونان فيها أقرب إلى الله، وأعظم عند الله، لذلك أقدم آدم وحواء على الأكل من الشجرة ظناً منهما أن الأكل منها وسيلة وطريق تقربهم إلى ثواب الله وعظيم كرامته، هكذا فَصَّلَت لنا نصوصُ القرآن السببَ الذي وقع من أجله آدم في المعصية.

فلا يجوز ولا ينبغي أن يُقال: بأن آدم عليه السلام أقدم على فعل المعصية تمرُداً على الله وتهاوناً بنهيه، وعدم مبالاة بمعصيته، ألا تَرى أن آدم وحواء عليهما السلام لما تبيَّن لهما أنهما اغترّا بوساوس الشيطان وحلِفه، وأنهما قد عصيا الله تعالى- بادرا إلى

الاعتذار والتوبة إلى الله والاعتراف، وقد حكى الله تعالى حال آدم وحواء عليهما السلام بعد الأكل من الشجرة، فقال تعالى: ﴿وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝٢٢ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ۝٢٣﴾ [الأعراف].

وكانت معصية نبي الله يونس عليه الصلاة والسلام أنه خرج من بين قومه وذهب مُغَاضِباً لهم من غير أن يأذن الله له بذلك، وظنَّ أن الله تعالى لن يؤاخذه بذلك ولن يُضَيِّقَ عليه، وتماماً كما حكى اللهُ تعالى قِصَّةَ معصيته عليه السلام في قوله: ﴿وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ۝٨٧﴾ [الأنبياء]، ومعنى: ﴿فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ [الأنبياء:٨٧] أي: لن نُضَيِّق عليه فيما فعل، ولن نؤاخذه بذلك، وهكذا سائر ما يجري من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنها لم تصدر منهم إلا على سبيل الخطأ أو الظن أنهم فيما فعلوا غير عاصين لله تعالى، ولا ينكشف لهم أنهم أخطأوا وعصوا إلا بعد الفعل فيندمون ويتوبون ويعتذرون إلى ربهم.

هذا، واعلم أنه لا ينبغي الالتفات إلى ما يروى من قصص الأنبياء التي في بعض كتب التفسير فإنها قصصٌ غير صحيحة.

[حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل البعثة]

اشتغل النبي صلى الله عليه وآله وسلم برعي الغنم كعادة الصبيان في فترة إقامته عند مرضعته حليمة السعدية، وخرج في صباه مع عمه ابي طالب إلى الشام ورآه في هذه السفرة بحيرى الراهب وقال لأبي طالب: «احذر عليه اليهود» وأخبره أنه النبي المبعوث في آخر الزمان، وكان صلى الله عليه وآله وسلم لا يحضر مجالس الخَنَا والفُحْش، ولا نوادي اللهو واللعب، ولا مجالس السَّمَرِ، وكان يكره عبادة الأصنام وأعمال المشركين، واشتغل في شبابه بالتجارة أجيراً لخديجة، وحضر في صغره مع أعمامه حرب الفِجَار قبل أن يبلغ مبالغ الرجال.

وكان يُعْرَف في شبابه بالأمانة والصدق وكمال الأخلاق، حتى حكَّمَتْهُ قريشٌ عند اختلافها فيمن يضع الحجر الأسود في مكانه عند بناء الكعبة فحكم في ذلك بحكم أرضى الجميع، قال: ((ضعوا الحجر الأسود في ثوب ثم لتحمل كل قبيلة منكم بجانبٍ من الثوب)) فرضوا بذلك، وحملوا الحجر الأسود كذلك، ثم وضع صلى الله عليه وآله وسلم الحجر في مكانه.

وكان صلى الله عليه وآله وسلم في صباه في كفالة عمه أبي طالب ورعايته يقوم بنفقته وبمصالحه وبما يحتاج إليه إلى أن بلغ مبالغ الرجال واستغنى بنفسه، فأراد صلى الله عليه وآله وسلم أن يكافئ عمه أبا طالب وكان أبو طالب فقيراً، فأخذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم علياً وهو صغير، فعاش علي عليه السلام منذ طفولته مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتحت رعايته إلى أن بُعِثَ النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكان علي عليه السلام يخبر عن عناية الرسول صلى الله عليه وآله وسلم به فيقول: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يمضغ اللقمة ثم يلقمنيها، وإنه كان ينام بجانبه صلى الله عليه وآله وسلم فيمسه جسده ويشم عرقه.

وكان علي عليه السلام يوم البعثة في بيت خديجة تحت رعاية النبي ﷺ وكفالته وتربيته، فلما بعث النبي ﷺ آمن علي عليه السلام ودخل في الدين الجديد، وأسلمت خديجة، وكان أهل هذا البيت أوّل المسلمين على الإطلاق.

وكان علي عليه السلام شديد التعلّق بالنبي ﷺ وشديد الحب له فكان عليه السلام لا يذكر النبي ﷺ إلا اغْرَوْرَقَت عيناه، ولم يهدأ حزنه عليه السلام على فراق النبي ﷺ حتى مات.

وكان النبي ﷺ يطوف بالبيت قبل البعثة، وكان يحج ويقف بعرفة مع الناس، وكانت قريش تقف بالمزدلفة، فكان القائل يقول حين يرى النبي ﷺ واقفاً بعرفة: هذا رجل أَحْمَس فماله لا يقف مع الْحُمْس؟

وكانت قريش تسمى الحمس لشدة تحمّسها في دينها، ومن شدة تحمسها أن تقف بمزدلفة ولا تقف بعرفات بحجّة أنهم أهل الحرم فلا يخرجون منه.

وتزوج ﷺ بخديجة قبل البعثة فولدت له بنين وبنات، فمات البنون وعاش البنات، وكن أربعاً رابعتهم فاطمة.

[حالة العرب قبل الإسلام]

كانت قريش وسائر العرب في ضَلَالٍ عظيم؛ يعبدون الأصنام، ويرتكبون الفواحش والآثام، فقد فشا الظلم والقتل والسبي، ويُغِيْرُ بعضهم على بعض، فيُقتل الرجال ويسبى النساء والولدان، وكانت بلاد العرب كلها خائفة إلا قريشاً فإنهم كانوا آمنين حيثما كانوا؛ لأن العرب كانوا يعظّمون أهل الحرم المحرّم، ولا سيما بعدما نزل بأصحاب الفيل ما نزل من العذاب، وتماماً كما قال سبحانه يُذَكِّر قريشا بهذه النعمة: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٦٧]، فكانت قريش تسافر للتجارة في كل سنة

مرتين، مرة إلى الشام ومرة إلى اليمن، فلا يتعرّض لهم في أسفارهم أحد، ونزل القرآن يُذَكِّرهم بهذه النعمة، فقال سبحانه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝٤﴾ [قريش].

وكان دين إبراهيم وإسماعيل قد انطمس ولم يبق إلا ظواهر لا صلة لها بالدين، وتماماً كما قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال:٣٥]، وكان فوق الكعبة وجوفها وحولها ثلاثمائة وستون صنماً، وكانوا يطوفون بالبيت عراة... وإلى آخر ما ذكر في كتب السير والأخبار، وقد ذكر الله تعالى بعض دياناتهم في القرآن؛ فمن ذلك أنهم حرّموا من الأنعام: البَحِيرة والسَّائبة والوَصِيلَة والحام، وأحلّوا أكل الميتة والدم، وكانوا يَئِدُون البنات، ودانوا بأن الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى، وكانوا ينكرون البعث والحساب والجنة والنار.

[البعثة]

جاء جبريل عليه السلام بالرسالة والنبوّة إلى محمد ﷺ حين بلغ النبي ﷺ أشُدَّه وذلك في سنّ الأربعين، وهكذا جرت سنّة الله تعالى في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، قال سبحانه في موسى عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى ءَاتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [القصص:١٤]، وكانت الفترة من حين مبعثه ﷺ إلى حين هجرته ثلاث عشرة سنة، وأوّل ما أتاه الوحي وهو في جبل حراء، فعلّمه آيات من القرآن، وكان ذلك في يوم الاثنين، فعاد النبي ﷺ من جبل حراء إلى بيت خديجة عليها السلام في مكة، فحدّثها بما أكرمه الله تعالى من النبوة، وقرأ عليها الآياتِ التي نزل بها جبريل عليه السلام، فأَسَلَمَتْ في نفس اليوم، وفي اليوم الثاني أسلم علي بن أبي طالب عليه السلام.

التدريج في الدعوة

لم يؤمر النبي ﷺ في السنواتِ الثلاثِ الأولى من البعثة بأن يدعو أحداً إلى الإسلام، فلم يكن معهُ في الإسلام في هذه الفترة أحد إلَّا زوجته خديجة وابن عمِّه علي بن أبي طالب عليهما السلام فإنهما دخلا معه في الإسلام من أوّلِ يومٍ ابتعثه الله فيه، فقد أسلمت خديجة وآمنت في نفس اليوم الذي نزل عليه فيه جبريل عليه السلام بالنبوة، وكان ذلك يوم الاثنين، وأسلم عليٌّ عليه السلام وآمن في اليوم التالي(١).

(١) ذكر الإمام الحسن عليه السلام في أنوار اليقين عن الإمام الهادي عليه السلام إسلامه عليه السلام يوم الثلاثاء، وذكر ذلك عن أنس، ورواه الموفق بالله في سلوة العارفين عن أنس، وروى الحاكم الجشمي في تنبيه الغافلين عن أبي رافع: «صلى النبي ﷺ يوم الاثنين، وصلى علي يوم الثلاثاء». ورواه محمد بن سليمان الكوفي في المناقب عن علي عليه السلام، وعن أبي رافع، وعن أنس بلفظ: «بعث النبي ﷺ.. إلخ» وروى ذلك المحب الطبري في ذخائر العقبى عن أنس وأبي رافع، وابن أبي الحديد في شرح النهج عن جابر بن عبدالله وأنس وأبي رافع، ورواه الترمذي في سننه عن علي عليه السلام وعن أنس. والحاكم في المستدرك عن بريدة وقال: صحيح الإسناد، وقال الذهبي: صحيح، وعن أنس وعن =

وفي الروايةِ المشهورة عن ابن عفيف الكندي(١) وكان تاجراً، فجاء إلى مكة وكان صَدِيقاً للعباس بن عبد المطلب، فبينما هو يوماً عند العباس إذ رأى شاباً أقبل فوقف قائماً، ثم أقبل غلام مراهق فوقف عن يمينه، ثم أقبلت امرأة فوقفت خلفهما، فإذا ركع الشاب ركع الغلام والمرأة، وإذا سجد سجد الغلام والمرأة، فقال الكندي: ما هذا يا عباس؟ قال العباس: هذا الشاب محمد بن عبدالله ابن أخي، وذلك الغلام علي بن أبي طالب ابن أخي، وتلك المرأة خديجة بنت خويلد زوجة محمد، وقد زعم أنَّ الله بعثهُ نبياً، ولا والله ما على وجه الأرض على هذا الدين غيرهم...إلخ.

وقد روى أئمة الزيدية ومحدّثوهم وكثير من محدّثي أهل السنة عن علي عليه السلام أنه قال ما معناه:(صَلَّيتُ ست سنين مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل الناس)، وفي رواية: (سبع سنين)(٢).

أبي رافع وقال: صحيح الإسناد، وراه الطبراني في الكبير والبزار في مسنده عن أبي رافع، ورواه الخطيب في تاريخ بغداد، وابن الأعرابي في معجمه، وابو يعلى في مسنده عن أنس، ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق عن علي عليه السلام، ورواه عن أنس وعن أبي رافع من عدة طرق، ورواه ابن جرير الطبري في تاريخه عن جابر بن عبدالله، وكذلك ابن الأثير في الكامل، ورواه ابن كثير في البداية والنهاية عن جابر وأنس، والمزي في تهذيب الكمال، وابن عبد البر في الاستيعاب، ورواه أبو يعلى في مسنده عن علي عليه السلام بلفظ: (بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم الاثنين، وأسلمت يوم الثلاثاء»، وأخرجه السيوطي في الجامع الكبير والمتقي الهندي في كنز العمال وعزياه إلى أبي يعلى وأبي القاسم بن جراح، ورواه ابن المقري في جمهرة الأجزاء عن أبي رافع وكذلك الرامهرمزي في الأمثال.

(١) رواه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح الإسناد، وقال الذهبي: صحيح، ورواه النسائي في سننه وأحمد في مسنده والضياء في المختارة، وغيرهم، وانظر: جامع المسانيد والسنن (٦/ ١٧٢) وفيه بعد أحد طرقه أن عفيفاً قال بعد أن أسلم ورسخ إسلامه: ليتني كنت رابعاً.

(٢) أورده الإمام الحجة مجدالدين بن محمد المؤيدي عليه السلام في مجمع الفوائد عن علي عليه السلام بلفظ: ((أنا عبدالله وأخو رسوله، وأنا الصديق الأكبر لا يقولها بعدي إلا كذاب مفتر، ولقد صليت قبل الناس بسبع سنين)) ثم قال بعده: أخرجه ابن أبي شيبة وابن أبي عاصم والنسائي والحاكم =

ولا خلافَ عِنْدَ جميع فِرَقِ الشيعة أنّ علياً أوّل ذَكَرٍ أسلم، واختلف أهلُ السنة فقال بعضهم: عليٌ أوّل مَنْ أسلم، وقال بعضهم: أبو بكر أوّل من أسلم، ولما رأى البعض من أهل السنة أن هذا القول غير مقبول جاء بقول أقرب إلى القبول، فقال: أبو بكر أول من أسلم من الرجال، وعليٌ أوّل مَنْ أسلم من الصبيان(١).

ونقول: إن علياً هو أول من أسلم على الإطلاق، ولم يكن صبياً حين أسلم بل كان اسلامه بعدما بلغ سنّ التكليف، ولو كان صبياً حين أسلم لما اعتدَّ النبي ﷺ بإسلامه، ولما قَبِل منه ذلك؛ لأنّ الله تعالى رفع التكليف عن الصبيان والمجانين، وقد أجمع أهل البيت وعلماء الشيعة بما فيهم الزيدية على أن علياً هو أوّل من أسلم على الإطلاق، ورووا في ذلك روايات صحيحة عن النبي ﷺ وعن علي وغيره، بالإضافة إلى ما رواه الكثير من محدّثي أهل السنة والجماعة.

وبعد، فأهل السنة والجماعة مُتَّهَمُون في مثل ذلك لما عُرِف من عداوتهم لعلي ولأهل البيت حتى جعلوا حبّ علي ذنباً وجريمة لا تُغْفَر، ثم لما عرف

والعقيلي وأبو نعيم، ورواية أخرى لأبي علي الصفار.اهـ وانظر: المستدرك على الصحيحين (٣/ ١٢٠ رقم: ٤٥٨٤)، السنن الكبرى للنسائي (٧/ ٤٠٩ رقم: ٨٣٣٨)، السنة لابن أبي عاصم (٢/ ٥٩٨ رقم ١٣٢٤)، خصائص علي للنسائي (١/ ٢٥)، فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (٢/ ٥٨٦ رقم ٩٩٣). وسنن ابن ماجه (١/ ٤٤ رقم ١٢٠).

(١) وأيضاً لو كان غير مكلف لما مدحه النبي ﷺ في روايات كثيرة بأنه السابق إلى الإسلام، وغير ذلك، وأيضاً من التدريج في الدعوة يظهر أن النبي ﷺ قد بقي عدة سنوات وليس معه إلا أمير المؤمنين عليه السلام وخديجة رضي الله عنها، وأيضاً وردت روايات عند أهل السنة أن زيد بن حارثة أسلم قبل أبي بكر، ففي الكبير للطبراني عن محمد بن إسحاق قال: أسلم زيد بن حارثة بعد علي رضي الله عنه فكان أول من أسلم بعده، وفي معرفة الصحابة لأبي نعيم عن علي عليه السلام قال: أسلم زيد بن حارثة...إلى قوله: فكان أول ذكر أسلم وصلى بعد علي عليه السلام، وانظر سيرة ابن إسحاق وسيرة ابن هشام والكامل لابن الأثير وغيرها.

من غُلوِّهم في فضائل أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية حتى بلغوا بهم المنزلة التي لا تنبغي إلا لربّ العالمين، حيث حرّموا النقد عليهم وتوجيه التساؤلات إليهم، وقد أخبر تعالى أن هذه الصفة ليست إلا له جلّ وعلا، فقال سبحانه: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء].

وهذه هي المرحلة الأولى من البعثة.

والمرحلة الثانية جاءت بعد السنوات الثلاث، أمره الله تعالى أن يدعو عشيرته الأقربين: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤]، فلمَّا أمره الله تعالى بذلك أمَرَ عليّاً عليه السلام أن يجمع له بني عبد المطلب وهم أربعون رجُلاً يزيدون رجلاً أو ينقصون رجلاً، فجمعهم عليٌّ وذبحَ لهم شاةً فلما أكلوا وشبعوا وتهيأَ النَّبيُّ صلى الله عليه وآله وسلم لِلكلام والدعوة، تكلّم أبو لهب فقال: سَحَركم الرجُل، فلم يتهيأ لِلنبي صلى الله عليه وآله وسلم يومئذٍ الكلام، فأمر عليّاً أن يجمعهم له مرة أخرى وأن يذبح لهم شاةً، فلمَّا شَبِعُوا تكلّم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بني عبد المطلب، ودعاهم إلى الإسلام، واحتجّ عليهم بدلائل صدقهِ ونبوّته، فلم يجبه أحدٌ إلا علي عليه السلام فإنه آمن بِهِ وصدَّقه، وكان علي كما يقول هو عن نفسه: (أحمشهم ساقاً، وأعظمهم بطناً).

وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال لهم من جملة ما قال: ((من يبايعني منكم على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي..)) إلخ[1]، فلم يجبه أحد إلا علي عليه السلام فقال أبو

---

(١) خبر الإنذار ويسمى أيضاً خبر الدار: رواه نجم آل الرسول الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام في مجموعه، والإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة عليه السلام، والكوفي في المناقب والحاكم الجشمي في تنبيه الغافلين وغيرهم، ورواه من المخالفين: البغوي في تفسيره والخازن في تفسيره وابن أبي حاتم في تفسيره والثعلبي في تفسيره، ومن المحدثين: النسائي في سننه وأحمد بن حنبل في مسنده، والضياء في المختارة، وابن جرير الطبري في تاريخه، وابن عساكر في تاريخ دمشق، والهيثمي في مجمع الزوائد، وقال: رواه أحمد ورجاله ثقات. انتهى. هذا، والخبر مروي عن أمير المؤمنين علي عليه السلام والعباس والبراء وأبي رافع.

لهب لأبي طالب: قد أمرك مُحَمَّدٌ أن تسمع وتطيع لابنك، وقد كان أبو طالب شيخ بني هاشم وسيّدهم المطاع، بل وسيّد قريش على الإطلاق، فكان لذلك يحافظ على مكانته فيهم؛ لذلك أخفى إسلامه في أول الأمر لتتسنى له المناصرة للنبي ﷺ والمدافعة عنه والمحافظة عليه، ولو أنه أعلن إسلامه من أول يوم لتركته قريش وبنو هاشم وعصوه وخالفوه، ولما استطاع حماية النبي ﷺ ولا المدافعة عنه.

ثم جاءت بعد ذلك المرحلة الثالثة: أمره الله تعالى بتعميم الدعوة في قريش فقال له سبحانه وتعالى: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر:٩٤]، فدعا النبي ﷺ قريشاً، فقال ﷺ: ((يا بني عبدالمطلب يا بني فهر يا بني لؤي، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفحِ هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أصدقتموني؟)) قالوا: نعم، قال: ((فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذابٍ شديد))، فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم أما دعوتنا إلَّا لهذا؟ فأنزل الله سُبحانه وتعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ...إلخ﴾ [المسد].

وعلى الجملة فقد صدع النبي ﷺ في قريش بالدعوة، وبالغ فيها بكل جِدٍّ وإخلاص حتى لقد كاد ﷺ أن يقتله الأسف حين لم يُسلموا، وكادت شفقته عليهم من غضب الله أن تصرعه حين فاته إسلامهم، وما زال مع ذلك يُتابعهم ويُلاحقهم بالنصيحة والدعوة المخلصة حتى رحمه ربه جلَّ وعلا مما هو فيه من النَّصَبِ والتَّعَبِ والعناءِ في ملاحقتهم والشفقة عليهم من غضب الله تعالى فقال له تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى ءَاثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف:٦].

ثم جاءت المرحلة الأخيرة من الدعوة[١] وهي: تعميم الدعوة، فقال الله لنبيه ﷺ: ﴿لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى:٧]، ﴿لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ ءَابَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ﴿٦﴾﴾ [يس]، ﴿لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام:١٩]، ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾ [هود:١٧]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ:٢٨]، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]؛ لذلك كان النبي ﷺ يدعو القبائل في مواسم الحج ويعرض نفسه عليهم، وخرج إلى الطائف؛ فلم يُطِعْهُ أحدٌ حتى السَّنة العاشرة[٢] من البعثة أطاعه رجال من أهل المدينة وبايعوه على العقبة في طرف منى، ثم في السنة الثانية بايعه عدد كبير من أهل المدينة على العقبة أيضاً، ثم انتشر الإسلام في المدينة وهاجر النبي ﷺ والمسلمون.

---

(١) وفي كتاب سبل الهدى والرشاد: قال العلماء....: أول ما أوحى الله تبارك وتعالى أن يقرأ.... فأمره أن يقرأ في نفسه ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ..إلى قوله: ثم أمره بإنذار عشيرته الأقربين، ثم إنذار قومه، ثم إنذار من حوله من العرب قاطبة، ثم إنذار من بلغته الدعوة من الجن والإنس.

(٢) ذكر مثله في بهجة المحافل. وبعض المؤلفات العصرية في السيرة النبوية يذكرون أنه التقى في السنة العاشرة بستة نفر من يثرب، ثم في السنة التي بعدها أتى اثنا عشر وبايعوا البيعة الأولى وهكذا. وأغلب المصادر أن اللقاء السنة الحادية عشرة، والعقبة الأولى في الثانية عشرة، والعقبة الثانية في السنة الثالثة عشرة.

عموم الرسالة وطبيعتها

أرسل الله تعالى رسوله محمداً ﷺ إلى الناس كافةً عربهم وعجمهم وأسودهم وأبيضهم وقريبهم وبعيدهم؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا...﴾ الآية [سبأ:٢٨]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]، ولا خلاف في ذلك بين المسلمين.

ونبينا محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين فلا نبي بعده، ودينه وشريعته خاتمة الأديان والشرائع، وقد أمر الله تعالى أهل التوراة وأهل الإنجيل أن يتبعوا محمداً ﷺ: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ..﴾ الآية [الأعراف:١٥٧]، ولما كان دين الإسلام هو خاتمة الأديان والذي جاء به خاتم الرسل ﷺ- جعله الله تعالى عامّاً لكل المكلفين، بناه الله تعالى على الحكمة والرحمة والرفق والتسامح، وعلى التخفيف في شرائعه وأحكامه، والتوسعة والتيسير، مع مراعاة المصالح العامة، ودفع المفاسد والمهالك في كل أحكامه، وقد جعله الله تعالى بعلمه وحكمته متناسباً مع مصالح البشر ومنافعهم على اختلاف طبائعهم وأجناسهم على مَرِّ العصور إلى يوم القيامة.

ومن الأدلة الملموسة على ما ذكرنا ما ظهر واشتهر في العالم في هذه الأزمان المتأخرة من انتشار مرض الإيدز المرض القاتل الذي أعيا الأطباء وأعجزهم، وتُعَدُّ ضحاياه بالملايين في كل العالم، وهذا المرض ناتج عن الزنا واللواط، وأكثر انتشاره في الدول الغربية، وقد كانت الدول الغربية تدعو إلى حرية الإنسان،

وتنتقد الإسلام في تقييده للحرية، ولا سبيل للإنسان اليوم إلى التخلص من ذلك المرض المهلك الفاشي والمنتشر في المجتمعات إلا بترك الزنا واللواط.

فالله تعالى برحمته جعل في هذا الدين خير الدنيا والآخرة، وسعادة الدنيا والآخرة، يريد الله سبحانه أن يخرج الناس به من الظلمات إلى النور، ويزكّيهم ويطهرهم ويرفع شأنهم، وينزلهم منازل العزّة والكرامة والرفعة في الدنيا والآخرة، ويحلّ لهم الطيّبات، ويحرّم عليهم الخبائث.

موقفُ قريشٍ العامّ من نبي الإسلام ودعوته

لم يجهد أحد من الكافرين مثل ما جهدت قريش في عداوة الإسلام ونبي الإسلام، فقد كانت قريش أشدّ أعداء النبي ﷺ والمسلمين، ولم يبلغ أحد من المشركين في عداوة النبي ﷺ مثل ما بلغوا، ولم يحرص أحد على تكذيبه مثل ما حرصوا، ولم يَسْعَ أحدٌ مثل سعيهم في إطفاء نور الإسلام، وأكثر الحروب التي واجهها النبي ﷺ كانت من قريش؛ فهم أهل غزوة بدر، وأهل غزوة أُحد، وأهل غزوة الخندق، وكانت هذه الثلاث الغزوات أكبرَ وأعظمَ ما واجهه النبي ﷺ والمسلمون من الحروب، أما سائر حروبه ﷺ فقد كانت مع اليهود ومع ثقيف.

أما حروبه مع اليهود فلم يَلْقَ النبي ﷺ والمسلمون كبير عناء، ولم يلحقهم فيها خسائر بشرية أو مادية تُذْكر، وأمَّا حربهم مع ثقيف فقد لَـحِق المسلمين أوّل المواجهة الفشلُ والخوفُ والفزعُ حتى ولَّوا هاربين، وثبت النبي ﷺ في جماعةٍ من أهل بيته فلم يفرّوا، وثبتوا وجالدوا ثقيف حتى منحهم الله النصر، وأنزل عليهم السكينة، ثم تراجع الفارُّون؛ فكانت الهزيمة الساحقة لثقيف، والظفر والغنيمة للمسلمين، وقد كان هناك غزوات ظفر فيها المسلمون من غير كبير عناء مثل غزوة بني المُصْطَلَق.

ولم تدخل قريش في الإسلام إلَّا كرهاً حين غزاهم النبي ﷺ وجيوشه الجرَّارة، فدخلوا مكة، ورأت قريش أنه لا قِبَل لها بقتالهم، فاستسلمت مُكْرهة حين استيقنت أنه لا نجاةَ لها من ضربِ الرِّقاب إلا الاستسلام.

وقد صَرَّف الله سبحانه وتعالى في القرآن لقريش الآيات والدلالات والحجج والبيِّنات؛ فما زادهم ذلك إلا نفوراً، وتماماً كما وصفهم الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ [الإسراء:٤١]، فتمرَّدوا على الله تعالى وعلى رسوله ﷺ بعد وضوح الآيات البيِّنات غاية التمرد، وكذَّبوا واستهزأوا، وقد حكى الله تعالى الكثير عن تمرّدهم وغاية طغيانهم، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ۝٩٣﴾ [الإسراء]، ﴿وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ [الفرقان]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ﴾ [الفرقان:٤].

وقد ردّ الله تعالى على قريش حين قالوا: إنه ﷺ ساحر وشاعر ومجنون وكاهن، فقال: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ۝٢﴾ [القلم]، ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ ۝٤١ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ۝٤٢﴾ [الحاقة]، ﴿فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۝٢٤﴾ [المدثر]، ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝٣﴾ [الكوثر]، ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا ۝١٦﴾ [الطارق]، ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ۝٣٠﴾ [الأنفال].

وكانت قريش كما وصفها الله تعالى تصدّ الناس عن محمدٍ ﷺ وعن دينهِ وتحذِّر الناس، وكانوا إذا جاء موسم الحجِّ أو العمرةِ يجعلون على مداخل مكة والحرم وفي طُرقها من يُحذِّر مِنْ محمد ﷺ ومن قُربِهِ ومن الاستماع إلى حديثهِ؛ لأنه يُفَرِّقُ بسحره بين الوالد وولده والأخ وأخيه، وأنه يسحر الناس بكلامه، فيدخل الحُجَّاج والعمَّار مكة وهم على الغاية من الحذر والانتباه؛ خوفاً من سحرِ محمدٍ ﷺ!!

وكم ذكر الله قريشاً في القرآن بصفة الكفر والصَّدِّ عن سبيل الله كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد:١] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ﴾ [الحج:٢٥].

[قصة آل ياسر]

ومن صور الصدِّ عن الإسلام الذي كانت تفعله قريش ما اشتهر عند أهل الأخبار والسير أنَّ عمَّاراً وأباه ياسراً وأمه سُمَيَّة كانوا أهل بيتٍ مسلمين، وكانوا من السابقين إلى الإسلام، وكانوا مماليك لبعض بني مخزوم، فضيَّقوا على آل ياسر وعذبوهم ليتركوا الإسلام فلم يتركوه، وشدَّدُوا عليهم العذاب ونَوَّعُوه، فلم ينفع ذلك، فأقام أبو جهل سمية على مكان مرتفع وجرّدها عن ثيابها وطعنها بالحربة في فرجها، فماتت رحمة الله عليها، ثم قتلوا زوجها ياسراً بصورةٍ قبيحةٍ، ثم مالوا إلى ولدها عمار ليُلْحِقوه بأبويه، فتكلَّم لهم بكلمة الكفر بلسانهِ، وقلبُه مُطْمَئِنٌّ بالإيمان فأسلموه، فخاف عمار من كلمة الكفر التي أرضاهم بها وذهب إلى رسول الله ﷺ وقصّ عليه القصة؛ فنزل قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل:١٠٦] فقال النبي

ﷺ: ((إن عادوا لك بالتعذيب فَعُدْ لهم)) وقد كان النبي ﷺ يمرّ على آل ياسر وهم يعذَّبون، فيقول لهم: ((أَبشروا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة))، وهكذا كانت قريش تصنع بضعفاء المؤمنين، وكان الأغلب من المسلمين ضعفاء.

الهجرة إلى الحبشة

ولما رأى النبي ﷺ ما يصيب أصحابه المسلمين المستضعفين من البلاء والعذاب، وأنه لا يستطيع دفعه عنهم، ولا نُصرتهم- أشار عليهم بالهجرة إلى الحبشة لما اشتهر من أن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد، وقال لهم ﷺ: ((لو خرجتم إلى أرض الحبشة إن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه))، فهاجر الكثير من المستضعفين عن مكة ونزلوا أرض الحبشة في جوار ملكها العادل، فلمَّا عرفت قريش بذلك أرسلت جماعةً فيهم عمرو بن العاص، ومعهم هدايا لملك الحبشة، ومهمتهم هي أن يغروا ملك الحبشة بالمسلمين النازلين بأرضه وبجواره، وأن يتوصّلوا إلى ذلك بكل حيلة، وكان ملك الحبشة نصرانياً، فقال له عمرو بن العاص: إن هؤلاء النازلين بك يقولون في عيسى قولاً عظيماً، يقولون: إنه عبدٌ وإنه ابن مريم وليس ابن الله، هذا بعض ما قاله عمرو بن العاص؛ فدعا الملك المسلمين فجاءوا، وكان على رأسهم جعفر بن أبي طالب(١)، وكان بَطَارِقَةُ المَلِكِ حاضرين فقال عمرو بن العاص: سَلْهم عن عيسى؛ فَسَألهم الملك، فتَصَدَّر للجواب جعفر بن أبي طالب فقال: كما جاء في القرآن: إنه عبد الله ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ

(١) هذه صورة من صور رحمة النبي ﷺ بأتباعه حين أرسل معهم ابن عمه جعفر بن أبي طالب مع أنه ابن سيد قريش وكبيرها؛ فقريش لا تصل إليه.

مِنْهُ...﴾ الآية [النساء:١٧١] فقال الملك: والله ما زاد عيسى على ما ذكرتَ شيئاً؛ فأذلَّ اللهُ عمرو العاص وخيَّبَ أمَلَهُ، وخَرَجَ خائباً خاسراً، وعاد مع رفقته إلى مكة مكبوتاً، وذهبت حيلته ودهاؤه ومكره أدراجَ الرياح، بل ضاع بعض جماعة عمرو بن العاص في الحبشة، وزادت عنايةُ المِلكِ بالمسلمين النازلين به، وأسلم الملك وأسلم جماعة من رهبان بلاده، ووفد جماعة منهم إلى النبي ﷺ بعد الهجرة. وتزوج النبي ﷺ برملة بنت أبي سفيان، وكانت من المهاجرات إلى الحبشة وأمْهَرَها النجاشي، ومات النجاشي بعد الهجرة، وصلى عليه النبي ﷺ والمسلمون صلاة الجنازة، وكبَّر عليه النبي ﷺ خمس تكبيرات، حسب رواية أهل البيت.

وروي أنه نزل في وفد النصارى الذين بعثهم النجاشي إلى النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ﴿٨٥﴾﴾ [المائدة].

إسلام أبي طالب

آمن أبو طالب بن عبدالمطلب بنبوة محمد ﷺ وصَدَّقَ بها، وله قصائد وأشعار مشهورة يرويها أهل السنة والشيعة، يصرّح فيها بالإسلام والتصديق بالنبي وبرسالته، وقد كان أبو طالب يَعْرِف نبوة محمد ﷺ من قبل بعثته وكذلك عبدالمطلب؛ لأَخْبَارٍ تلقّوها من أهل الكتاب، من آخرها ما سمعه أبوطالب من بحيرى الراهب في سَفْرَةٍ سافرها أبو طالب إلى الشام ومعه محمد

ﷺ، وكان صغيراً في سنّ الثانية عشر من عمره، وذلك في بلدة (بصرى) التي كانت بها صومعة الراهب بحيرى، فإنه أخبر أبا طالب بنبوة محمد ﷺ لأمارات ظهرت له، وأوصاه بالمحافظة عليه، وحذّره من اليهود؛ لذلك آمن أبوطالب وصدق، ونصر الرسول ﷺ في مكة نصراً عزيزاً، وحماه ودافع عنه وحال بينه وبين أذى قريش.

وقد حكى الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة عليه السلام إجماع أهل البيت[1] على

---

(١) قال الإمام الحجّة مجدالدين بن محمد بن منصور المؤيدي عليه السلام تعليقًا على ما ورد في كتاب النجاة للإمام الناصر أحمد بن يحيى عليه السلام في شأن أبي طالب رضي الله عنه ما لفظه: قلتُ: وما في كتاب النجاة في شأن أبي طالب رضي الله عنه غَيْرُ صحيحٍ، ومما يدلّ على ذلك دلالة واضحة أن الإمام الناصر عليه السلام ساقَ الأبياتَ التي تدلّ على إيمان أبي طالب وتصديقه برسول الله ﷺ وجَعَلَها دلالة على ضِدِّ ذلك، فحاشاه عليه السلام أن يُخَالِفَ إجماعَ أَهْلِ البيتِ عليهم السلام، وقد حكى الإجماعَ على إيمان أبي طالب رضي الله عنه خمسةٌ من أعلامِ أهل البيت عليهم السلام وأوليائهم رضي الله عنهم، منهم: الإمام الأعظم المنصور بالله عبدالله بن حمزة عليه السلام في جوابه على ابن المعتزّ العباسي بقوله:

حماه أبونا أبو طالبٍ ... وأَسْلَمَ والناس لم تُسْلِمِ
وقد كانَ يَكْتُمُ إيمانَهُ ... فأمَّا الولاءُ فلمْ يَكْتُمِ

والقاضي جعفر بن عبد السلام، والشيخ الحسن، والفقيه حميد الشهيد، والحاكم صاحب التهذيب رضي الله عنهم. وقاله أبو القاسم البلخي؛ يعني ممن ذهب إلى إيمانه، وأبو جعفر الإسكافي، والقرطبي، والشعراني، وغيرُهم. وقوله:

أَلَمْ تعْلَمُوا أنَّا وَجَدْنا مُحَمَّدًا ... نَبِيًّا كَمُوسَى وَالْمَسِيحِ بنِ مَرْيَمِ

رواه ابن هشام، وابن أبي الحديد، وصاحب الاكتفاء، والمعلوم أنَّ أبا طالب وعبد المطلب وهاشمًا لم يعبدوا الأوثان، ويكفي في ذلك قول أبي طالب:

وبالْغَيْبِ آمَنَّا وقَدْ كانَ قَوْمُنا ... يُصَلُّونَ للأوْثَانِ قَبْلَ محمَّدِ

وقد قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: (ما عَبَدَ أبي ولا جدّي عبد المطلب ولا هاشم ولا عبد مناف صنمًا قطّ، كانوا يصلّون إلى البيتِ على دين إبراهيم الخليل متمسِّكين به) رواه أبو العباس الحسني رضي الله عنه =

بسنده إلى علي عليه السلام. وقال أبو طالب للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: ما أشدَّ تصديقنا لحديثكَ وأَقْبَلَنا لِنُصْحِكَ...إلى أن قال: وبالغيبِ آمنَّا...إلخ.

وقد رُوِي عن علي بن محمد الباقر أنه سُئِلَ عما يقوله الناس في إيمانِ أبي طالب، فقال: «لو وُزِنَ إيمانُ أبي طالب وإيمانُ هذا الخلقِ لرَجَحَ إيمانُه، ثم قال: ألم تعلموا أنّ أمير المؤمنين عليًّا عليه السلام كان يَأْمُرُ أنْ يُحَجَّ عن عبدالله وأبيه وأبي طالب في حياته، ثم أوصى في وصيّته بالحجِّ عنهم».

وعنه صلى الله عليه وآله وسلم: ((إذا كان يوم القيامة شَفَعْتُ لأبي وأمي وعمّي أبي طالب)) رواه المحبّ الطبري. انتهى من تفريج الكروب، ورواه ابن عساكر عن ابن عمر، وأخرجه عنه تمام الرازي.

ومما رواه الإمام الحسن بن بدر الدين عليه السلام عن ابن عمر قال: جاء أبو بكر إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم..إلى قوله: والذي بعثكَ بالحقِّ نبيًّا لأَنا بإسلام أبي طالب أشدّ فَرَحًا بإسلام أبي، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((صدقت)).

وروى أيضًا عن علي عليه السلام: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما أُخْبِرَ بموتِ أبي طالب بكى، وقال: ((اذهبْ فاغسِلْه وكفّنه)).....إلى قوله: ((غفرَ الله له ورحمه)). انتهى.

وعن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عارَضَ جنازةَ أبي طالب، فقال: ((وَصَلَتْكَ رَحِمٌ وجُزِيتَ خيرًا ياعمِّ)) أخرجه ابن عدي.

ولما مات أبو طالب أمرَ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بغسله وكفنه، ثم كَشَفَ عن وجْهِهِ، فمسحَ بيده اليمنى على جبهته اليمنى ثلاثًا، ثم مسحَ بيده اليسرى على جبهته اليسرى ثلاثًا، ثم قال: ((كَفِلْتَني يتيمًا، وربّيتني صغيرًا، ونصرتني كبيرًا، فجزاكَ الله عنِّي خيرًا)) رواه أبو العباس الحسني عن الباقر عليه السلام.

ولما قاربَ أبو طالب الموت، قال العباس له صلى الله عليه وآله وسلم: «والله يا ابنَ أخي لقد قالَ الكلمةَ التي أَمَرْتَهُ بها أن يقولها»، رواه ابن هشام، والحلبي في سيرته، وصاحب الاكتفاء، وحكى في فتح الباري عن ابن إسحاق بسنده إلى ابن عباس مثله. قال: وقد ذكر السهيلي أنه رأى في بعض كتب المسعودي أنه أَسْلَمَ.

وروى الإمام أبو طالب بسنده إلى زين العابدين قال: قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((يُبْعَثُ عبد المطلب يوم القيامةِ أمّة وحده)). وقد روى المسيب أن أبا طالب قال: أنا على مِلَّةِ عبد المطلب، وعبد المطلب كان على دين إبراهيم مصدِّقًا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم. وما أحسن قول ابن أبي الحديد:

وَلَـوْلا أبـو طَالـبٍ وابْنُـهُ ... لما مثل الـدينُ شَخْصًـا فقَامـا

فهـذا بمكَّـةَ آوى وحـامى ... وهـذا بيثـرب جَـسَّ الْحِمامـا

تكفَّـلَ عبـد منـافٍ بـأَمْرٍ ... فكـان عـلِيٌّ لـذاكَ تَمامـا

=

إسلام أبي طالب، وقد وضع بعض أهل السنة وهو أحمد بن زيني دحلان كتاباً يبيّن فيه إسلام أبي طالب ضمَّنه الدلائل الدالة على إسلامه كقصائده وأشعاره وغير ذلك وسمَّاه «أسنى المطالب في إسلام أبي طالب»، والدلائل التي تضمنها هذا الكتاب مأخوذة من كتب أهل السنة ومصادرهم المعتمدة، وهي دلائل كثيرة، غير أنَّ تعصُّبَ أهل السنة وتحمُّسَهم ضد أهل البيت والشيعة وما يتصل بهم يأبى الاعتراف بإسلامه، ويصرّ على الجحود بإيمانه وعلى أنه مات مشركاً، وما إصرارهم على الجحود لإسلام أبي طالب إلا كإصرارهم على جحود فضائل علي وأهل البيت والشيعة والتنكر لذلك.

نعم، وإذا اعتبرنا قول أهل السنة المنكرين لإسلامه ووَازنَّا بينه وبين قول

فأما ما ترويه العامَّة مما يفيد عدمَ إيمانِه- فانْحِرافُهم عن الطالبيّين وميلُهم إلى موافقةِ غَرَضِ الدّوْلَتيْنِ مما يحملهم على الْوَضْعِ وقَبُولِ ما وُضِعَ، وتزييف ما خالْفَ هواهم، فعليكم بالثقل الأصغر تنجوا يوم الفزع الأكبر، والله المستعان، انتهى أغلبه من التخريج.

ومما يدلّ دلالة صريحة بما ذكرناه من هذا البيت الطاهر الشريف ما رواه أهل السير والتاريخ من قصّة عبدالله بن عبد المطلب مع الْكَاهِنَةِ التي تعرَّضَتْ له، وذلك ما رواه أبو العباس الحسني رضي الله عنه قال: أخبرنا عمر بن أبي سلمة الخزاعي، قال حدثنا بدر بن الهيثم، قال: حدثنا علي بن حرب، قال: حدثنا محمد بن عمارة القرشي عن مسلم بن خالد عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: لما خرج عبد المطلب بن هاشم بابنه عبدالله ليزوّجه؛ مَرَّ به على كاهنة من أهل تبالة قد قرأت الكتبَ كلَّها متهوِّدَة يقال لها فاطمة بنت مرّ الخثعمية، فرأت نُورَ النبوَّةِ في وَجْهِ عبدالله، فقالت له يا فتى: هل لكَ أن تَقَعَ عليَّ الآنَ وأعطيك مائة من الإبل، فقال شعرًا:

أمَّـــا الحـــرامُ فـــالمماتُ دونَـــه ... والحِـــلّ لا حِـــلَّ فأســـتبينه

فكَيْـفَ بـالأَمْرِ الـذي تَبْغِينـه ... يحمـي الكـريمُ عِرْضَـهُ ودينَـه

...إلى آخر القصة، وقد ذكرها الإمام أبو طالب في أماليه. انتهى (من الإمام الحجة مجدالدين بن محمد المؤيدي عليه السلام).

القائلين بإسلامه- كان الواجب علينا الحكمَ بإسلامه؛ لأن المقرَّرَ في شرائع الإسلام وقواعده المُسَلَّمَةِ عند جميع علماء المسلمين أن شهادة الْمُثْبِت أولىٰ من شهادة النافي، وخبر المثبِت أولىٰ من خبر النافي، ورواية المثبِت أولىٰ من رواية النافي، وأن من يعلم حجّة علىٰ من لا يعلم.

ومن شعر أبي طالب المشهور عند أهل السنة قوله من قصيدة قالها حين حُوصِرَ في الشعب:

ألم تعلمـــوا أنَّـــا وجـــدنا محمـــداً نبيـاً كموسـىٰ خُـطَّ في أول الكتـبِ

فجزىٰ الله أبا طالب عن الإسلام ونبي الإسلام خيراً؛ فلقد كفل النبي ورباه صغيراً، ثم نصره وأيَّده وحماه حين بعثه الله نبياً، فكان ﷺ يصدع برسالته وينشر دعوته في مكة تحت حماية أبي طالب ورعايته، ولم يزل ﷺ علىٰ نشر الدعوة إلىٰ سنة عشر من البعثة، وهي السنة التي مات فيها أبوطالب فخرج ﷺ منها خائفاً.

نعم، هناك رواية رويت في المجموع أن أبا طالب كره هيئة السجود حين رأىٰ النبي ﷺ وعلياً عليه السلام يصليان، وقال: «والله لا تعلوني استي».

فأبوطالب قال ذلك في مكة قبل أن تُفْرَضَ الصلاة والصيام وسائر شرائع الإسلام، فلم يكن حين ذاك من الواجبات إلا شهادة أن لا اله إلا الله وأنَّ مُحَمَّداً رسول الله ﷺ، فمن قالها وصدَّق بها فهو مسلم، وكان ﷺ يقول في ذلك الوقت: ((من قال لا إِله إِلَّا الله دخل الجنة))، فكان ذلك هو الفريضة الوحيدة، ولم تُفْرَض الفرائض إلا بعد الهجرة إلىٰ المدينة.

ويدل علىٰ إسلامه أيضاً: ما ثبت بالتواتر واشتهر بين أهل السنة وغيرهم أنَّ قريشاً لَمَا رأوا إصرار أبي طالب علىٰ مُناصرة محمدٍ ﷺ وأَيسوا منه وعلموا

أنه لن يُسَلِّمَهُ ولن يتركه- اجتمعوا وتشاوروا وأجمعوا على مُحاصرة بني هاشم ومقاطعتهم، فلا يُبَاع منهم ولا يُشْتَرى، ولا يدخل معهم أحد في معاملة ولا مُناكحة، فدخل بنو هاشم في شعب أبي طالب وعلى رأسهم أبو طالب، وطَبَّقت عليهم قريش ذلك الحصار، واستمرّ بهم الحصار سنتين أو ثلاثاً.

وكانت قريش قد تعاقدت وتعاهدت على هذا الحصار وتنفيذه، وكتبت ذلك في كتاب وعلَّقته في جوف الكعبة؛ فقال النبي ﷺ لعمِّه أبي طالب: إن الأَرَضَة قد أكلت الكتاب المُعَلّق في الكعبة إلا كلمة: «باسمك اللهم» فذهب أبو طالب إلى قريش وقال لهم: إن ابن أخي أخبرني أن الأَرَضَة قد أكلت الكتاب الذي علَّقْتُمُوه في الكعبة إلا «باسمك اللهم» فإن كان حقّاً فلا تظلمونا، وإن كان كذباً فشأنكم، هذا معنى كلامه، فَوَجَدَتْ قُرَيشٌ الأمر كما ذكر، ولكنهم لم يرعووا عن ظلم بني هاشم ومقاطعتهم؛ حتى ائتمر خمسة أنفار من قريش ممن لهم بهم قرابة في نقض الحصار على بني هاشم، فتكلّم كل واحدٍ من الخمسةِ حين اجتمعت قريش في التنديد بالحصار وتقبيحه، فقال أبو جهل: هذا أمرٌ دُبِّر بِلَيْلٍ؛ فَفَشَلَ الحصار وانتهى من يومئذٍ.

وروى أهل البيت أن النبي ﷺ أمر عليّاً عليه السلام حين مات أبو طالب أن يجهِّزه، فإذا أكمل تجهيزه فليؤذنه؛ فلمَّا أكمل عليٌّ عليه السلام تجهيزه أخبر النبيَّ ﷺ، فجاء النبي ﷺ وكشف عن وجه أبي طالب وقبّل ما بين عينيه وقال: ((جزاك الله عني خيراً...إلخ)).

وما رواه أهلُ السنة مُستدلِّين به على أن أبا طالب مات مشركاً غير مقبول، ولا يجوز قبوله وتصديقه؛ لما هو معروف من شدّة عداوتهم لآل أبي طالب، ومن المعروف المتفق عليه بين أهل الإسلام أنها لا تقبل شهادة العدوّ على عدوّه.

قال في المصابيح لأبي العباس بسنده عن جعفر بن محمد قال: قال علي عليه السلام: (ما عبد أبي ولا جدي عبدالمطلب ولا هاشم ولا عبد مناف صنماً قط)، قيل: وما كانوا يعبدون؟ قال: كانوا يصلون إلى البيت على دين إبراهيم الخليل.

وبسنده عن جعفر بن محمد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((يبعث عبدالمطلب يوم القيامة أمة وحده))، قال: ((وكان لا يستقسم بالأزلام ولا يعبد الأصنام ويقول: أنا على دين إبراهيم عليه السلام))(١).

[من تاريخ اليعقوبي في إسلام أبي طالب]

قال في تاريخ اليعقوبي: ولما قيل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: إن أبا طالب قد مات عظم ذلك في قلبه، واشتدّ له جزعه، ثم دخل فمسح جبينه الأيمن أربع مرات وجبينه الأيسر ثلاث مرات، ثم قال: ((يا عمّ ربيت صغيراً، وكفلت كبيراً، فجزاك الله عني خيراً)) ومشى بين يدي سريره، وجعل يعرضه ويقول: ((وَصَلَتْكَ رَحِمٌ، وجزيت خيراً))(٢).

---

(١) وروى ابن سعد في الطبقات عن علي عليه السلام قال: أخبرت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بموت أبي طالب فبكى، ثم قال: ((اذهب فاغسله وكفنه وواره غفر الله له))، وفي الطبقات أيضاً بسنده إلى إسحاق بن عبدالله قال: قال العباس بن عبدالمطلب: يا رسول الله أترجو لأبي طالب الخير؟ قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((كل الخير أرجوه من ربي)) ورواهما ابن عساكر في تاريخ دمشق.

(٢) تاريخ اليعقوبي (١١٧).

وقائع هامة حدثت قبل الهجرة

الإسراء

حدث في مكة قبل الهجرة أنْ أكرمَ الله تعالى رسوله محمداً ﷺ بالإسراء به في ليلةٍ من الليالي من مكة إلى المسجد الأقصى في القدس بأرض فلسطين، وأراه في هذه الرحلة المباركة بعض آياته، ثم ردَّه الله تعالى إلى مكة في نفس الليلة، وقد ذكر الله تعالى هذه الحادثة الكريمة في القرآن فقال سبحانه وتعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ ءَايَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ۝١﴾ [الإسراء]، والآيات التي أراها الله تعالى نبيه ﷺ في هذه الرحلة الكريمة هي ما رأى من آثار عظمة الله وآثار قدرته وعلمه، وآثار رحمته وفضله وكرامته، وفي هذه الحادثة:

١ - أن هذه الكرامة التي حصلت للنبي ﷺ تزيد في اطمئنان النبي ﷺ بكرامته على الله، وعظيم منزلته لديه، وقد كان النبي ﷺ في حاجة إلى مثل ذلك؛ لما كان يلقى من المشركين في مكة من الاستهزاء والاستخفاف والتحقير والذم والتكذيب والأذى المتواصل يوماً بعد يومٍ وسنةً بعد سنةٍ، فربما خطر ببال النبي ﷺ أن السبب في حصول ذلك قد يكون في تناقص كرامته عند الله، فكان في هذه الحادثة ما يذهب قلق النبي ﷺ وخوفه، و...إلخ.

وقد كان ﷺ كثيراً ما يقلق ويحزن مخافة أن يكون ﷺ قصَّر فيما أُمِر به بعض تقصير، أو صَدَرَ منه ما يُقلل من رضوان الله عليه، أو ينقص منزلته وكرامته لديه، أو فَعَلَ ما يكرهه الله أو ما يُلام عليه، ولمثل ذلك نزلت سورة

الضحى يُبَيِّنُ الله تعالى فيها لنبيه الكريم مُقْسِماً أَنَّهُ ما تركه وما أبغضه، وأنه ما زوى عنه الدنيا وأعطاها لغيره إلا لأن الآخرة هي خيرٌ لهُ وأفضل من الدنيا، ثم أخبرهُ في هذه السورة بعظيم رحمتهِ بهِ وكبير فضله عليه، فقال سبحانه: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضحى]، ونزل أيضا في مثل ذلك سورة: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾، يُطَمْئِنُ اللهُ تعالى قلبَ نبيِّه أن ما هو فيه من الشِّدَّةِ والتكذيب والضعف ليس لهوانه على الله؛ بدليل ما أعطاه الله تعالى من شرح صدره ووضع وزره ورفع ذكره، وأكّد له بعد ذلك أنما هو فيه من العسر لا بد أن يعقبه اليسر.

٢- أن هذه الحادثة الكريمة ستكون آيةً بينة ودلالةً واضحةً على صحةِ نبوّته وصدق دعوته، وإكبات المكذّبين، والتخفيف من استهزائهم، وذلك أن النبي ﷺ لما أصبح صباح تلك الليلة تحدَّث بِما أَكرمَهُ الله تعالى به من كرامةِ الإسراء تلك الليلة من المسجدِ الحرام إلى المسجدِ الأقصى، فقصَّ ذلك على المُسلمين والمشركين، ولغرابتها استمع إليها المشركون وأنصتوا، ورأوا أنهم سيجدون فيها طريقاً إلى زيادة الاستهزاءِ، فكذَّبوا بما سمعوا واستهزأوا، وسألوه أن يصف لهم المسجدَ الأقصى إن كان صادقاً، فوصفهُ لهم كما هو من غيرِ زيادةٍ ولا نُقصان فخرسوا، وأخبرهم ﷺ بما رأى في الطريق، وأنه أكفأ إناء ماءٍ لواحد من مسافري قريش في مكانٍ سمَّاه، وأخبرهم أنه يطلع عليهم بعض مسافريهم من ذلك المكان بعد شروق الشَّمسِ، فكان الأمر كما قال وأخبر، فكانت هذه الحادثة سبباً لزيادة إيمان المؤمنين وتثبيتاً لهم، وحُجةً على المُكذبين وإسكاتاً لهم، وللتخفيف من استهزائهم.

٣- يتبين للمؤمنين من هذه الحادثة مكانة نبيهم ﷺ العظيمة عند الله، وارتفاع شَأنِهِ لديه، وكرامته عنده، وأنه ﷺ قد بَلَغَ في ذلك المنزلة التي لم يبلغها نبي ولا رسول، وذلك أن المؤمنين لكثرة مخالطتهم للنبي ﷺ مع ما هو فيه من الضعف والخوف والفقر والتواضع قد يقصّرون فيما يستحقه النبي ﷺ من التعظيم والتكريم، وقد لا يعرفون قدره ومنزلته التي جعله الله تعالى فيها، فأبان الله تعالى لهم منزلة نبيهم ورفيع درجته ﷺ.

المعراج إلى السموات

ومما حدث في فترة ما قبل الهجرة المعراج برسول الله ﷺ من الأرض إلى السموات السبع كرامةً أكرم الله بها نبيَّه وأبان بها عظيم منزلته لديه، وقد نزل القرآن الكريم للتنويه بهذه الكرامة العظيمة بآيات تُتلى إلى يوم القيامة؛ لئلا يغيب ذكرها من صدور المسلمين، ولتكون كرامة الرسول ﷺ العظيمة وشرفه الرفيع عند الله حياً في صدور المؤمنين في جميع الأزمان.

قال الله سبحانه وتعالى في ذكر هذه الحادثة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ (جبريل) ذُو مِرَّةٍ (قوة) فَاسْتَوَىٰ ۝٦ (أي: جبريل) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا (أي: جبريل من النبي ﷺ) فَتَدَلَّىٰ ۝٨ (إلى النبي ﷺ) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ (أي: فكانت المسافة بينه وبين النبي ﷺ مقدار طول قوسين) فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ (أي: فأوحى الله تعالى إلى النبي ﷺ على لسان جبريل في ذلك المكان) مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ (أي: رأى النبي ﷺ جبريل على صورته الحقيقية مرة أخرى) عِنْدَ

سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴿١٤﴾ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴿١٦﴾ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴿١٨﴾﴾ [النجم].

فكما سمعتَ فقد تحدثت هذه الآيات عن رؤية النبي ﷺ لجبريل عليه السلام في صورته الحقيقية عند سدرة المنتهى، وسدرةُ المنتهى هي شجرةٌ عظيمة ينقطع عندها علم الملائكة، وينتهون إليها ولا يتجاوزونها، وينتهي عندها حد السماء السابعة من جهة فوق، وبقرب هذه الشجرة جنة المأوى وهي الجنة التي تأوي إليها أرواح عباد الله الصالحين بعد مفارقتها للأجساد، فتستقرّ فيها في فَرَحٍ وسرورٍ وابتهاجٍ وحبور، ونعيم هذه الجنة نعيم روحي لا غير، فليس فيها نعيم الأكل والشرب والنكاح؛ لان ذلك من نعيم الأجساد ومشتهياتها، فجنة المأوى خاصة بأرواح المؤمنين أمَّا أجسادهم فقد ماتت، ولا يبعثها الله ويحييها إلا يوم القيامة حيث يجمع الله تعالى الأرواح بأجسادها.

[مما أوحى الله إلى نبيه ﷺ في ذلك المقام]

١- مما أوحاه الله تعالى في ذلك المقام الرفيع إلى رسوله الكريم ﷺ ما رواه الإمام زيد بن علي بسنده المعروف: ((قال لي ربي ليلة أسري بي: مَنْ خَلّفتَ على أمتك يا محمد؟ قال: قُلتُ: أنت أعلم يا رب، قال: يا محمد إني انتجبتك برسالتي، واصطفيتك لنفسي، فأنت نبيي وخيرتي من خلقي، ثم الصِّدِّيقُ الأكبرُ الطاهر المطهر الذي خلقته من طينتك، وجعلته وزيرك وأبا سبطيك السيدين الشهيدين الطاهرين المطهرين سيدي شباب أهل الجنة، وزوَّجته خير نساء العالمين، أنت شجرة، وعلي أغصانها، وفاطمة ورقها، والحسن والحسين ثمارها، خلقتكم من طينة عليين، وخلقت شيعتكم منكم، إنهم لو ضربوا على أعناقهم بالسيوف لم يزدادوا لكم إلا حُباً، قُلتُ: يا رب ومن

الصديق الأكبر؟ قال: أخوك علي بن أبي طالب عليه السلام، قال -أي: علي عليه السلام-: بشَّرني بها رسول الله ﷺ وابناي الحسن والحسين منها وذلك قبل الهجرة بثلاثة أحوالٍ))[١].

٢- مما أوحاه الله تعالى إلى نبيه الكريم في ذلك المقام الكريم أذان الصلاة ومن جُملته: ((حيَّ على خير العمل)) روى ذلك علماء الزيدية[٢].

٣- وأوحى الله تعالى إلى نبيه في ذلك المقام الرفيع ما يريده تعالى من فرض خمس صلوات في اليوم والليلة.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى﴾ [النجم]، هذا التعبير يفيد بأسلوبه

---

[١] مجموع الإمام زيد عليه السلام. وفي رواية أخرى: قال رسول الله ﷺ: ((لَمَّا كانت ليلة أُسري بي فأوحى الله عز وجل إليَّ في عليّ: أنه سيد المسلمين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين)) رواه أبو العباس الحسني عليه السلام في المصابيح، والإمام عبدالله بن حمزة في الشافي، ورواه في أنوار اليقين عن أبي العباس الحسني عليه السلام، وعن ابن المغازلي بسنده إلى أسعد بن زرارة عن أبيه، ورواه محمد بن سليمان الكوفي في المناقب، ورواه ابن المغازلي في المناقب، والبزار ذكره في كشف الأستار عن زوائد البزار، ورواه بهذا الإسناد الحاكم في المستدرك وصححه، وابن البطريق في العمدة، والسيوطي في جمع الجوامع وعزاه إلى الباوردي، وابن قانع، وأبي نعيم، والبزار، والحاكم، ورواه الطبري في ذخائر العقبى، وفي الرياض النضرة، وابن عدي في الكامل، وابن عساكر في تاريخ دمشق، وابن الأثير في أسد الغابة، والذهبي في ميزان الاعتدال، وابن قانع في معجم الصحابة، والخطيب في موضع أوهام الجمع والتفريق، ورواه أبو نعيم في معرفة الصحابة، وروى الطبراني في الصغير نحوه بلفظ: ((إنه سيد المؤمنين وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين)) وكذلك أبو نعيم في أخبار أصبهان، وابن منظور في مختصر تاريخ دمشق، والخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق.

[٢] انظر: الأحكام للإمام الهادي وغيرها كثير. قال في بلوغ الأمل في الأذان بحي على خير العمل: قال الشوكاني في نيل الأوطار المجلد الأول الجزء الثاني صفح٣١: وقد يختلف في أيّ وقت كان ابتداء شرعية الأذان؛ فقيل: نزل على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مع فرض الصلاة، وقد روى ذلك ابن حباب عن ابن عبّاس بإسناد فيه عبد العزيز بن عمران، وعند الدار قطني من حديث أنس، وعنه الطبراني عن ابن عمر، وذكر أنه في ليلة الإسراء.

عند أهل البلاغة والبيان أنَّ ما أوحاه الله تعالى هناك إلى عبده الكريم محمد ﷺ كان شيئاً عظيماً لا تقوم ببيان فخامته وتوضيح عظمته الألفاظُ والعباراتُ، وقد قدّمنا ما صحّ الحديث به من الوحي في علي وفاطمة والحسن والحسين وشيعتهم، ومن الوحي بالأذان فيكون ما أوحاه الله تعالى في ذلك المقام من هذا الجنس.

ولا شك أنَّ فضلَ عليٍّ وفاطمةَ والحسنين وشأنَهم عند الله تعالى عظيمٌ، حيث جعل الله فيهم خلافة النبوَّة إلى يوم القيامة، لا يفارقون كتاب الله ولا يفارقهم، من تمسك بهم نجا، ومن خالفهم ضلّ وغوى، لا يفارقون الحق إلى يوم القيامة، وأوجب تعالى الصلاة عليهم مع النبي ﷺ في الصلوات، وفرض على الأمة مودَّتَهم، وأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وشدَّد النبي ﷺ الوصية فيهم، وحدّث بفضائلهم المتكاثرة التي طفحت بها كتبُ الآثار.

ولا شك أيضاً أن للأذان للصلوات بألفاظه المعروفة شأناً عظيماً يتبيّن فيما يلي:

١ - أنه نداء إلى إقامة فرائض الصلوات.

٢ - أنه شعار مميز وعلامة خاصة تتميز بها أمصارُ المسلمين وقراهم عن غيرها وبذلك يعرف أن أهل تلك المحلات مسلمون.

٣- فيه التذكير العام المتكرر خمس مرات في اليوم والليلة والتنبيه على عظمة الله وجلاله وتوحيده وتنزيهه من الشريك، والتذكير بالرسول ﷺ الذي جاء بالهدى ودين الحق وإظهار فضله وشرفه، ثم التذكير بأن الصلاة طريق الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، وأنها خير الأعمال وأفضلها على الإطلاق.

والصلوات الخمس أعظم فرائض الإسلام ((واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة))، وعِظَمُ شأنها في الإسلام معلوم، والقرآن الكريم طافح بذكر الصلاة وبالأمر بها وبالمحافظة عليها، وحديث النبي ﷺ طافح أيضاً بذكر الصلاة والأمر بها والمحافظة عليها والترغيب فيها، وقد اشتملت الصلوات الخمس على أحبّ الذكر إلى الله وأفضله وأعظمه وأبلغه، واشتملت أيضاً على إظهار الغاية من التذلّل لله الذي يدل على عبودية العبد لله، واعترافه بعظمة الله، واستسلامه لسلطان الله، وإقراره بحق الله.

ومن الجدير أن يتلقّى النبي ﷺ في ذلك المقام الرفيع من الوحي المزيد من البيّنات حول عظمة الله وجلاله وقوة سلطانه وعلمه وحكمته وتوحيده وعدله، وحول كرامة نبيه ﷺ وشرفه واصطفائه، وحول الإسلام وفضله والدعوة إليه وحول البعث والحساب والجنة والنار.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم:١٨] رأى النبي ﷺ في معراجه بعضَ آياتٍ عظيمةٍ من آيات الله الدالة على عظمة الله وجلاله وكبريائه وقدرته وعلمه وحكمته وآيات الله الدالة على ذلك كثيرة في الأرض وفي السماء، فرأى النبي ﷺ في معراجه بعض آيات الله العظيمة التي في السماء.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ [النجم:١٦] أبهم الله تعالى علينا ما هو الذي غشى السدرة، إلَّا أننا نفهم أنه حصل شيءٌ عظيم من آيات الله غَطَّى السدرة، فالذي رآه النبى ﷺ وسمعه هنالك هو أنه رأى جبريلَ عليه السلام على صورته الحقيقية ورأى سدرة المنتهى ورأى الآية العظيمة التى غَطَّت سدرة المنتهى، وسمع كلام الله تعالى من السدرة، ولم ير النبي ﷺ ربه جل وعلا في

ذلك المقام ولا في غيره، وقد روي في صحاح أهل السنة(١) عن عائشة أنها قالت للذي سألها: هل رأى محمد ربه؟ فقالت: «يا هذا لقد قَفَّ شعري مما قلت، من حدّثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب، وتلت قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام].

كلام الله تعالى

والله تعالى لا يتكلّم بلسان وشفتين وحنجرة وخيشوم، تعالى الله عن مشابهة المخلوق الضعيف، فكلام الله تعالى هو فعل من أفعاله، يخلقه متى شاء بغير آلة فقد يخلقه تعالى في شجرة كما في كلامه لموسى عليه السلام فإنه تعالى أسمع موسى عليه السلام الكلام من شجرة زيتون، وكما كلم نبينا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم من شجرة السدرة، وهو تعالى قادر على إيجاد الكلام في السحاب أو في الهواء أو في الماء أو في صخرةٍ أو في أذن الملَكِ أو النبي أو في غير ذلك.

[روايات أهل السنة في الإسراء والمعراج والصلوات الخمس]

لا شك في وقوع حادثة الإسراء والمعراج، وقد نطق بذلك القرآن الكريم كما قدمنا، واشتهرت الروايات بذلك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلا أنه يظهر لي أن القصص الطويلة التي رويت في حديث أهل السنة ليست صحيحة بتمامها وكمالها، بل إن تلك القصص الطوال قد اشتملت على الصحيح وغير الصحيح.

من ذلك: ما اشتملت عليه تلك القصص الطويلة من أنَّ الله تعالى فرض على أمة محمد صلى الله عليه وآله وسلم خمسين صلاة في اليوم والليلة، فنزل النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى أتى موسى، فقال له موسى: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة وإني قد خبرت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله

(١) صحيح مسلم (١/ ١٦٠ رقم ١٧٧)، صحيح البخاري (١/ ١٤٠ رقم: ٤٨٥٥)، وغيرها كثير.

التخفيف لأمتك، فرجع النبي ﷺ إلى الله فسأله التخفيف، فوضع عنه عشراً، فنزل النبي ﷺ إلى موسى فقال له: ارجع فاسأله التخفيف، فرجع النبي ﷺ إلى الله فوضع عنه عشراً، وهكذا ينزل النبي ﷺ إلى موسى فيأمره موسى بالرجوع فيخفف الله عن أمته عشراً، حتى إذا لم يبق إلا عشر صلوات رجع النبي ﷺ يسأل التخفيف، فخفف الله عن أمته خمس صلوات، ولم يبق إلا خمس صلوات، وأمره موسى بالرجوع فلم يرض النبي ﷺ وقال: استحييت من ربي... إلى آخر القصة.

فهذه المراجعة يظهر أنها غير صحيحة؛ لأن الله عليم حكيم لا يفرض على عباده الفرائض مجازفةً فإذا سأله بعض عباده تَرَاجَعَ، ثُم يُسْأل فيتراجع، ثُم كذلك؛ فهل اكتشف موسى عليه السلام ما خفي على الله تعالى؟! وهل تنبّه الله تعالى حين نبّهه النبي ﷺ بإشارة من موسى؟!!

وعلى الجملة فإن التشريع لخمسين فريضة ثُم المراجعة المتكرّرة حتى لم يبق إلا خمس فرائض فيها ما يوهم أنه فرض خمسين صلاة مجازفة من غير نظر إلى ضعف المكلفين واقتدارهم على القيام بها في اليوم والليلة، وأن الله تعالى لم يتنبه لذلك، ولا رسوله محمد ﷺ فإنه لم يتنبه لذلك، وموسى عليه السلام هو الذي تَنَبَّهَ لذلك.

نزول القرآن على رسول الله ﷺ

نزل القرآن على رسول الله ﷺ شيئاً فشيئاً واستمر تنزيله منذ مبعث النبي ﷺ إلى وفاته وذلك ثلاث وعشرون سنة تقريباً، فلم يستتم نزوله إلا بعد العشرين السنة.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾ [الفرقان:٣٢]، وقال سبحانه: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء:١٠٦].

كيفية تلقي النبي ﷺ للوحي

كان النبي ﷺ يَتَلقَّى الوحي عن رب العزةِ -جلَّ وعلا- على وجوه:

١- يأتيه جبريل عليه السلام في صورةِ دحية بن خليفة الكلبي، وكان دحية رجُلاً جميلاً فيقرأ على النبي ﷺ القرآن، ويعلمه ما شاء الله من العلم.

٢- يتلقَّاهُ أيضاً عن جبريل عليه السلام، وجبريل على صورته الحقيقية التي خلقه الله عليها، وقد وقع التلقي للوحي على هذه الصفة مرتين حسب ما حكاه الله تعالى في سورة النجم.

٣- تأخذُ النبيَّ ﷺ غشيةٌ يغيب فيها النبيُّ ﷺ بحواسِّهِ ومشاعره ويصير في هذه الغشيةِ كالنائم، ويتلقَّى النبيُّ ﷺ في هذه الغشية الوحي، ثُمَّ بعدها يستفيق من غشيته كما يستفيق النائم من نومه، فيقرأُ على الناسِ ما أُوحيَ إليهِ من ربِّهِ.

٤- يأتيه الوحي أيضاً وهو في النوم، ورؤيا الأنبياء حق.

٥- قد تلقَّى النبي ﷺ كلاماً من الله، خلقه الله تعالى في سدرة المنتهى يوم أُسري بالنبي ﷺ إلى السماء، وهكذا نبي الله موسى عليه السلام فإنه سمعَ كلام الله من شجرة الزيتون، فإن الله تعالى خلق الكلام الذي يريده في شجرة الزيتون.

[الخروج إلى الطائف، وبيعة العقبة]

ذكرنا فيما سبق أن قريشاً استنكرت ما جاءهم به محمد ﷺ وردته وعاندته، وحاولت محو وطمس ما جاء به محمد ﷺ وسعت إلى التخلص منه بكل حيلة وبما تهيَّأ لها من وسيلة، ومع ذلك فلم يزل محمد ﷺ يدعو إلى الإسلام بكل جدٍ، فدخل في الإسلام جماعة من مُستَضعَفِي قريش ومن الموالي؛ فكانت قريش تعذب كل من دخل في الإسلام إلا إذا كان في جوارِ عظيمٍ من عظمائها.

وقد كان النبي ﷺ في حمايةِ عمِّه أبي طالب، وكان أبو طالب سيِّد قريش لذلك كان النبي ﷺ في مأمن من أذى قريش لمكانة أبي طالب ومكانة عشيرته من بني هاشم وبني المطلب فما زال النبي ﷺ في ظل تلك الحماية من حين بعْثَته ﷺ إلى السنة العاشرة من بعثته، فإن أبا طالب مات يومئذٍ وفيها ماتت خديجة، فخاف النبي ﷺ في مكة وخرج منها إلى الطائف فدخلها بجوار المُطْعِم بن عَدِي، وحَجَّ النبيُ ﷺ في هذه السنة والتقى بجماعة من أهل المدينة، وكان ذلك قبل الهجرة بثلاث سنوات، وكانوا اثني عشر رجلاً من الأنصار، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا وبايعوا، وسُمِّيَتْ هذه البيعة بيعة العقبة الأولى، فعاد هؤلاء إلى المدينة ومعهم مصعب بن عمير يعلِّمهم الإسلام ويقرئهم القرآن، فرجع في العام الثاني ومعه ثلاثةٌ وسبعون رجلاً وامرأتان فكانت بيعة العقبة الثانية، وقال ﷺ: ((أخرجوا إليَّ منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم))، فأخرجوا تسعةً مِنَ الأوسِ وثلاثةً من الخزرج فلما عادوا إلى المدينة أظهروا الإسلام وأصبح المجتمع هناك مهيّئاً لهجرة المسلمين ونبيهم ﷺ.

[اجتماع قريش على الفتك بالنبي ﷺ]

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [الأنفال].

اتفقت المصادر عند السنة والشيعة أنَّ قُريشاً تشاورت بمكة في آخر الأمر حين أَعْيَتْهُم الحِيَل في ردِّ الدين الجديد الذي جاء به محمد ﷺ فقال بعضهم: أثبتوه بالقيد واحبسوه، وقال بعضهم: بل اقتلوه، وقال بعضهم: بل أخرجوه من مكة، فأطلع الله تعالى نبيه ﷺ على ذلك، وأمره الله تعالى على لسان

جبريل أن لا يبيت في مضجعه الذي كان يبيت فيه، ولم يبت رسول الله ﷺ تلك الليلة في بيته، وأمر علياً عليه السلام أن يبيت في مضجعه فبات في مضجعه، وبات المشركون يحرسون علياً يحسبونه النبي ﷺ، فلما أصبحوا ثاروا إليه؛ فلما رأوا علياً قالوا: أين صاحبُك؟ قال: لا أدري، فاقتصوا أثره، فلما بلغوا الجبل اختلط عليهم، فصعدوا في الجبل فمرّوا بالغار، فأعمى الله أبصارهم، وتماماً كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٤٠﴾ [التوبة].

فخيَّب الله تعالى أمل مشركي قريش، وضيع سعيهم الجادّ في الفتك بنبيه ﷺ، وكانت قدرة الله تعالى فوق طاقتهم، وإرادته مهيمنة على مكرهم، فنجَّى الله تعالى نبيه ﷺ من مكرهم، وأخرجه من بينهم وحفظه من شرِّهم، وقد ملأ الله تعالى قلب نبيه ﷺ في تلك الحال سكينة وأمناً وطمأنينة، فكان ﷺ في حال خروجه وحال اختفائه من مكر قريش في هدوء بال وانشراح صدر، لم يزعجه مكرهم ولم يقلقه طلبهم، ولم يدخل قلبه خوف ولا فزع رحمة من الله لنبيه وفضلاً أكرم به رسوله ﷺ، ولما خَفَّ طلب قريش للنبي ﷺ وذلك بعد ثلاث ليال من دخوله الغار جاء أبو بكر براحلتين إحداهما للنبي ﷺ والأخرى لأبي بكر، فلم يقبلها النبي ﷺ من أبي بكر إلا بالأجرة، واستأجرا دليلاً يدلّهما على طريق بعيدة عن عيون قريش.

وصاحب الرسول ﷺ في الغار هو أبو بكر بن أبي قحافة، لا خلاف في ذلك، وبعض أهل السنة يستدلون بالآية على زيادة فضل أبي بكر على غيره من

الصحابة، والذي تفيده هذه الآية لا يزيد على إثبات اسم الصحبة للنبي ﷺ، والصحبة المجرَّدة ليست فضيلة، والآية إنما أثبتت لأبي بكر مجرَّد اسم الصحبة، وفي الحقيقة والواقع أن الصحبة للنبي ﷺ لا تكون فضيلة إلا إذا انضم إليها الإيمان والعمل الصالح والسمع والطاعة لله ولرسوله ﷺ؛ لذلك نرى الله سبحانه وتعالى يحث في كتابه مُسلِمي الصحابة وغيرهم على الإيمان والعمل الصالح والتقوى، وأوامر القرآن ونواهيه إنما هي متوجهة إلى ما ذكرنا، ولم نرَ الله عز وجل أمر بالصحبة وحثَّ عليها وإنما أوامره إلى طاعة الرسول ﷺ والاستجابة له.

ونحن معاشر الزيدية لا ننكر فضل أبي بكر، ولكننا ننكر غلوّ أهل السنة في فضله حيث جعلوه أفضل الصحابة بعد النبي ﷺ على الإطلاق، وجعلوا له حصانة حصينة لا يجوز تجاوزها، وحرموا توجيه أي نقد إليه أو تساؤل، وحرَّموا اتهامه بخطأ بل قالوا: إن من يفضل علياً عليه السلام عليه ارتكب ذنباً موازياً للشرك؛ فَتُرَدُّ شهادته وروايته، ولا تنفعه شهادة أن لا إله إلا الله، ولا حظَّ له في مغفرة ولا شفاعة، وإلى آخر أحكام الشرك، وكما ذكرنا فإننا لا ننكر أن له فضل الإسلام والهجرة، فهو واحد من جملة السابقين الأولين المهاجرين.

[دور علي عليه السلام في الهجرة]

أمر النبي ﷺ علياً عليه السلام يوم الهجرة أن يتخلَّف بعده بمكة حتى يؤدي عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، فقد كان النبي ﷺ في مكة محلاً للثقة والأمانة والوفاء والصدق؛ لذلك كان عنده ودائع كثيرة يوم هاجر.

هذا، وقد اتفقت المصادر عند الشيعة والسنة أن النبي ﷺ أمر علياً عليه السلام

أن يبيت على فراشه[١] في الليلة التي اجتمعت قريش فيها على الفتك بالنبي ﷺ، وأمر جبريلُ النبيَّ ﷺ أن لا يبيت تلك الليلة على فراشه فبات علي عليه السلام على فراش النبي ﷺ بأمرٍ من النبي ﷺ، هكذا جاءت الروايات بلا خلاف ولا نزاع، وفي ذلك فضيلة كبيرة لعلي عليه السلام حيث رضي أن يبيت على فراش الرسول ﷺ بلا ترددٍ وحول البيت أربعون من فتيان قريش يتحيَّنون الوقت المناسب لضرب صاحب الفِرَاش بسيوفهم، واختطاف روحه بحنقهم، فرضي أن يفدي نفس الرسول ﷺ بنفسه، وأن يقي مهجة الرسول ﷺ بمهجته، مُرتاحاً بذلك، ولم تذكر الروايات أنه جزع ولا خاف ولا وَجِل.

خروج النبي ﷺ من مكة إلى المدينة

خرج النبي ﷺ من مكة من غار ثور متوجهاً إلى المدينة يوم الاثنين أول يوم من ربيع الأول، ودخل المدينة يوم الجمعة الثاني عشر من ربيع الأول، ونزل قباء، وأقام بها أربعة أيام، وأسس فيها أول مسجد بُنِيَ في الإسلام.

ثم دخل المدينة المنورة، ونزل دار أبي أيوب الأنصاري، وأقام عنده حتى بنى ﷺ مسجده وحُجَرَهُ وانتقل إليها.

آيات بينات حصلت في الهجرة

١- أعمى الله أبصار المشركين الذين أرصدتهم قريش لقتل الرسول ﷺ في ليلة الهجرة، فخرج من بينهم يراهم ولا يرونه.

٢- أعمى الله أبصار المشركين المطارِدِين للنبي ﷺ ليقتلوه، وذلك أنهم وقفوا على غار ثور الذي اختبأ فيه الرسول ﷺ وأبو بكر، فقال أبو بكر

(١) انظر عن ذلك: السيرة النبوية لابن كثير (٢/ ٢٢٩) وذكر أنه قد ذكر ذلك ابن إسحاق ورواه الواقدي. وذكر ذلك ابن هشام في السيرة (١/ ٤٨٢)، الصحيح من السيرة وأخبار الخلفاء لابن حبان (١/ ١٢٦)، وغيرها.

للنبي ﷺ: لو نظر أحدهم عند قدمه لأبصرنا، فقال النبي ﷺ: ((ما ظنُّك باثنين ثالثهما الله)).

٣- نسجت العنكبوت على باب الغار، وباض في مدخله بعض الطيور بعدما دخل فيه النبي ﷺ وصاحبه، مما تسبب في اقتناع المشركين بخلوِّ الغار.

٤- ساخت قدَمَا فرس بعض المطارِدِين للنبي ﷺ في طريق المدينة وهو سُراقة بن مالك فكفَّ عن المطاردة.

طبيعة فترة ما قبل الهجرة

تميزت فترة ما قبل الهجرة على فترة ما بعد الهجرة بأمور:

١- أن الله تعالى أمر نبيه ﷺ والمسلمين في مكة بالدعوة إلى دين الله والصبر على أذى المشركين والتجاوز عما يلحقهم في سبيل ذلك من العذاب والأذى، وأمرهم الله تعالى بالكف عن القتال ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ۝١٠﴾ [المزمل] ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ۝٨٥﴾ [الحجر:٨٥].

٢- كانت الدعوة في مكة: إلى توحيد الله تعالى وتنزيهه عن الشريك، وترك عبادة الأصنام، وإلى التصديق برسالة الرسول ﷺ وإلى التصديق بما جاء به من البعث والحساب والجنة والنار ومن الإيمان بأنبياء الله ورسله وكتبه و... الخ.

[حال المسلمين بعد الهجرة]

هاجر النبي ﷺ والمسلمون من مكة إلى المدينة بعد ثلاث عشرة سنة من حين بعثه الله تعالى نبياً، فجعل الله سبحانه وتعالى لهم في الهجرة خيراً كثيراً، فتغيرت أحوالهم من الخوف إلى الأمن، ومن الذلة إلى العزة، وصار لهم كيان ودولة، وتمكّنوا من إعلان دينهم وإظهاره، ومن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن الدعوة إلى الله ونشر الدين، فقد ذكر الله تعالى هذه المنة العظيمة وأوصى المسلمين بذكرها وشكر مُوليها فقال سبحانه: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴿٢٦﴾﴾ [الأنفال].

غزوة بدر الكبرى

كانت غزوة بدر في اليوم السابع عشر من شهر رمضان في السنة الثانية من الهجرة النبوية على صاحبها وآله أفضل الصلاة والسلام، وهذه الغزوة أول غزوة التقى فيها جيشُ المسلمين -بقيادةِ نبيِّهم ﷺ- وجيشُ قريش، وقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يُذلَّ في هذا اللقاء مشركي قريش المتكبرين، ويُعِزَّ أولياءه المؤمنين ويرفعَ من شأنهم، ويجعل لهم مهابة ومكانة عند أعدائهم.

وقد حكى الله تعالى هذه الغزوة وفَصَّلها في سورة الأنفال، ونحن ذاكروها على حسب ما جاء في سورة الأنفال من غير زيادة:

وَعَدَ اللهُ سبحانه نبيَّه ﷺ والمسلمين -المهاجرين والأنصار- الظفر بواحدٍ من اثنين إما عير قريش التي تعود من الشام بتجارات لقريش، وإمَّا الظفر بجيش قريش الخارج من مكة بعدده الكثير البالغ ألف رجل تقريباً، المتباهي بكثرته وقوته الذي يرائي الناس بما هو فيه من العظمة والشدة، وليس له غرض بعدما عرفوا اتجاه العير القادمة من الشام سوى البطر وعرض العضلات والشهرة بين الناس.

وبناءً على هذا الوعد الصادق خرج النبي ﷺ، وخرج معه جماعة من المهاجرين والأنصار لا يتجاوز عددهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً وهم يتمنون الظفر بتجارة قريش العائدة من الشام، وليس لهم رغبة في مواجهة قريش ثم الظفر بها؛ لما هم فيه من الضَّعف وقِلةِ العَدَدِ والعُدَّة، ولِمَا يعرفون من قوة جيش قريش وكثرة عَدَدِهِ وعُدَّتِه، لذلك كرهوا مواجهتها، وتمنوا الظفر بالغنيمة الباردة، ولضعف المسلمين فقد كان فريق من المؤمنين كارهين للخروج مع علمهم بقوة عدوهم وكثرته، وقد وصف الله تعالى شدة كراهتهم بقوله: ﴿كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۝ يُجَادِلُونَكَ

﴿فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ ۝٦﴾ [الأنفال].

وكان جدالهم للنبي ﷺ من الجدال الذي يدل على كراهة مواجهة قريش نحو: نحن في قِلَّة قليلة، وعلى غير استعداد لمواجهة مثل ذلك الجيش الكبير الخارج من مكة، فلو أنك أخبرتنا لأعددنا من العَدَدِ والعُدَّةِ ما يكفي، وكان هذا الفريق من المؤمنين غير مُقتنعين بالرأي الذي عزم على مواجهة قريش لما هم فيه من قلة العَدَدِ والعُدَّةِ، ورأوا أنَّ الدخولَ في معركة مع جيش قريش الكبير غيرُ نافعٍ للإسلام، وأنَّ نتيجَتَهُ ستكون بلا شك في صالح قريش، وأنَّ المسلمين لا يكسبون من هذه المواجهة إلا القتل المحقق، وكان نظر هذه الطائفة المؤمنة صادراً على ما جرت به العادة في الحروب من غلبة القوي على الضعيف، والكثير على القليل، ولكن الله تعالى لحكمته وعلمه أراد أن يجعل في هذا اللقاء الذي هو اللقاء الأول بين المسلمين والمشركين- تحقيقَ حكمه بإذلال متمردي قريش ومتكبريهم بالقتل والأسر والهزيمة والذلة، وأن يذيقهم في هذا اللقاء جزاء تكبرهم على الله ورسوله ﷺ، وجزاء استهزائهم بالقرآن والرسول ﷺ وجزاء التكذيب والأذى والعذاب والشتم للنبي ﷺ والمسلمين، مع ما أراد سبحانه في هذا اللقاء من تحقيق الوعد الذي سبق من إعلاءِ كلمةِ الله وإعزاز النبي ﷺ والمسلمين ورفعِ شأنهم، وهذا هو ما عبَّر الله تعالى عنه في قوله: ﴿وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ۝٧﴾ [الأنفال]؛ ولما ذكرناه سَمَّى الله تعالى يوم بدر: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ [الأنفال:٤١]، ومعنى يوم الفرقان: هو يوم الحكم بين المسلمين ومشركي قريش، وحكم الله في هذا اليوم هو نصرُ الحقِّ والمحِقِّين، ورفعُ رايتهم، وإذلالُ الشرك والمشركين، وإسقاطُ عِزَّتِهم وكبريائِهم.

وحين استيقن المؤمنون أنه لا بُدَّ من مواجهة قريش وذلك حين حطّوا رحالهم على جانب وادي بدر، وقريش حطّوا رحالهم على الجانب الآخر من الوادي، وكانت عِيْرُ قريش قد فاتتهم فهي في طريق الساحل وبينهم وبينها مسافة طويلة، وقد ذكر الله تعالى ذلك فقال: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال:٤٢].

فكان اجتماع الفريقين على جانبي وادي بدر في وقت واحد اجتماعاً تَوَلَّى الله تعالى تيسيره وتدبيره، ولم يكن بين الفريقين في ذلك أيُّ وعد.

حين استيقن المؤمنون المواجهة رفعوا أيديهم ومدّوا أعناقهم يدعون الله ويستغيثون به، فرحمهم الله تعالى واستجاب لهم فأمدَّهم بالملائكة التي في نزولها معهم ما يُطَمْئِنُ قلوبهم الخائفة، ويُقَلِّلُ من خوفها وفزعها، ويبعث في نفوسهم الأمل بالنصر، ويطرد عن قلوبهم اليأس المستولي عليها، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ [الأنفال].

ثم أرسل الله تعالى عليهم النوم الذي كان قد طرده الخوف والفزع؛ ليرجع إلى قلوبهم الأمن والاطمئنان والسكينة، وأنزل عليهم المطر ليتطهروا به من نجاسات البدن كالمني والجنابة والبول والغائط، وليذهب عنهم به رجز الشيطان ورجزه هو وساوسه، وقد قيل: إن المشركين كانوا قد غلبوا على الماء، فكان المسلمون يصلُّون مُجْنِبِينَ ومُحْدِثِين مع ما لحقهم من الظمأ، فوسوس إليهم الشيطان بسبب ذلك قائلاً: لو كنتم على الحق وقريش على الباطل لما كنتم على هذه الحالة السيئة وقريش في حالة حسنة.

وفي النعاس ونزول المطر الذي يطهر البدن ما يبعث على نشاط القلب وقوته وشدته، وفي نزول المطر أيضاً على الرمال التي نزل عليها المسلمون ما جعلها صالحة للقتال عليها، لأنَّ المشيَ والجري على الرمال صعب ومتعسر، والمطر يُلَبِّدُها ويمسكها.

نزول الملائكة يوم بدر

نزلت الملائكة يوم بدر بعدما استغاث المسلمون بربهم، وسألوه النصر والمعونة؛ فأمدهم تعالى بألف من الملائكة، وأوحى تعالى إلى الملائكة بأن يثبتوا المؤمنين في القتال، ويشجعوهم على الإقدام، ثم أخبر تعالى بأنه سيلقي في قلوب المشركين الخوف والرعب، ثم أمر الله تعالى المسلمين بأن يضربوا المشركين بسيوفهم رؤوسَ المشركين وأعناقَهم وأيديَهم وبنانَهم، ثم أخبر تعالى بأن المشركين استحقوا ذلك بسبب عداوتهم لله ولرسوله ﷺ، وجدهم في طمسِ الدِّين والفتك بالنبي ﷺ، وسعيهم وتشميرهم في حرب النبي ﷺ ودينه، فكان ذلك جزاءً للذي يعادي ربَّه ويشاقه، هذا جزاء عاجل في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب عظيم.

هل قاتلت الملائكة يوم بدر

الذي أميلُ إليه أنَّ الملائكةَ لم تُقَاتِلْ يوم بدر، وذلك لأنَّ كُتُبَ السِّيَرِ التي تحدثتْ عن يوم بدر ذكرت أسماءَ القتلى من المشركين، واسمَ القاتِلِ لكلِّ واحد منهم، وأسماءَ أسراهم، واسمَ من أسر كلّ واحد منهم.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأنفال:١٢] الأمر فيه بالضربِ فوق أعناق المشركين وضرب بنانهم

هو أمرٌ للمسلمين لا للملائكة؛ بدليل أن الله تعالى رتب الأمر بذلك بالفاء على قوله: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال:١٢]، مما يدل على أن العلم بخوف العدو ورعبه وشدة فزعه يتسبب في الإقدام على ضربه والشجاعة على مواجهته، والملائكة عليهم السلام لا يحتاجون لمثل ذلك التشجيع لقوتهم وعلمهم بالسلامة.

[أول مبارزة في الإسلام وبعض ما وقع في غزوة بدر]

قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ....﴾ الآية [الحج:١٩]: اتفقت الروايات السنية والشيعية على أن هذه الآية نزلت[1] في الثلاثة الذين خرجوا من صف المشركين، وطلبوا من المسلمين البراز، وهم: عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، وأخوه شيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة بن ربيعة، فبرز إليهم من صف المسلمين ثلاثة: علي بن أبي طالب، وحمزة بن عبد المطلب، وعبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، فقتل عليٌّ قرنه الوليد، وقتل حمزة قرنه شيبة، وضرب كل من عبيدة وعتبة صاحبه، فعطف علي وحمزة على عتبة فخبطاه بأسيافهما حتى همد، وكان قد أصيب بجراحة مثخنة من عبيدة، وحمل علي وحمزة صاحبهما عبيدة وقد أصيب بضربةٍ مثخنة أدت أخيراً إلى وفاته رحمة الله عليه.

واتفقت المصادر التاريخية على أن قتلى قريش بلغوا سبعين قتيلاً، وأن أسراهم بلغوا سبعين أسيراً، وأن قريشاً هُزِمتْ في هذه الوقعة هزيمةً قبيحة، واتفقت المصادرُ أيضا على أن قتلى المسلمين في هذه المعركة كانوا ثمانية من الأنصار وستة من المهاجرين.

---

(١) انظر: صحيح البخاري (٥/ ٧٥ رقم ٣٩٦٥، ٣٩٦٦، ٤٧٤٤)، سنن ابن ماجه (٢/ ٩٤٦ رقم ٢٨٣٥)، المستدرك على الصحيحين (٢/ ٤١٦ رقم ٣٤٥٦)، وغيرها كثير.

وقد قتل في هذه المعركة الكثير من شياطين قريش وجبابرتها، منهم الثلاثة الذين ذكرناهم وهم عتبة وشيبة والوليد، ومنهم أبو جهل وأُبَيّ بن خلف وعقبة بن أبي معيط.

[نصر الله للمسلمين يوم بدر]

قوله تعالى في نصر الله للمسلمين يوم بدر على قريش: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى....﴾ إلى آخر الآيات [الأنفال:١٨].

المعنى المقصود من هذه الآية: التذكير للمسلمين بنعمته عليهم، وعظيم فضله وإحسانه إليهم، بتوفيره للمسلمين أسباب النصر، فأعطاهم قبل الدخول في المعركة البشرى بنزول الملائكة، وطمأن قلوبهم الوجلة، وثبت أقدامهم بالملائكة، وغشاهم النعاس الذي تعقبه الطمأنينة والسكينة، ويذهب بسببه الوجل والخوف والقلق، وألقى سبحانه الرعب في قلوب المشركين.

ومن أسباب النصر أيضاً أن المسلمين حين رأوا جموع قريش يوم بدر يرونهم قليلاً الْمُقِلُّ يقول: هم سبعون، والْمُكْثِرُ يقول: مائة، وهم في الحقيقة والواقع ألف رجل، وكان المشركون يرون المسلمين قليلاً أيضاً، وتماماً كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولا﴾ [الأنفال:٤٤]، وكما قال عز وجل: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ...﴾ الآية [الأنفال:٢٣].

فلما ذكرنا من أن الله تعالى هو الذي وفَّر أسباب النصر للمسلمين يوم بدر وأسباب هزيمة قريش ولولا ذلك لما انتصر المسلمون ولألحق بهم المشركون الهزيمة- فلذلك يُذَكِّرُ اللهُ المسلمين بهذا الفضل العظيم فيقول: إنكم أيها

المسلمون لم تقتلوا المشركين في بدر ولم تُلحقوا بهم الهزيمةَ والخزيَ والأسرَ بقوتكم؛ لأنكم قلة قليلة وفئة ذليلة لا تقوى على هزيمة جيش قريش الكامل العدد والعدة، ولكنَّ الله تعالى بفضله عليكم هو الذي قتلهم وهزمهم بسبب ما وَفَّرَ لكم من أسبابِ النصر على جيش قريش وأسباب هزيمتهم، ولولا ما وَفَّرَهُ لكم لَمَا حصل ما حصل من نَصْرِكُم وهزيمةِ قريشٍ؛ لذلك فإنه تعالى هو الذي قتلهم.

جاء في أخبار يوم بدر أن النبي ﷺ أخذ حفنة من تراب فرمى بها قريشاً فأصاب برميته تلك عيون ذلك الجيش، فأخبر الله تعالى أنه هو الذي تولى إيصالها إلى عين كل واحد من أهل ذلك الجيش: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال:١٧].

[شبهة حول آية: {وما رميت إذ رميت} والجواب عليها]

قد تستدل القدرية بهذه الآية على أن الله تعالى هو الذي خلق أفعال العباد، والآية كما ذكرنا نزلت للتذكير بنعم الله على المسلمين في يوم بدر، فالقتل والهزيمة والأسر لم يحصل بقوة المسلمين، وإنما حصل بقوة الله وقدرته، فإنه تعالى هو الذي جمع بين المسلمين والمشركين يوم بدر بإرادته وقدرته من غير أن يكون للفريقين أي سبب في الاجتماع، وهو تعالى الذي جعل بقدرته المشركين قليلاً في أعين المسلمين، وجعل المسلمين قليلاً في أعين المشركين، وهو تعالى بقدرته الذي ألقى الرعب والخوف في قلوب المشركين، وشجع بقدرته قلوب المسلمين، وثبت بمشيئته أقدامهم، وطَمْأَنَهم ببشرى النصر والظفر وبنزول الملائكة وبالمطر والنعاس، فبسبب ذلك كله تمكن المسلمون من قتل المشركين وهزيمتهم وأسر الكثير منهم، والله تعالى هو الذي وفر لهم أسباب ذلك كله، فذكَّر الله تعالى المسلمين بهذه الآية لئلا يعجبوا بأنفسهم لما فعلوا في بدر من

القتل والأسر والظفر، ولئلا يغتروا بذلك، فإن النفوس البشرية بطبيعتها تميل إلى العُجْبِ ويداخلها الغرور، فأرادَ سبحانه أن يكونوا على ذكر بنعمة الله عليهم يوم بدر، وأن النصر والظفر كان من عنده.

ولزيادة الفهم نضربُ مثلاً -ولله المثل الأعلى-: رجل ضعيف قُتِلَ أبوه ظلماً وهو يحب ويرغب في قتل قاتله ولكنه ضعيف غير متمكن، فجاء إليه رجلٌ قوي له قدرة وتمكن فقال: أنا أوفر لك الأسباب، وأسهل لك الوصول إلى قتله من غير ما مضرة تلحقك، فقال: نعم، وجزاك الله خيراً، فأعطاه سيفاً صارماً، وحمله إلى مكان، وأمره بالوقوف فيه حتى يأتيه، فذهب الرجل إلى القاتل وقيده وغل يديه إلى عنقه وحمله معه إلى ذلك المكان الذي أمر الضعيف بالوقوف فيه ثم وضعه بين يدي الضعيف، وقال له: اضرب رأس قاتل أبيك، فضربه وقتله.

ولو كان الأمر كما تقوله القدرية من أن الله تعالى هو الذي خلق أفعال العباد، وأنه هو الذي قتل المشركين لَمَا كان لنزول الملائكة والمطر، وتثبيت القلوب والأقدام، وإلقاءِ الرُّعب في قلوبِ المشركين، ورؤية كل من الفريقين لصاحبه قليلاً- لَمَا كان لكل ذلك فائدة؛ لأن الله تعالى على كل شيءٍ قدير، لا يحتاج تعالى فيما يخلق إلى توفير أسباب ومقدمات، وإنما يحتاج إلى مثل ذلك المخلوق الضعيف.

أسرى بدر

بلغ عدد أسرى بدر سبعين أسيراً رجع بهم المسلمون إلى المدينة ولم يكن نزل يومئذ شيء من القرآن بشأن الأسرى وكيف يصنع بهم المسلمون، وكان النبي ﷺ يشاورُ الصحابة فيما لم ينزل فيه شيءٌ، فشاور ﷺ الصحابة في شأن الأسرى، فأشار بعضهم بقتلهم، وأشار الأكثر منهم في الفداء بأن يدفع أهل الأسير مبلغاً من المال في مقابل إطلاق الأسير، ومَالَ المسلمون إلا القليل منهم

إلى هذا الرأي؛ لما هم فيه من الفقر والحاجة، وكان ﷺ عظيم الرأفة والرحمة والشفقةِ بالمسلمين، يوافقهم فيما يرغبون، ويعطيهم ما يسألون ما لم يكن فيه إثم ومعصية، فلما رأى النبي ﷺ رغبتهم إلا القليل في الفداء، وميلهم إليه، ومحبتهم له لما هم فيه من الفقر والحاجة، رقَّ لهم ونزل عند رغبتهم؛ لأنه لم ينزل عليه ﷺ قرآن يُحَرِّمُ الفداءَ؛ لذلك نزل عند رغبتهم.

وكان فداء الأسير خاصاً بالذي أسره لا يشاركه فيه غيره، فلم يأخذ النبي ﷺ شيئاً في الفداء؛ لأنه لم يكن له أسير، ولم يُرْوَ أنهم خَمَّسُوا الفداء، فنزل قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٦٨﴾ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا...﴾ الآية [الأنفال]، فنبَّهَ اللهُ تعالى بذلك المسلمين ليعرفوا خطأهم، وأنه كان الأولى بهم والأجدرُ أن يقتلوا أسراهم، وأن لا يختاروا الفداء الذي هو منفعة عاجلة دنيوية على المصلحة الدينية التي هي إعزاز الإسلام وأهله، وإذلال الشرك وأهله، وأنه ما كان ينبغي أن يحصل مثلما فعلتم من فداء الأسرى إلا بعد أن يذل الشرك والمشركون بكثرة القتل فيهم والفتك بهم، ولو كان الله تعالى قد تقدم إليكم بالنهي عن أخذ الفداء ثم أخذتموه بعد النهي وعصيتموه لعذبكم، ولكنه تعالى لم يؤاخذكم على ما فعلتم؛ لأنه تعالى لا يؤاخذ أحداً بذنب إلا بعد أن ينهاه ويحذره، ولذا قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الإسراء] وقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة:١١٥].

فالصحابة هم الذين أخذوا الفداء دون النبي ﷺ وقد كان النبي ﷺ

يشاور أصحابه فيما لم ينزل فيه شيء، فشاور النبي ﷺ أصحابه في أسرى بدر فأشار كلهم تقريباً بأخذ الفداء فوافقهم ﷺ ونزل عند رغبتهم، وكان شديد الشفقة والرحمة بهم، وكانت عادته وسنته ﷺ الموافقة لأصحابه في رأيهم ولو كان رأيهم خلاف رأيه إذا لم يكن هناك في القضية حكم من الله، ألا ترى أنه ﷺ وافقهم في غزوة أحد في الخروج من المدينة، فخرج منها وهو كارهٌ للخروج؛ نزولاً عند رغبة أصحابه.

وحينئذٍ فالنبي ﷺ بريء من الَّلومِ الذي جاءت به الآية السابقة، وهو خاص بالذين أخذوا الفداء، يوضح ذلك قوله تعالى في نفس الآية: ﴿تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [الأنفال:٦٧]، والنبي ﷺ لم يأخذ فداءً؛ لأنه لم يكن معه أسير، ومن المعلوم أن النبي ﷺ لم يُرِد الدنيا ولم يطلبها ولم يلتفت إليها، وأن أنبياء الله مُنَزَّهُون عن ذلك، يكرهون ما كره الله ويحبون ما أحبه.

وهو ﷺ غير ملوم في موافقة أصحابه الذين رغبوا في أخذ الفداء، واللوم هو متوجه إليهم وحدهم؛ لأجل رغبتهم في المال ومحبتهم له.

وفي هذه الغزوة أعلى الله تعالى كعب نبيه ﷺ، فعظمت هيبته، وانتشر صيته، وفيها شفى الله تعالى غيظ النبي ﷺ بقتل ألد أعدائه وأعداء دينه وفيها لمع نجم علي بن أبي طالب حيث قتل في هذه المعركة ما يقارب نصف قتلى قريش.

غزوة بني قينقاع في شوال سنة ٢ هـ

نقضت يهود بني قينقاع عهدهم مع النبي ﷺ وذلك بعد انتصار المسلمين ببدر، وأظهروا الغدر والبغضاء، حتى قال كعب بن الأشرف: والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم -أهل بدر- لَبَطْنُ الأرض خيرٌ لنا من ظهرها، وخرج إلى مكة يبكي على قتلى المشركين ببدر، ثم عاد وشَبَّب[1] بنساء المسلمين؛ فقصدهم النبي ﷺ والمسلمون وحاصروهم حتى نزلوا على حكم النبي ﷺ، وكانوا حلفاء الخزرج، فقام عبدالله بن أُبيّ إلى النبي ﷺ يسأله الإحسان إلى بني قينقاع والنبي ﷺ يعرض عنه، فكرَّرَ السؤال وألحَّ على النبي ﷺ وقال له: أربعمائة حاسر وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود تحصدهم في غداة واحدة، إني والله امرؤ أخشى الدوائر، فقال النبي ﷺ: ((هم لك))[2] فنزل في ذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝٥١ فَتَرَى الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ...﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة].

---

(١) شبب بالمرأة: قال فيها الغزَل والنسيب. (لسان العرب).

(٢) وقد بقي بنو قينقاع مكانهم، ولم يجلوا عن ديارهم في ذلك الوقت.

غزوة أحد سنة ٣هـ

أرادت قريش أن تثأر لقتلاها في بدر، فاجتمعت على ذلك وصمَّمت على غزوِ المسلمين في عقر ديارهم، فخرجت بحدها وحديدها وأحابيشها (من انضم إليهم من غيرهم) وبمن تابعها من بني كنانة وأهل تهامة، وخرجوا معهم بنسائهم لِئلا يفرّوا.

رؤيا رسول الله ﷺ

لما سمع الرسول ﷺ خبر نزول قريش بالقرب من المدينة قال ﷺ لأصحابه: ((إني قد رأيت بقراً تُذبح، ورأيت في ذباب سيفي ثلماً، ورأيت أني أدخلت يدي في درع حصينة فأولتها المدينة))، وقال ﷺ: ((فأمَّا البقر فهي ناس من أصحابي يقتلون، وأمَّا الثلم الذي رأيت في ذباب سيفي فهو رجل من أهل بيتي يقتل)).

ثم أشار ﷺ على المسلمين بأن الرأي أن يقيموا في المدينة، فإن دخلت عليهم قريش حاربوها، وإن أقامت حيث نزلت أقامت في شر مقام، وكره ﷺ الخروج من المدينة لحرب قريش، وكان رأي عبدالله بن أُبَيّ بن سلول مثل رأي النبي ﷺ، وقال الكثير من الذين فاتهم يوم بدر ومن غيرهم: اخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جبنَّا منهم، وما زالوا يُلحُّون على الرسول ﷺ في الخروج، وكانوا هم الكثرة الغالبة حتى دخل الرسول ﷺ بيته ولبس لامة الحرب، فلمَّا خرج قالوا: يا رسول الله استَكْرَهْنَاك على الخروج من المدينة فوافقتنا وأنت كاره، وما ينبغي لنا ذلك، فإن شئت فلا تخرج، فقال ﷺ: ((ما ينبغي لنبيٍ إذا لبس لامتَه أن يضعها حتى يُقاتِل)).

فخرج النبي ﷺ في ألفٍ من أصحابه، فلما خرجوا من المدينة قليلاً رجع عبدالله بن أُبيّ بن سلول بثلث الناس، وقال: أطاعهم وعصاني.

ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل في طرفِ الوادي إلى أُحُدٍ فجعل ﷺ أُحُداً خلف ظهرِهِ وظهورِ عسكره، وعبَّى ﷺ أصحابه للقتال، وجعل على الرُّماة عبدالله بن جُبير وكانوا خمسين رجلاً، وأمرهم بالوقوف على جبلِ الرُّماة ليردّوا مَنْ يحاول من المشركين الدخول لقتال المسلمين من ورائهم، ونهاهُم الرسول ﷺ أن يزولوا من مكانهم وأمرهم أن يثبتوا سواء أكانت للمسلمين أم عليهم؛ لئلا يؤتى المسلمون من خلفهم، وكان مجموع جيش المسلمين سبعمائة مُقاتل.

وبدأت المعركة والتحم القتال، وأعطى الله تعالى المسلمين النصر والظفر، وقُتِلَ أصحاب لواء المشركين الواحد بعد الآخر، وهُزِمَ جيش المشركين وكانوا ثلاثة ألاف رجل.

وقد ذكر الله تعالى قصة هذه الغزوة وتفاصيلها في ستين آية من سورة آل عمران، فقال سبحانه عن النصر في أول المعركة ثم الهزيمة في آخرها: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ﴾ [آل عمران:١٥٢] أي: تستأصلونهم ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:١٥٢] أي: أنكم أيها المسلمون الذين تسببتم في حصول الهزيمة بعد ما رأيتم النصر، والسبب هو التخاذل والاختلاف ومعصيتكم للرسول ﷺ حيث تركتم مراكزكم، ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران:١٥٢]، الذين أرادوا الدنيا هم الذين تركوا مراكزهم وذهبوا طمعاً في النهب والغنيمة، ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٢] بعد ذلك رفع الله نصره عن المسلمين، فكان ما كان من الابتلاء والتمحيص.

ثُمَّ نَعَىَ الله عليهم فِرارهم عن نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم وهو صلى الله عليه وآله وسلم يدعوهم وهم فارِّين مصعدين في الجبل لا يلتفتون إليه ولا يسمعون لِندائه فقال: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾ [آل عمران:١٥٣]، فتركوا نبيهم في ساحةِ المعركة وفرُّوا عنه وأسلموه للعدو، ولم يبق معه إلَّا أنفار ثبتوا عنده يردّون عنه هجمات المشركين؛ فكسرت رباعية النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وجُرح في جبهته ووجنته صلى الله عليه وآله وسلم حتى سالت دِماؤه، وأسقطوه في حفرة.

وكان علي بن أبي طالب عليه السلام هو المبرِّز في هذه المعركة وفي الدفاع عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، حيث كررت قريش هجماتها وكثَّفت حملاتها على النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين فرَّ عنه الناس، فكان علي رِضوان الله عليه يلقى كل حملة وكل هجمة فيقتل كبيرها ويردّها، وقتل بسيفه في هذه المعركة الكثير من صناديد المشركين وذوي البأس منهم، وهكذا كان رضوان الله عليه في جميع المعارك التي دارت بين النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمشركين، فما مِنْ معركةٍ من تلك المعارك إلَّا وبرَّز فيها وذهب بفخرها.

ولقد بلغ أثره في تلك الحروب وبروزه وظهور مكانته فيها إلى حدٍّ أنسى الناسَ ذكر عنترة العبسي وغيره من رجال العرب المشهورين بشدة البأس وكثرة الفتك.

[ذكر مقتل حمزة بن عبدالمطلب عليه السلام]

وقُتِلَ في هذه المعركة حمزة بن عبد المطلب عمّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قتله وحشي عَبْدٌ لجبير بن مطعم، وكان قد قال له جبير بن مطعم: إن قتلت حمزة فأنتَ حُرٌّ، وكان لوحشي حربة يرمي بها عن بُعْدٍ على عادة الحبشة، فَكَمَنَ وحشي حيث لا يراه حمزة، فلما مرَّ به قذفه بالحربة، وعندما انتهت المعركة خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يلتمسُ عمَّه حمزة، فوجده ببطن الوادي قد بُقِرَ بطنُه عن كبده ومُثِّلَ به فَجُدِعَ

أنفه وأُذناه، وكانت هند بنت عتبة بن ربيعة هي التي بقرت بطن حمزة وأخرجت كبده وأكلتها فلم تسغها فدلعتها.

فلما رأى النبي ﷺ ما رأى في عمِّه حمزة قال: ((لولا أن تحزن صفية - أُخت حمزة لأبيه وأمه- ويكون سُنّة من بعدي لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير، ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلنّ بثلاثين رجلاً منهم)).

فلما رأى المسلمون حُزْنَ رسول الله ﷺ وغيظه على من فعل بعمِّه حمزة ما فعل، قالوا: والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لنمثلنّ بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب.

ومما قال ﷺ حين وقف على عمِّه حمزة: ((لن أصاب بمثلك أبداً، ما وقفت موقفاً قط أغيظ إليَّ من هذا)).

ثم إن الله عز وجل أنزل: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾﴾ [النحل]، فعفا رسول الله ﷺ وصبر، ونهى عن المثلة.

وفي سيرة ابن هشام: أنَّ رسول الله ﷺ غطّى حمزة ببردةٍ ثم صلى عليه، فكبر سبع تكبيرات ثم أُتيَ بالقتلى فيوضعون إلى حمزة فصلى عليهم وعليه معهم، حتى صلى عليه اثنتين وسبعين صلاة.اهـ أي: اثنتين وسبعين تكبيرة.

[بقية من قتل في هذه الغزوة]

وممن قُتِل: مصعب بن عمير وهو من بني عبد الدار، وشماس بن عثمان وهو من بني مخزوم، وعبدالله بن جحش وهو حليف لبني أمية، هؤلاء الأربعة الشهداء هم من المهاجرين.

وقُتِل من الأنصار ستة وستون رجلاً، وجملة القتلى من المسلمين في هذه المعركة سبعون رجلاً. وقُتِل من المشركين في هذه الغزوة اثنان وعشرون رجلاً.

وقد نعى الله سبحانه وتعالى على المسلمين أن يلقوا بأيديهم إلى قريشٍ يلتمسون الأمان منهم ويطلبون رضاهم عندما بلغهم أنَّ النبي ﷺ قد قُتِل، فقال سبحانه: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٤]، فقد كان الكثير من الصحابة ومن كبارهم حين شاع فيهم يوم أُحُد خبر قتل النبي ﷺ قد أصابهم الدهش والتحيّر، ففكّروا في أن يستسلموا لقريش ويلتمسوا منها الأمان ويعطوها الرضا، فاستنكر الله تعالى عليهم هذا التفكير الذي نسوا فيه ربهم ونبيهم ﷺ.

وأيضاً نعى الله سبحانه وتعالى على المسلمين في هذه المعركة ما أصابهم من الوهن والضعف والاستكانة للعدوِّ، وقلّة الثبات والصبر فقال سبحانه: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٦] المعنى: أن كثيراً من الأنبياء الذين كانوا قبلكم قاتل معهم رِبِّيون كثير من أصحابهم فما وهنوا لقتل أنبيائهم كما وهنتم أيها المسلمون حين شاع فيكم قتل نبيكم ﷺ، وما ضعفوا عن قتال عدوهم كما ضعفتم أيها المسلمون، وما استكانوا لعدوهم كما استكنتم أيها المسلمون وذللتم لعدوّكم حتى التمستم من عدوكم الأمان أو

كدتم، ولم تصبروا وتثبتوا كما صبر وثبتَ من كان قبلكم، وأنتم تعلمون أنَّ الله يحب الصابرين، ثم ذكر الله تعالى صبر الرِّبِّيين الكثيرين الذين هم أصحاب الكثير من الأنبياء السابقين، والتجائهم إلى الله بالدعاء، وثباتهم الذي لم يتزلزل إلى أن بلغوا من الأمر حيث أراد الله تعالى فقال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٧] فلم يستسلموا للجزع والفزع كما استسلمتم، ولم ينسوا ربهم والدعاء له والالتجاء إليه كما نسيتموه، فلم تذكروه ولم تَدْعوه ولم تفزعوا إليه بل خرتم وجبنتم وكدتم أن تُلْقوا بأيديكم إلى عدوّكم تلتمسون منه الأمان.

ثم قال تعالى عمن تقدم من الربِّيين الصابرين: ﴿فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران:١٤٨]، ثُم حذَّر الله تعالى المسلمين الذين فكروا في التماس الأمان من قريش وطلب رضاهم، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٩] أي: أنكم بطاعة قريش ستخسرون دنياكم وأُخراكم، ثم ذكَّر الله المسلمين الذين تاهت عقولهم بالناصر الذي إن التجئوا إليه نصرهم، فقال سبحانه: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران:١٥٠]، فاعتصموا به ولا تستنصروا بغيره، ولا ترجعوا على أعقابكم مرتدين.

ثم قال سبحانه: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ...﴾ الآية [آل عمران:١٥١]، فثقوا بنصر الله إن أنتم أطعتموه، فإنه لم يحصل ما حصل فيكم من عدوكم إلا بذنوب اقترفتموها خالفتم فيها أمر الله وعصيتم رسوله ﷺ.

ثم قال سبحانه: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:١٦٥] أي: إذا قُتِلَ

منكم سبعون وهُزِمتُم فقد سبق وأن قتلتم من عدوكم سبعين وأسرتم سبعين في يوم بدر، فلا تستنكروا ما أصابكم فإنكم أنتم السبب فيما أصابكم حيث عصيتم رسولكم ﷺ وخالفتم أمره، فأنتم إذاً الذين أحللتم ذلك بأنفسكم.

ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾﴾ [آل عمران]، أي: أنَّ ما أصابكم من قريش في أُحُدٍ هو بإذن الله حيث رفع نصره عنكم وخَلَّى بينكم وبين عدوكم؛ ليُجازيكم بذلك على معصيتكم للرسول ﷺ وخروجكم من طاعته، وليتميّز بذلك أهل الإيمان وأهل النفاق.

نعم، الذي أذن الله به وأراده هو رفع النصر والمعونة والتخلية بين المسلمين وقريش، فهذا هو الذي أذن الله به وأراده، أما ما حصل من القتل في المسلمين ومن الجروح فيهم وفي نبيهم ﷺ فلم يأذن الله به ولم يُرِدْه.

ثم ذَكَرَ الله تعالى الشهداء، فقال عز وجل: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [آل عمران].

وكما ذكرنا سابقاً فقد ذكر الله تعالى هذه الغزوة والكثير من تفاصيلها في ستين آية من سورة آل عمران، ولم نذكر هاهنا إلَّا بعض الآيات، فمن أراد الزيادة فليرجع إلى الستين الآية وتفاسيرها، وأول الآيات قوله تعلى: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾...﴾ إلى نهاية ستين آية [آل عمران].

[دروس وعبر من غزوة أحد]

و في هذه الغزوة عبر:

١- أنَّ نصر الله تعالى لأوليائه لا يأتي إلا بعد بلاء شديد ومحن عظيمة، لا يتحمّلها إلَّا أهل الإيمان الراسخ، ولا يصبر عليها إلا أهل الثقة وأهل اليقين.

٢- أن ثواب الدنيا الذي هو العلوّ والسيطرة على الأعداء وعلى أموالهم وبلادهم وذراريهم، وثواب الآخرة الذي هو الجنة؛ مُترَتِّب على طاعة الله ورسوله ﷺ وعلى الصبر والثبات والالتجاء إلى الله تعالى بالدعاء والاستغفار.

٣- أن معصية الرسول ﷺ ومخالفته في الصغير أو الكبير سبب للهزيمة والفشل.

٤- أن صحابة الرسول ﷺ -وإن فازوا بفضل صحبة الرسول ﷺ وشرفوا بها كغيرهم من المسلمين- تصدر منهم الطاعات والمعاصي، ويؤاخذهم الله تعالى بالمعصية ويعاقبهم عليها كغيرهم من العصاة، وصحبتهم وإن كانت فضيلة فلا ترد عنهم المؤاخذة والعقاب على معصيتهم.

٥- عقاب الله تعالى ومؤاخذته لأهل أُحُد وفيهم البدريون مما يوقع الشك بصحة الحديث القائل: ((إنك لا تدري لعلّ الله اطَّلع على أهل بدر، فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرتُ لكم)).

٦- أن صحابة الرسول ﷺ كانوا كغيرهم فيهم المؤمن وفيهم المنافق، ومنهم قويُّ الإيمان، ومنهم ضعيف الإيمان، وفيهم المطيع، وفيهم العاصي.

غزوة بني النضير سنة ٤هـ

في تفسير أهل البيت عليهم السلام في تفسير سورة الحشر: ﴿هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ [الحشر:٢]: يعني بني النضير أخرجهم الله تعالى من ديارهم من نواحي المدينة، وهم نفر من اليهود كانوا هنالك فأخرجهم الله تعالى صاغرين، وذلك أنهم كانوا صالحوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن لا يكونوا عليه ولا له، فلمَّا غَلَبَ يوم بدر قالوا: هو الذي في التوراة لا ترد له راية، فلما غُلِب يوم أُحُد ارتابوا فحالفوا قُريشاً على حربِ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فلما علم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بنقضهم العهد الذي بينه وبينهم صبّحهم بالكتائِب، فحاصرهم إحدى وعشرين ليلة، وقد كان عبدالله بن أُبَيْ المُنافِق وعدهم بالنصرة وقال لهم: ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الحشر:١١]، فَلَمَّا قَذَفَ الله الرعب في قلوبهم طلبوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم الصلح فأبى عليهم إلَّا الجلاء، فأجلوا إلى أرض الشام، وطائفة إلى خيبر، وطائفة إلى الحيرة، وأطلق لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يحمل كل ثلاثة أبيات على بعيرٍ واحدٍ ما شاءوا من متاعهم.

و قوله تعالى: ﴿لِأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾ [الحشر:٢] أي: أن الله تعالى أخرجهم من جزيرة العرب وأجلاهم عنها عند أول حشرهم؛ لأنهم أوَّل مَنْ أُجلي مِنَ اليهود عن الجزيرة، وحشروا إلى الشام، وآخر حشرهم كان في زمن عمر بن الخطاب حين أجلاهم من خيبر إلى الشام.

﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللَّهِ فَأَتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر:٢] المعنى -والله أعلم-:

أنكم أيها المؤمنون ما كنتم تظنون أن يهود بني النضير سيخرجون من ديارهم وحصونهم؛ لما هم فيه من القوّة والتمكّن والحصانة والشدة، وهكذا يهود بني النضير ما كانوا يظنون أنهم سيخرجون من ديارهم وحصونهم صاغرين ذليلين، بل ظنوا أنهم في مأمنٍ أمين، وهو حصونهم المنيعة، لا يستطيع النبي ﷺ والمسلمون أن ينالوهم فيها بأذىً، فخيّب الله تعالىٰ ظنّهم وأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا، وإتيان الله إياهم من حيث لم يحتسبوا هو بتيسيره لأمورٍ منها:

١- سهَّلَ الله تعالىٰ للمسلمين الطريق إلىٰ قتلِ سيدهم كعب بن الأشرف، فقتله محمد بن مَسْلَمة الأنصاري غيلة بأمر النبي ﷺ، فكان ذلك مما فتَّ في أعضادهم وزلزل أقدامهم.

٢- ثَبَّطَ اللهُ تعالىٰ المنافقين عن نصرتهم.

٣- قذف الله في قلوبهم الرعب.

٤- ثم بما تعقَّب ذلك من اجتماع المسلمين ونبيهم ﷺ على حربهم وحصارهم.

[بعض العبر من حادثة بني النضير]

ومن العبر في هذه الحادثة أن اليهود كانوا يخربون بيوتهم من الداخل بأيديهم؛ لئلا ينتفع بها المسلمون بعد الجلاء، وكان المؤمنون يخربون بيوت اليهود من الخارج؛ ليغيضوا اليهود، وقوله تعالىٰ: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر:٢] فيما ذكر الله تعالىٰ من قصة هؤلاءِ اليهود، حيثُ أذلَّهم الله وأخرجهم من بيوتهم وحصونهم صاغرين مطرودين مهزومين، تاركين أموالهم ومزارعهم وبيوتهم للمسلمين علىٰ رغم آنافهم، مع أنهم قد كانوا في عزَّةٍ ومنَعَةٍ وقُوَّةٍ أجمعت ظنون المسلمين واليهود عندها أن عدوّهم الذي هو النبي ﷺ والمسلمون لا

يقدرون على الوصول إليهم لا بالقتل ولا بالطرد ولا بالجلاء، فأمر الله تعالى أولي الأبصار أن يعتبروا بذلك، أي: لا تصنعوا يا أهل البصائر مثل ما صنعَ اليهود، فيلحقكم مثل ما لحقهم من بَأْسِ الله ونقمته، وذلك أنَّ اليهود اعتمدوا على قوّتهم ومَنَعَتِهم وعلى ما هم فيه من وَفارةِ أسبابِ النصر والسلامة، فلم ينفعهم ذلك حين خالفوا الله ورسوله ﷺ وشاقوا الله ورسوله ﷺ؛ لذلك فلا ينبغي لأحدٍ أن يعتمد إلَّا على ربه، ولا يتوكل إلَّا عليه، ولا يثق إلَّا به، أمَّا الاعتماد على ما سوى الله تعالى من قوةٍ ماديةٍ أو معنويةٍ فما هو إلا جهل وغرور.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْجَلَاءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابُ النَّارِ ۝٣ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِّ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٤ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ۝٥﴾ [الحشر] المعنى: أن الله تعالى قد جَعَلَ جلاء يهود بني النضير عن ديارهم وأموالهم صاغرين ذليلين، وجعل ذلك جزاءهم في الدنيا على تكذيب النبي ﷺ ونقض العهد معه ومشاققته ومعاداته، وحكم بذلك عليهم، ولولا ذلك الحكم لحكم عليهم بعذابٍ آخر في الدنيا كالقتل والسَّبي وتغنّم الأموال، وذلك كما فُعِلَ ببني قريظة، وسبب استحقاقهم لذلك العذاب هو مشاققتهم ومعاداتهم لله تعالى ولرسوله ﷺ.

هذا، وقد كان المسلمون في وقت حصار اليهود فريقين، فريق يقطع نخيل اليهود ويحرقها، وفريق آخر يَسْتَبْقُونها، فصَوَّب الله تعالى الفريقين؛ لأن القاطع والمُحرِّق يفعل ذلك ليغيض اليهود، والتارك لذلك يتركها لينتفع بها المسلمون.

غزوة بني المصطلق

غزوة بني المصطلق في شعبان سنة ٥هـ وهم من خزاعة وكانوا قد اجتمعوا لحرب النبي ﷺ بقيادة سيدهم الحارث بن ضرار، فخرج إليهم النبي ﷺ في سبعمائة من أصحابه وتواجه الفريقان فنصر الله تعالى نبيَّه عليهم فقتلوا وأسروا وسبوا وغَنِموا إبلهم وشياههم، وكان السبيُ كثيراً، منهنّ جويرية بنت الحارث بن ضرار سيّد القوم كانت في سهمِ ثابت بن قيس بن شماس فكاتبته، فدفع النبي ﷺ مال الكتابة وتزوّجها.

وفي هذه الغزوة تخاصم رجلان أحدهما من المهاجرين والآخر من الأنصار، فقال الأنصاري: يا معشر الأنصار، وقال المهاجري: يا معشر المهاجرين، وكان عبدالله بن أُبي حاضراً في هذه الغزوة فغضب وقال: «سَمِّنْ كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ»، فبلغ النبي ﷺ مقالته فأنكرها عبدالله وحلف بالله ما قال، ثم نزلت سورة المنافقين في عبدالله بن أبي وأصحابه.

وظهر في هذه المعركة أثر علي بن أبي طالب رضوان الله عليه حيث قتل جماعةً من شجعانهم.

حديث الإفك

كانت عائشة في غزوة بني المصطلق مع النبي ﷺ، وفي عودة النبي ﷺ من هذه الغزوة إلى المدينة بات هو والمسلمون في مكانٍ، فلما حان وقت الرحيل جاء الموكلون بترحيل بعير عائشة فحملوا الهودج على البعير ظناً منهم أنها فيه، وليست فيه بل كانت في طلب عقد لها سقط من عنقها فهي تبحث عنه، فسار الناس، فلما عادت عائشة إلى مكانها لم تجد فيه أحداً فجلست مكانها، فبينا

هي جالسة إذ مرَّ بها صفوان بن المعطل وكان قد تخلَّف عن الناس لبعض حاجته، فتعرّف على عائشة فعرفها فأناخ لها بعيره فركبت، فانطلق يسرع بها ليلحق الجيش، فلم يلحقهم إلَّا حيث نزلوا، فرأى الناس صفوان يقود الجمل بعائشة، فوجد المنافقون بسبب هذه الحادثة مدخلاً لإلحاق العار بالنبي ﷺ وتشويه سُمعته وتلطيخ عرضه بعار النساء، فرموا عائشة زوجة النبي ﷺ بالزنا، وأن صفوان بن المعطل زنا بها، فانتشر هذا الخبر في الجيش وخاض الناس فيه، واستاء النبي ﷺ لهذا الخبر الفاحش العظيم وداخله من سوئه ما لا يحيط به الوصف.

وكان الذين ظهر منهم نشر الخبر عبدالله بن أبي المنافق، وقد كان أعظم الخبر من جهته، وحسان بن ثابت الشاعر، ومسطحاً مولى أبي بكر، وحمنة بنت جحش زوجة طلحة، فهؤلاء هم الذين عرفوا برمي عائشة بالزنا.

ثم بعد بلاء وتمحيص نزلت سورة النور فبرَّأت عائشة وصفوان بن المعطل، وطهَّرت عرض النبي ﷺ، ونزل فيها حدّ القذف: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور:٤]، فجلد رسول الله ﷺ حسان بن ثابت ومسطحاً وحمنة بنت جحش حدَّ القذف، وترك ﷺ عبدالله بن أُبيّ بن سلول فلم يجلده إيثاراً منه ﷺ للمصلحة العامة؛ لأن عبدالله بن أُبَيّ كان شريفاً في قومه –الخزرج– وكبيراً وسيداً فلو أنَّ النبي ﷺ جلدهُ لربما أدَّى إلى أن تتغير قلوب الكثير من قومه –الخزرج– وقد كان ابنه من المخلصين مع النبي ﷺ فكره النبي ﷺ أن يتغيَّر قلب ابنه، وكلُّ ذلك من أجل المصلحة العامة للإسلام والمسلمين.

وقد كان النبي ﷺ يُراعي المصلحة العامة للإسلام، ألا ترى أنه لما مات عبد الله بن أُبي بن سلول شهد النبي ﷺ جنازته ووقف على قبره وصلَّى عليه صلاة الجنازة وأعطاهم ﷺ ثوبه ليكفِّنوه فيه، وكان هذا قبل أن ينهى الله تعالى عن ذلك: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ﴾ [التوبة:٨٤]، فلما نزل النهي ترك النبي ﷺ.

غزوة الخندق وتسمى غزوة الأحزاب

حدثت هذه الغزوة في شوال سنة خمسٍ من الهجرةِ.

وسببها أنَّ جماعة من يهود بني النضير الذين أجلاهم رسول الله ﷺ إلى خيبر ذهبوا إلى قريش في مكة، وألَّبُوهم على حرب النبي ﷺ، ووعدوهم النصر والإعانة؛ فأجابوهم إلى ذلك، ثم ذهب اليهود إلى غطفان فدعوهم؛ فاستجابوا لهم، وخرج أبو الطُّفَيل في هوازن، فخرجت قريش ومن تبعها وعلى رأسهم أبو سفيان صخر بن حرب، وخرجت غطفان وعلى رأسها عُيينة بن حصن بن بدر، وكان الجميع عشرة آلاف رجل.

فلما سمع النبي ﷺ بخروجهم أمر بحفر الخندق بإشارة من سلمان الفارسي رضي الله عنه، فحفره المسلمون واجتهدوا، وكان النبي ﷺ يحفرُ معهم وينقل التراب، وقد ذكر الله تعالى العاملين المخلصين في حفر الخندق، فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النور:٦٢]، وذكر سبحانه المنافقين الذين كانوا يتسلَّلون هرباً من العمل في الخندق فقال سبحانه: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ [النور:٦٤].

وقد ذَكَرَ الله تعالى هذه الغزوة وذَكَّر المؤمنين بعظيمِ نعمتهِ عليهم فيها، فقال

سبحانه: ﴿اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب:٩] وكانت ريحاً باردة في ليلة شاتية فأضعفتهم ببردها، وسفت التراب في وجوههم، وقلعت الخيام، وأطفأت النيران، وأكفأت القدور؛ فانهزموا من غير قتال.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ المعنى: أن الله أعطاهم النصر في هذه الغزوة؛ لعلمه تعالى بأنهم انقطعوا إليه والتجأوا إليه ولم يرجوا سواه.

ثم ذكر الله تعالى وبيَّن كثرة المشركين وإحاطتهم بالمسلمين، وما أصاب المسلمين عند ذاك من الهول والخوف والفزع، فقال سبحانه: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ﴾ [الأحزاب:١٠] أي: من قِبَل المشرق، قال في البرهان للإمام الديلمي عليه السلام: جاء منه -أي: المشرق- عوف بن مالك في بني النضير، وعيينة بن حصن في أهل نجد، وطليحة بن خويلد الأسدي في بني أسد، وأبو الأعور السلمي ومعه حيي بن أخطب في يهود بني قريظه مع عامر بن الطفيل.

﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ [الأحزاب:١٠]: أي: من جهة الغرب وهم قريش ومن معها، وقالوا: سنكون حملة واحدة حتى نستأصل محمداً.

﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ [الأحزاب:١٠]، بيّن الله تعالى بهذه العبارة شدَّة هول المسلمين، ومدى خوفهم وفزعهم في ذلك المقام، وقد كان المسلمون ثلاثة آلاف، واستمر الحصار على الخندق قريباً من شهر، ولم يحصل قتال إلا الترامي بالنبال، إلا ما كان من قتل عمرو بن عبد ودّ؛ فقتله علي بن أبي طالب، وقُتِل رجلان رُمِي أحدهما بسهم والآخر رضخ بالحجارة بعد سقوطه في الخندق.

وقوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب:١٠] المعنى والله أعلم: أن

المسلمين لشدّة الهول والفزع حدثت فيهم ظنون، فالـمُنافقون وضعاف الإيمان ظنوا أن النبي ﷺ وأصحابه سَيُسْتَأصَلون، وظنّ أهل الرسوخ في الإيمان أن وعدَ الله حقّ، وأن الله سيُظْهِر دينه على الدينِ كلّه ولو كره المشركون.

ثُمَّ أخبر تعالى عن ظنّ المنافقين وتفصيله، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب:١٢]، قال في المصابيح نقلاً عن البرهان: روينا عن آبائنا أنَّ رسول الله ﷺ كان يحفر الخندق لحرب الأحزاب فبينما هو يضرب فيه بِمِعْوَلِه إذ وقع المِعْوَلُ على صفا، فطارت منه كهيئة الشهاب من نارٍ في السماء -أي الهواء-، فضرب الثاني فخرج مثل ذلك، فضرب الثالث فخرج مثل ذلك، فرأى ذلك سلمان، فقال له النبي ﷺ: ((أرأيت ما خرج من كل ضربة ضَرَبْتُها؟)) قال: نعم يا رسول الله، فقال ﷺ: ((يفتح الله لكم بيض المدائن، وقصور الشام، ومدائن اليمن)).

قال: ففشا ذلك في أصحاب رسول الله ﷺ وتحدّثوا به، فقال بعض المنافقين: أَيَعِدُنا محمدٌ أن يفتح لنا مدائن اليمن وبيض المدائن وقصور الشام، وأحدنا لا يستطيع أن يقضي حاجته إلا قُتِل، هذا واللهِ الغرورُ، فأنزل الله هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب:١١]: المعنى والله أعلم: أنه تميّز في هذا اليوم الشديد الهائل- المخلصُ من المنافق، والثابتُ من المتزلزل، وقويُّ الإيمان من ضعيف الإيمان.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ

﴿يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا...﴾ [الاحزاب:١٣] المعنى: أن بعض المنافقين قيل: هو عبدالله بن أُبَي وأصحابه قالوا لأهل يثرب –أي أهل المدينة– يا أهل يثرب لا ينبغي لكم المقام هاهُنا عند النبي ﷺ فلا ترابطوا فيه؛ لأنه مقام هلاكٍ محقق، والمُرابط فيه مقتولٌ بِلا شك، فارجعوا إلى منازلكم وبيوتكم.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾﴾ [الأحزاب]، المعنى: إن فريقا من المنافقين لما سمعوا نصيحة عبدالله بن أُبيّ وأصحابه استأذنوا النبي ﷺ في الرجوع إلى بيوتهم ومنازلهم مُتَعلِّلين بِأَنَّ بيوتهم معرضة للعدو ليس دونها ما يحجبها منه، فهم يخشون عليها منهم، والواقع أن بيوتهم ليست كما يقولون، بل مُرادهم وغرضهم ليس إلا الفرار.

ثم أخبر سبحانه بأن هؤلاء الأحزاب لو دخلوا المدينة من جوانبها ثم طلبوا من المنافقين الفارِّين إلى بيوتهم أن يرتدّوا عن الإسلام ويكفروا بالدين لكفروا وارتدّوا.

ثم أخبر سبحانه بأن فرار المنافقين إلى بيوتهم ومنازلهم غير نافع لهم فلن يلبثوا بها إلا يسيراً ثم يأتيهم الموت الذي فرّوا منه بزعمهم.

ثم أخبر الله تعالى عن خسّتهم ودناءتهم، حيث نقضوا عهد الله الذي عاهدوه على الوفاء به فنقضوه وخانوا الله ورسوله ﷺ.

ثُم قال لهم سبحانه: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ

بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴿١٧﴾﴾ [الأحزاب] يخاطبهم الله تعالى: بأن فراركم لا يدفع عنكم ما تحذرون من القتل أو الموت، وإن نفعكم وسلمتم منه وقتاً فمتاعُ الدنيا قليل لا يستحق أن يؤثروه على الخير الكثير الباقي الذي لا ينفد ولا ينقطع، وافرضوا أنكم بفراركم قد دفعتم عن أنفسكم الهلاك وحصنتموها من القتل، فليس هناك من يدفع عنكم غضب ربكم إذا أراد أن يُحِلَّ بكم بأسه ويُذيقكم مرارة نقمته بما فعلتم من الفرار عن رسوله ﷺ ومن النقض لعهده، فالله سبحانه وتعالى وحده هو القادرُ على إعطاءِ الرحمةِ وفعل النقمة، ولا أحد يقدر أن يحول بين الله وبين فعل الرحمة أو فعل النقمة.

ثم أخبر تعالى عن المنافقين فقال جل شأنه: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا...﴾ الآية [الأحزاب:١٨]، قد علم الله سبحانه المنافقين الذين يثبطون أصحاب النبي ﷺ عن القتال ويدعونهم إلى ترك الجهاد والمرابطة.

وعلم سبحانه المنافقين الذين يدعون إخوانهم إلى ترك المرابطة مع النبي ﷺ ويطلبون منهم الإِقبال إليهم، ثم ذكرهم الله تعالى ووصفهم بالجبن الشديد الذي يمنعهم من حضور ساحات القتال، وذمّهم أيضاً بصفة البُخْلِ الشديد، وصَوَّر تعالى في القرآن جُبْنَهم بصورة تكادُ أن تكون محسوسة فقال سبحانه: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ [الأحزاب:١٩]، ثم صوّر تعالى كيف تكون حالهم وصفتهم في وقت الأمن فقال سبحانه: ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى

﴿اللَّهِ يَسِيرًا...﴾ [الأحزاب:١٩]، المعنى: أنَّ المُنافقين كانوا إذا انتهت المعركة مع المشركين وحصل الأمن وذهب الخوف فإن المُنافقين حينئذ يتجرّؤون على الكلام ويبالغون في ذمِّ المؤمنين، وادَّعَوْا لأنفسهم الشجاعة والنجدة كذباً، وأظهروا البخل الشديد عند قسمة الغنائم، وزيادة الحرص، والجشع، والرغبة فيها، ويغضبون وتنكسر أنفسهم ألماً، إذا أعطاكم الرسول ﷺ نصيبكم من الغنائم يبخلون بها عليكم، ويرون أنهم أحق بها، ويذمّونكم على ما أعطاكم، ويكثرون الكلام في ذلك.

ثم قال تعالى فيهم: ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٠] المعنى: أن المنافقين لشدّة خوفهم وفزعهم يحسبون أن الأحزاب التي غزت المدينة ما زالت حولهم وأنهم لم يذهبوا، وفي الواقع أنهم قد ذهبوا، وأنهم يَوَدُّون ويتمنون إذا رجعت الأحزاب إلى المدينة للحرب أن يكونوا بعيدين عن المدينة وفي مأمن لا يسمعون فيه ولا يرون ما يجري من الحرب مع الأحزاب، فيسألون كغيرهم من أهل البوادي عما يجري في المدينة من القتل والقتال والنصر والهزيمة.

ثم أخبر الله تعالى المسلمين بأن هؤلاء المنافقين الفارِّين لا ينفعكم حضورهم ومرابطتهم معكم لشدة جُبْنِهِم وفزعهم وجزعهم؛ لذلك لا يتوقع منهم القتال ومقارعة الرجال.

حال المؤمنين الصادقين في غزوة الأحزاب

بيَّن الله تعالى حال المؤمنين الصادقين في إيمانهم في غزوة الأحزاب بعدما فصَّل حال المنافقين، فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٢] لم يشك المؤمنون الصادقون حين رأوا جيوش الأحزاب الكثيرة كما شك المنافقون، بل إنهم آمنوا وصدّقوا، واعتقدوا في قرارة أنفسهم أنّ ما وعدهم الله ورسوله ﷺ من النصر والعلوّ والغلبة وَعْد حَقّ، وأن جموع الأحزاب ستُهزم وتُغلب، وأن النبي ﷺ والمؤمنين وإن قلّوا هُمُ المنتصرون، وإن لم يكُن النصر إلا بعد الابتلاء، فقالوا ثقةً بذلك: هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، ولم تزدهم رؤية جموع الأحزاب إلَّا ثقة بما وعد الله تعالى، وتسليماً لأمر الله وقضائه بما قضاه من الابتلاء والاختبار.

ثم قال سبحانه: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب:٢٣] وصف الله المؤمنين الثابتين بِأَنهم أوفوا بما عاهدوا الله عليه من السمع والطاعة للرسول ﷺ، والحرب لمن حارب والسلم لمن سالم، وأن يحموه ويمنعوه من المشركين، ومن كل مَنْ أراد به سوءاً، فحموه ودافعوا عنه، وضربوا بسيوفهم وجوه أعداء النبي ﷺ، وناضلوا عنه وتفانوا في ذلك، وبلغوا الغاية والنهاية في الثبات مع نبيهم ﷺ في كل موطن، فمنهم من قُتِلَ شهيداً في سبيل ذلك، ومنهم من سَلِمَ فهو ينتظر الشهادة في مضيه قُدماً في نُصرة النبي ﷺ، وما بدَّلوا العهد ولا غيّروه ولا نقضوه لا مَن قُتِلَ ولا مَن انتَظَر.

ثم أخبرنا الله تعالى عن وعده بِالجزاءِ لِلمؤمنين والمنافقين، فقال سبحانه: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ﴾ [الأحزاب:٢٤] أي: إذا أصرُّوا على نِفَاقهم ولم يتوبوا ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ [الأحزاب:٢٤] أي: إذا تابوا ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٢٤].

ثم قال سبحانه: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب:٢٥] المعنى: أن الله تعالى ردَّ جموع المشركين الهائلة في هذه الغزوة المرعبة على النبي ﷺ والمسلمين وأرجعهم من حيث أتوا لم يشفوا غيظهم ولم ينالوا من النبي ﷺ والمسلمين أيَّ منال، بل رجعوا وهُزموا خائبين مغتاظين، وكفى الله المؤمنين القتال بالملائكة، وبالريح الباردة، وبقتل عمرو بن عبدِ ودٍّ العامري، وكان فارس تلك الأحزاب وعمادهم، وكان يُعَدُّ لألْفٍ، قتله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

وكان عمرو بن عبد ودّ قد قفز بِفرسه من فوق الخندق، ودخل إلى النبي ﷺ والمسلمين ووقف بفرسه بينهم، ولم يدخل إلى المسلمين غيره إلا رجُل من قريشٍ قفز فوق الخندق فلم يبلغ الجهة الأخرى فسقط في الخندق فقتله المسلمون بالحجارة.

أمَّا عمرو بن عبد ودّ فدخل إلى صف المسلمين ودعاهم إلى البراز فلم يجبه أحد؛ لعلمهم بشجاعته وقوة بدنه، وكَرَّر عمروٌ الدعاء إلى البراز، فلم يجبه أحد، بل سكتوا وكأنما على رؤوسهم الطير، وقد كان علي عليه السلام يتهيأُ للقيام إلى براز عمرو في كل مرةٍ غير أن النبي ﷺ كان يُسكته ويمنعه في كل مرة؛ رجاء أن يقوم غيره، أو من أجل أن يتبيّن فضل علي عليه السلام على سائرِ الصحابة، فلمَّا تبيَّن للنبي ﷺ وظهر عجزهم وخوفهم من الإقدام إلى مبارزة عمرو بن ودّ

ظهوراً لا تحوم حوله الشكوك أَذِنَ النبي صلى الله عليه وآله وسلم لعلي عليه السلام في البراز لعمرو، فلما بَرَزَ عليٌّ عليه السلام قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((برز الإِيمانُ كله للشرك كله)).

وكان علي عليه السلام راجلاً وعمرو بن عبد ودّ على فرس، فنزل عن فرسه وبعد حوار بينهما دعاه علي عليه السلام فيه إلى الإسلام فأبى عمرو، فقال علي: (فأنا أدعوك إلى المبارزة) فقال عمرو: ما ظننت أن أحداً من العرب يطلبها مني و..إلى آخر المحاورة، ثم تجاولا وتصارعا حتى غيَّبهما الغبار، فسمع المسلمون بعد ساعة التكبير فعرفوا أنَّ علياً قد قَتَلَ عمراً، فكبَّروا وحمدوا الله تعالى؛ فانهار لقتله عزم المشركين ووهت عزائمهم، مع ما هُمْ فيه من الريح الباردة التي سفت وجوههم، وأعمت عيونهم، وقلعت خيامهم، وأطفأت نيرانهم، وأكفأت قدورهم.

غزوة بني قريظة

كانت غزوة بني قريظة عقب غزوة الأحزاب مباشرة من غير تراخٍ، وذلك أنه كان بين بني قريظة والنبي ﷺ عهد، فلما قدمت الأحزاب ونزلوا على المدينة نقضوا العهد الذي بينهم وبين النبي ﷺ؛ فلما علم النبي ﷺ بذلك ساءه وشقَّ عليه وعلى المسلمين، فلما أيَّد الله رسوله ﷺ ونصره وهزم المشركين وردهم بغيظهم لم ينالوا خيراً، ورجع النبي ﷺ إلى المدينة مؤيَّداً منصوراً، وأراد أن يضع السلاح- جاءه جبريل عليه السلام فقال له: ((إنَّ الله يأمرك أن تنهض إلى بني قريظة))، فنهض النبي ﷺ من ساعته، وأمر الناس بالمسير إلى بني قريظة، وكانت على أميالٍ من المدينة وذلك بعد صلاة الظهر، وقال ﷺ: ((لا يصلينَّ أحد منكم العصر إلا في بني قريظة))، فسار الناس فبعضهم صلّاها في الطريق وبعضهم لم يصلِّها إلا في بني قريظة بعد المغرب، فلم يُعَنِّف النبي ﷺ واحداً من الفريقين.

وتبعهم رسول الله ﷺ وأعطى الراية عليَّ بن أبي طالب، ثم نازلهم وحاصرهم خمساً وعشرين ليلة، فلمَّا طال عليهم الحصار نزلوا على حكم سعد بن معاذ؛ لأنهم كانوا حلفاءه في الجاهلية، فاستدعاه النبي ﷺ، فجاء فلما دنا من خيمة الرسول ﷺ، قال ﷺ: ((قوموا إلى سيِّدكم))[1]، فقام إليه المسلمون فأنزلوه إعظاماً وإكراماً واحتراماً، وبعد محاورة أصدر سعد حكمه فقال: «إني أحكم: أن تقتل مقاتلتهم، وتسبى ذريتهم ونساؤهم وأموالهم»، فخدت أخاديد وجيء بهم مكتوفين فضربت أعناقهم.

وقد ذكر الله تعالى هذه الغزوة المباركة بعد ذكره لغزوة الأحزاب، فقال سبحانه: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي

(١) سيأتي تخريجه.

﴿قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۝٢٦ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الاحزاب].

فأخبر الله تعالىٰ وذكَّر المؤمنين بعظيم نعمته عليهم حيثُ ردَّ عنهم المشركين وهزمهم، ثُم أَتْبع ذلك بنعمةٍ أخرىٰ عظيمة وهي أنه تعالىٰ أذلَّ يهود بني قريظة الذين نقضوا العهد وتعاونوا مع أحزاب المشركين، وأنزلهم من عزِّهم، وأخرجهم من حصونهم، وألقىٰ في قلوبهم الرعب والخوف حتىٰ تمكنتُم مِنْ قتل رجالهم وسبي نسائهم وأولادهم، وغَنِمْتُم بيوتهم وحصونهم وأموالهم وأرضهم، وكتب مع ذلك لكم السيطرة علىٰ أرضٍ أخرىٰ.

ولم تحدد في الآية الأرض الأخرىٰ، وإنما ذكرها الله تعالىٰ مُبهمة فلعلَّها مَا سيطر عليه المسلمون بعد ذلك مِنْ أراضي اليهود كخيبر وغيرها، وقيل: إنها أرض فارس والروم، والله أعلم.

[حكم سعد بن معاذ وسماحة الإسلام]

قد يقال: إن في حكم سعد بن معاذ في يهود بني قريظة قساوة لا ينبغي أن يقرَّها الإسلام؛ فما هو العذر الذي دعا النبي ﷺ إلىٰ إقرار ذلك الحكم مع ما عرف من سماحة الإسلام ونبي الإسلام؟

والجواب والله الموفق:

١- أن اليهود الذين كانوا في المدينة وحولها كانوا قد استيقنوا نبوة النبي ﷺ وعلموا صحّة رسالته، وتماماً كما قال تعالىٰ عنهم: ﴿يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ﴾، ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ وأخبر تعالىٰ عنهم بأنهم يكتمون الحق وهم يعلمون.

٢- أخبر الله في القرآن أنه أخذ عليهم العهود في الإيمان بمحمد ﷺ المصدِّق لما معهم من الكتاب والحكمة؛ فلما جاءهم النبي ﷺ أخلفوا ما عاهدوا الله عليه.

٣- أنهم لم يكتفوا بالكفر بالنبي ﷺ وبدينه ورسالته، بل تجاوزوا ذلك إلى السعي في إطفاء نور الرسالة، وسعوا في ذلك غاية السعي، وجدُّوا غاية الجد، ولم يَدَعوا سبيلاً إلى ذلك الغرض إلا سلكوه، ولا حيلة إلا أبرموها ولا مكراً إلا مكروه، وقد وصفهم الله تعالى بأنهم بلغوا الغاية والنهاية في عداوتهم للنبي ﷺ ولدينه وللمسلمين فقال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ﴾...الآية [المائدة:٨٢].

٤- أنهم كانوا جرثومة فساد في عاصمة الإسلام (المدينة) فكان لا بد من التخلّص من تلك الجرثومة المفسدة للإسلام والمسلمين، وقد أخبر الله تعالى عن بعض نواياهم فقال سبحانه: ﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران:٧٥]، ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِى أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴿٧٢﴾﴾ [آل عمران]، وكانوا يثيرون العداوات الجاهلية بين الأوس والخزرج، وعلى الجملة ففسادهم كان بصفة مستمرة يزداد ويستشري ولا يقف عند حد.

أن النبي ﷺ لم يكن يتوقع إسلامهم لما أخبر الله تعالى عنهم من التمرّد في كتابه الكريم، وأنهم لن يزالوا واقفين في وجه رسالة الله يضربونها بسيوفهم ويطعنونها برماحهم، ويصدّون عنها بأموالهم وحِيَلِهم ومكرهم، فحين علم النبي ﷺ ذلك، وعرف أنه لا سبيل إلى التخلّص من فسادهم وشرّهم إلا بالقتل- أقرّ حكم سعد ورضي به (وآخر الدواء الكيّ) وقد قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا﴾.... الآية [المائدة:٣٣].

[فتح الحديبية في ذي القعدة/ ٦هـ]

وقع فتح الحديبية وبيعة الرضوان في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة.

أراد النبي ﷺ أنْ يسير إلى مكة معتمراً، فدعا من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه حذراً من قريش أن يعرضوا له ويصدوه عن البيت الحرام، فسار ﷺ هو ومن معه وأحرموا وساقوا الهديَ ليُبيّن للنَّاس أنه لا يُريدُ حرباً، فتثاقل الكثير من الأعراب، وقالوا: يذهب إلى قومٍ قد غزوه في عقر داره، وقتلوا أصحابه، وظنّوا أنه سيهلك في سفره هذا فلا يرجع إلى المدينة، فاعتذروا بالشُّغلِ بأهاليهم وأموالهم.

وقد ذكر الله تعالى خبر هؤلاء الأعراب المُتخلفين في سورة الفتح، فقال سبحانه: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح:١١]، يعني: أن تخلّفهم ليس لِما قالوا، وإنما عذرهم الذي خلَّفهم هو الشكُّ والنفاق، وطلبهم الاستغفار ليس صادراً عن رغبةٍ لأنهم مُنافقون لا يُبالون بالاستغفار ولا بعدمه، ثم قال تعالى مخاطباً لهؤلاء المنافقين: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الفتح] أي: هالكين.

فخرج النبي ﷺ فيمن خرج معه إلى مكة محرمين ملبِّين بالعمرة ومعهم الهديَ حتى بلغوا عسفان لَقِيَهم بشر بن سفيان الكعبي فقال: يا رسول الله هذه قريشٌ قد سمعت بمسيرك فخرجت معها العوذ المطافيل(١)، قد لبست لك

(١)- العوذ المطافيل: النوق ذوات اللبن معها أولادها، وهي كناية عن النساء معها الأطفال.

جلود النمور يعاهدون الله تعالى أن لا تدخلها عليهم عنوةً أبداً، وهذا خالد بن الوليد في خيلهم قد قدَّموه إلى كراع الغميم[١]، فقال رسول الله ﷺ: ((يا ويح قريش قد أكلتهم الحرب، ماذا عليهم لو خلّوا بيني وبين سائر الناس؟ فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله تعالى دخلوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فماذا تظن قريش؟ فوالله لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله تعالى به حتى يُظهرنيَ الله عز وجل أو تنفرد هذه السالفة[٢]))، ثم أمر الناس فسلكوا طريقاً غير الطريق التي فيها خالد بن الوليد، حتى إذا بلغ الحديبية[٣] بركت ناقته ﷺ فقال الناس: خلأت[٤] القصوى، خلأت القصوى، وقال ﷺ: ((ما خلأت القصوى وما ذلك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة، والله لا تدعوني قريش اليوم إلى خطّة يسألوني فيها صلة الرحم إلَّا أعطيتهم إيَّاها))، ثم قال ﷺ للناس: ((انزلوا))، فنزلوا على ثمد[٥] قليل الماء، فلم يلبث الناس أن نزحوه، فشكوا إلى رسول الله ﷺ العطش، فانتزع ﷺ سهماً من كنانته، وأمرهم أن يجعلوه فيه فخرج الماء بكثرة ببركته ﷺ.

---

(١) كراع الغميم: موضع بناحية الحجاز بين مكة والمدينة، وهو واد أمام عسفان بثمانية أميال ويبعد عن مكة نحو ستين كم.

(٢)- السالفة: هي الرقبة، وأراد بذلك الموت.

(٣) ذكر في معجم البلدان أن بعضها في الحل وبعضها في الحرم، وهي على طريق جدة مكة القديم، على يمين الذاهب إلى مكة عند حدود الحرم.

(٤) الخِلاءُ فِي الإِبل كالحِرانِ فِي الدَّوابِّ. خَلأَتِ الناقةُ تَخْلأُ خَلْأً وخِلاءً، بِالْكَسْرِ وَالْمَدِّ، وخُلُوءاً، وَهِيَ خَلُوءٌ: بَرَكَتْ، أَو حَرَنَتْ مِنْ غَيْرِ علةٍ؛ وَقِيلَ: إِذَا لَمْ تَبْرَحْ مَكانَها،... يُقَالُ: خَلأَتِ الناقةُ، وأَلَحَّ الجَمَلُ، وحَرَنَ الفرسُ. (لسان العرب باختصار).

(٥)- الثمد -بسكون الميم وفتحها-: الماء القليل الذي لا مادة له. تمت (مختار الصحاح).

بيعة الرضوان

وسببها أنَّ الرسول ﷺ قبل مفاوضته مع قريش كان قد أرسل عثمان بن عفان إلى مكة ليُخبر قريشاً أنَّ رسول الله ﷺ لم يجيء لحربِ أحد وإنما جاء زائراً للبيت، فاحتبست قريشٌ عثمانَ في مكة ثلاثة أيام، فبلغ الرسول ﷺ أنَّ الخبَرَ قد انتشر بقتل قريش لعثمان، فقال رسول الله ﷺ: ((لا نبرح حتى نناجز القوم))، ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان، قيل: بايعهم رسول الله ﷺ على الموت، وقيل: بايعهم على أن لا يفرّوا، فبايعَ المسلمون الذين كانوا مع رسول الله ﷺ ولم يتخلَّف منهم أحد إلا رجل واحد هو الجد بن قيس، وكان مُنافقاً فإنه استتر، وكانت البيعة تحت شجرة في الحديبية، ثم بلغ رسول الله ﷺ بعد ذلك أنَّ الذي كان من خبر قتل عثمان باطل.

ثم لم يحصل في الحديبيةِ بعد ذلك إلا تتابع رسل قريش إلى النبي ﷺ حتى تَمَّ عقد الصلح بين الطرفين، ثُمَّ نحر الهدي في الحديبية ثم الحلق والتقصير.

[رسل قريش وصلح الحديبية]

هذا، ولما اطمأنّ رسول الله ﷺ في الحديبية حيث بركت ناقته ﷺ أتته رسل قريش، فأوَّلُ رسول كان بديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه خزاعة، وكانوا عَيبة نصح للنبي ﷺ، فأخبر النبيَّ أن قريشاً قد صمَّمت وعزمت على صَدِّكَ عن البيتِ الحرام وقِتالك، فقال ﷺ: ((إنَّا لم نجيء لِقتالِ أحد، وإنما جئنا مُعتمرين....إلخ))، فرجع ورقاء إلى قريشٍ ثم بعثوا عروة بن مسعود فجاء إلى النبي ﷺ وكلَّمه، فقال له النبي ﷺ نحواً من قوله لورقاء، فرجع عروة إلى أصحابه فقال: أيْ قومِ، والله لقد وفَدْتُّ على الملوكِ ووفدتُّ على كسرى وقيصر والنجاشي، والله ما رأيت ملكاً قط يعظّمه أصحابه

ما يُعظم أصحابُ محمدٍ محمداً، والله إن تَنَخَّمَ نخامة إلَّا وقعت في كفِّ رجُلٍ منهم فدَلَكَ بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأَ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلَّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون النظر إليه تعظيماً له.

ثم بعثوا رجُلاً من بني كنانة، فلمَّا دنا من الحديبية رأى البُدْنَ قائمة ورأى المسلمين يُلَبُّون، وكان هذا الكناني من قومٍ يعظِّمون البدن، فرجع قبل أن يصل فقال لأصحابه: رأيت البدن قد قُلِّدَت وأُشْعِرَت فما أرى أن يُصَدُّوا عن البيت.

ثُمَّ بعثت قريش مكرز بن حفص وهو رجلٌ منهم فكلَّم النبي ﷺ، فبينما هو يكلِّمه ﷺ إذ جاء سهيل بن عمرو فتفاءل النبي ﷺ بمجيئه وقال: ((سهل لكم من أمركم))، فكان سهيل آخر سفراء قريش إلى النبي ﷺ، ومع سهيل جرى عقد الصلح بين النبي ﷺ وبين قريش، ولم يرض سهيل حين كتابة الصلح أن يكتب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم، ولا محمد رسول الله، بل يكتب: باسمك اللهم، ومحمد بن عبدالله، وكان علي عليه السلام هو الذي كتب الصلح، فأمرهُ النبي ﷺ أن يمحو رسول الله ويكتفي بمحمد بن عبدالله، فاستعظم علي ذلك فمحاه رسول ﷺ بيده ومحا من الكتاب «بسم الله الرحمن الرحيم» وأبدلها «باسمك اللهم»، ثم قال النبي ﷺ لعلي عليه السلام:((إنه سيكون لك مثلها))(١).

(١) وقد وقع ذلك في صفين عند كتابة الصلح بين أمير المؤمنين عليه السلام ومعاوية بن أبي سفيان.

وتم الصلح على:

١- أنْ يرجع النبي ﷺ هذه السنة عن دخول مكة على أن يدخلها معتمراً في العام المقبل، وسُمّيت هذه العمرة عمرة القضاء، والأولى عمرة الحديبية.

٢- أنَّ على النبي ﷺ أن يردَّ إلى قريشٍ مَنْ أتاه منهم وإن كان مسلماً.

٣- ليس على قُريشٍ أن يردّوا من جاءهم من المسلمين.

٤- أن يأمن الطرفان، فلا يمسّ أحدٌ منهما الآخرَ بأذى، ولا يتعرّض له بمكروه، وإطفاء نار الحرب وترك القتل والقتال.

٥- أن تكون فترة هذه الهدنة عشر سنوات يختلط فيها الطرفان ويأمن الفريقان حيثما كانوا وحيث حلوا ونزلوا.

ابتلاء واختبار

رأى رسول الله ﷺ قبل خروجه إلى الحديبية في المنام أنه دخل هو وأصحابه مكة آمنين وحلقوا وقصَّروا، فقصَّ ﷺ هذه الرؤيا على أصحابهِ فَفَرِحوا واستبشروا، وحسبوا أنها في ذلك العام، فلمَّا تَمَّ الصلح ورجع المسلمون المدينة ولم يدخلوا مكة؛ فحصل للبعض ريبةٌ وداخلتهم الشكوك، وكان عمر بن الخطاب أوَّل من واجه النبي ﷺ بتلك الشكوك، فأنزل الله تعالى في تأكيد صحّة قول النبي ﷺ وطرد الشكوك عنه قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا**﴾ [الفتح:٢٧]، فأكّد سبحانه للمؤمنين بصيغ التوكيد البليغة أنَّ رؤيا النبي ﷺ رؤيا حق وأنها ستقع حسب ما أخبر.

غير أنَّ الله سبحانه قد عَلِمَ أنَّ المصلحة العظيمة تقتضي تأخير الدخول إلى مكة إلى العام المقبل، وأنَّ الحكمةَ تقتضي أن يفتح الله للمسلمين خيبر قبل دخول مكة.

استنكار عمر لهذا الصلح

وقد استنكر عمر بن الخطاب هذا الصلح؛ فجاء إلى النبي ﷺ مُنفعلاً، فقال للنبي ﷺ: ألستَ نبيَّ الله حقاً؟ قال ﷺ: ((بلى))، فقال عُمر: ألسنا على الحقّ وعدونا على الباطل؟ فقال ﷺ: ((بلى))، فقال عُمر: فَلِمَ نعطي الدّنِيَّة في ديننا إذاً؟ فقال ﷺ: ((إني رسول الله، ولست أعصيه وهو ناصري))، فقال عمر: أولستَ كنت تحدثنا أنَّا سنأتي البيت ونطوف به؟ فقال ﷺ: ((بلى، أفأخبرتُكَ أنا نأتيه العام؟)) قال عمر: لا، فقال ﷺ: ((فإنك آتيه ومطوِّف به)).

فذهب عمر إلى أبي بكر وكرَّر عليه نفس الأسئلة التي سألها النبي ﷺ فأجابهُ أبو بكر بمثل جواب النبي ﷺ، ثم حذَّره من تلك الانتقادات على النبي ﷺ الموهمة للشكِّ في نبوة النبي ﷺ، والموهمة لكذبه ﷺ. وأمره أبو بكر باتّباع النبي ﷺ ومُلازمته وترك الشكوك فيه ﷺ؛ لأنه رسول الله ونبيه ﷺ، فكان عمر يحدث عن نفسه ويقول: فعملت أعمالاً كثيرة ليُكفِّر الله عني ذنوب تلك الكلمة(١).

---

(١) أورد هذه القصة كثير من المحدثين وأهل السير، فمن ذلك ما في صحيح البخاري (٣/ ١٩٣ رقم: ٢٧٣١) في سياق ذكر الحديبية حتى قال: فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ: فَأَتَيْتُ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ: أَلَسْتَ نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا، قَالَ: «بَلَى»، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ، وَعَدُوُّنَا عَلَى البَاطِلِ، قَالَ: «بَلَى»، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: «إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَلَسْتُ أَعْصِيهِ، وَهُوَ نَاصِرِي»، قُلْتُ: أَوَلَيْسَ كُنْتَ تُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ فَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: «بَلَى، فَأَخْبَرْتُكَ أَنَّا نَأْتِيهِ =

فلما تمَّ الصُّلح أمَرَ النبيُّ ﷺ أصحابَه بأن ينحروا البُدْنَ، ثم يحلقوا رؤوسهم فلم يفعلوا، وكرَّرَ عليهم فلم يفعلوا، فدخلَ النبيُّ ﷺ خيمته ثم خرج إليهم ولم يكلّمهم فنحر ثم حلق، فقام الصحابة ونحروا ثم حلقوا(١)، وقد كانوا سبعَمائة رجل ومعهم سبعون بدنة، فكانت البدنة عن عشرة، وفي رواية أن أهل الحديبية كانوا ألفاً وأربعمائة، وفي روايةٍ ألفاً وخمسمائة.

[الرجوع إلى المدينة ونزول سورة الفتح]

ثم قفل الرسول ﷺ بعد ذلك راجعاً إلى المدينة هو والمسلمون ونزلت عليه في رجوعه سورة الفتح: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح:١] سمَّى الله تعالى صُلح الحديبية فتحاً مبيناً، وذلك لما ترتَّب

العَامَ»، قَالَ: قُلْتُ: لاَ، قَالَ: «فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ»، قَالَ: فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ: يَا أَبَا بَكْرٍ أَلَيْسَ هَذَا نَبِيَّ اللَّهِ حَقًّا؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: أَلَسْنَا عَلَى الحَقِّ وَعَدُوُّنَا عَلَى البَاطِلِ؟ قَالَ: بَلَى، قُلْتُ: فَلِمَ نُعْطِي الدَّنِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذًا؟ قَالَ: أَيُّهَا الرَّجُلُ إِنَّهُ لَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَيْسَ يَعْصِي رَبَّهُ، وَهُوَ نَاصِرُهُ، فَاسْتَمْسِكْ بِغَرْزِهِ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ عَلَى الحَقِّ، قُلْتُ: أَلَيْسَ كَانَ يُحَدِّثُنَا أَنَّا سَنَأْتِي البَيْتَ وَنَطُوفُ بِهِ؟ قَالَ: بَلَى، أَفَأَخْبَرَكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ العَامَ؟ قُلْتُ: لاَ، قَالَ: فَإِنَّكَ آتِيهِ وَمُطَوِّفٌ بِهِ، - قَالَ الزُّهْرِيُّ: قَالَ عُمَرُ -: فَعَمِلْتُ لِذَلِكَ أَعْمَالاً. ورواه مسلم في صحيحه ورواه ابن حبان في صحيحه بلفظ: فقال عمر بن الخطاب: والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ، فأتيت النبي ﷺ...إلى قوله: فعملت في ذلك أعمالاً يعني: في نقض الصحيفة.

(١) وهذا أيضاً ورد في كثير من كتب أهل الحديث وأهل السير، وقد أورده البخاري في نفس الحديث الذي نقلناه في الحاشية السابقة بعد الذي نقلناه منه فيها تماماً بدون فصل وهذا لفظه: قَالَ: فَلَمَّا فَرَغَ مِنْ قَضِيَّةِ الكِتَابِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَصْحَابِهِ: «قُومُوا فَانْحَرُوا ثُمَّ احْلِقُوا»، قَالَ: فَوَاللَّهِ مَا قَامَ مِنْهُمْ رَجُلٌ حَتَّى قَالَ ذَلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا لَمْ يَقُمْ مِنْهُمْ أَحَدٌ دَخَلَ عَلَى أُمِّ سَلَمَةَ، فَذَكَرَ لَهَا مَا لَقِيَ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ، أَتُحِبُّ ذَلِكَ، اخْرُجْ ثُمَّ لاَ تُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ كَلِمَةً، حَتَّى تَنْحَرَ بُدْنَكَ، وَتَدْعُوَ حَالِقَكَ فَيَحْلِقَكَ، فَخَرَجَ فَلَمْ يُكَلِّمْ أَحَدًا مِنْهُمْ حَتَّى فَعَلَ ذَلِكَ نَحَرَ بُدْنَهُ، وَدَعَا حَالِقَهُ فَحَلَقَهُ، فَلَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ قَامُوا، فَنَحَرُوا وَجَعَلَ بَعْضُهُمْ يَحْلِقُ بَعْضًا حَتَّى كَادَ بَعْضُهُمْ يَقْتُلُ بَعْضًا غَمًّا.

عليه من الأمن واختلاط الناس مِمَّا تسبَّب ذلك في دخول الناس في الإسلام، فإنه دخل في تلك السنة في الإسلام أكثر مما دخل فيه في السنين التي قبلها.

وكانت بنود الصلح كلها في صالح المسلمين حتى البند الذي اشترطته قريش على النبي ﷺ، وهو أن على النبي ﷺ أن يرُدَّ إليهم من جاءه من قريشٍ وإن كان مسلماً، فإنه قد انعكس في صالح المسلمين، وذلك أنَّهُ أتى النبيَّ ﷺ بعد وصوله المدينة رجلٌ من قريشٍ اسمه أبو بصير فأرسلت قريش رجلين إلى النبي ﷺ فقالا: العهد الذي جعلت لنا فدفعه النبيُّ ﷺ إلى الرجلين، وقال له النبيُّ ﷺ: سيجعل اللهُ لكَ مخرجاً، فخرجا به حتى بلغا ذا الحليفة، فنزلا يأكلان، فتحيّل أبو بصير لسيف أحدهما، فأخذه وقتل به أحدهما، وفرّ الآخر، فجاء أبو بصير إلى النبيِّ ﷺ وقال له: قد والله أوفى الله ذمتك، ثم قال النبي ﷺ: ((ويل أمه، مسعر حرب لو كان معه أحد)).

فخرج أبو بصير حتى أتى سيف البحر(١)، ثم تفلت من قريش أبو جندل بن سهل فلحق بأبي بصير ثم لحق بهما كل من أسلم من قريش حتى اجتمع منهم عصابة، فلا يسمعون بتجارةٍ لقريش إلى الشام إلَّا اعترضوا لها فأخذوها وقتلوا أصحابها، فأرسلت قريش إلى النبي ﷺ تُناشده الله والرحم أن يضمّهم إليه ويؤويهم ولا يردَّهم إليهم.

ثم ذكر الله تعالى في هذه السورة البيعة فقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح:١٠] وقال سبحانه:

(١) قال في لسان العرب: والسِّيفُ: سَاحِلُ الْبَحْرِ، وَالْجَمْعُ أَسْيَاف. ابْنُ الأَعرابي: الْمَوْضِعُ النَّقِيُّ مِنَ الْمَاءِ. وَفِي حَدِيثِ جَابِرٍ: «فأَتينا سِيفَ الْبَحْرِ» أَي: سَاحِلَهُ. والسِّيفُ: مَوْضِعٌ.اهـ(منه باختصار).

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾﴾ [الفتح]، علم الله تعالى ما في قلوبهم من صدق النية في طاعة الرسول ﷺ والصبر معه والجدَّ في القتال، فنزع تعالى ذلك الخوف من قلوبهم وملأها أمناً وطمأنينةً ورضا، وبشَّرهم على صدق نيَّاتهم بفتح خيبر واستيلائهم على مغانمها الكثيرة من الدور والنخيل والبساتين والأموال المتنوعة التي فيها غناؤهم.

ثم وعدهم الله تعالى وعد بشارة فقال: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ [الفتح:٢٠] أي: مغانمَ خيبر، ﴿وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ﴾ [الفتح:٢٠]، قيل: أي أهل مكة بالصلح، وقيل: أيدي حلفاء أهل خيبر، وهم أسد وغطفان فإنهم جاءوا لينصروا أهل خيبر فألقى الله في قلوبهم الرُّعب فانهزموا.

﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح:٢٠] المعنى والله أعلم: أنَّ الفتح لخيبر والتغنّم لأموالها الكثيرة كانت على حسب ما أخبر الرسول ﷺ فكان ذلك آيةً للعالمين ودلالةً على صدق الرسول ﷺ حيثُ أخبر بذلك قبل حصوله، ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾ [الفتح]، لما في ذلك من زيادة اليقين بصدق النبي ﷺ وزيادة الثقة والبصيرة والهداية.

﴿وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ [الفتح:٢١] المعنى: ووعدكم الله تعالى أيضاً مغانم أخرى غير ما تقدّم لم تقدروا عليها حتى الآن، وستقدرون عليها في المستقبل، قيل: هي مغانم يوم حنين، وقيل مغانم فارس والروم.

ثم قال الله تعالى لأهل الحديبية: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِنْ أهل مكة ﴿لَوَلَّوُا الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الفتح:٢٢]، وتمنَّنَ سبحانه على أهل الحديبية فقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ﴾ أيدي أهل مكة ﴿وَ كَفَّ أَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾ أي: في الحديبية لأنّ الحديبية في طرف الحرم ﴿مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾ [الفتح:٢٤] أي: من بعد أن حكم لكم بالظفر والنصر لو قاتلوكم.

ثُمَّ قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح:٢٥]، المعنى والله أعلم: لولا وجود مؤمنين ومؤمنات في مكة مختلطين بالمشركين يُخْشَى عليهم القتل لو نشبت بينكم وبين المشركين الحرب فيلحقكم سوء القالة من المشركين بأنكم قتلتم أهل ديانتكم بالإضافةِ إلى ما يلحقكم من الديات والكفَّارات في قتلِ الخطأ؛ لأنَّ دم المسلم لا يُهدر، فلو تميَّز هؤلاء المؤمنون والمؤمنات من بين المشركين وخرجوا جانباً لسلَّطناكُم عليهم، ولما كفَفْنا أيديهم ولا أيديكم، ولعذَّبنا مُشركي قريش بسيوفكم عذاباً أليماً.

ثم قال سبحانه: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح:٢٦]: أَنِفَ مشركو مكة واستكبروا عن التصديق برسول الله ﷺ والإيمان به، وأبوا الاعتراف بالتوحيد لله، ومنعوا رسول الله ﷺ من زيارة البيت، ورفضوا كتابةَ: «بسم الله الرحمن الرحيم» في الصُلْح، وكتابة «محمد رسول الله ﷺ»؛ لذلك أنزل

الله سكينته على رسوله ﷺ وعلى المؤمنين، فوَاجَهوا تلك الحميّة الجاهلية بالهدوء والاطمئنان والسكون حتى تمَّ الصلح والعهد.

فكان الرسول ﷺ والمؤمنون حين واجهوا حميَّة الجاهلية وتكبُّرَها وأنفتها في طمأنينةٍ وهدوء، قد قرّ توحيد الله تعالى في قرارة نفُوسهم وانطوت قلوبهم على السمع والطاعة لله ولرسوله ﷺ، فتواضعوا لله ولم يتكبَّروا، فكان المؤمنون أولى بالإخلاص والتوحيد والهدى من غيرهم، وهم أهل ذلك لأنهم أهل الخير.

[مكاتبات النبي ﷺ إلى الملوك]

لما استتمّ النبي ﷺ بناء دولة القرآن في المدينة وما حولها من بلاد العرب بعث النبي ﷺ الرسل والكتب إلى ملك الفرس وملك الروم وملك الحبشة و...الخ(١).

أما ملك الفرس فأَنِفَ من كتاب النبي ﷺ إليه وما طلبه من الدخول في الإيمان، ومزّق الرسالة وطرد حاملها، وأرسل إلى نائبه في اليمن (باذان) أن يأتيه بمحمد ﷺ مربوطاً؛ فلما وصلت الرسالة إلى صاحب اليمن بعث إلى المدينة مبعوثين ليتعرَّفوا خبر محمد ﷺ، فلما وصل المبعوثون إلى المدينة ورأوا رسول الله ﷺ واستفسروه قال لهم الرسول ﷺ: ((إن ربي أخبرني أنه قد قتل ربكم في هذه الليلة))(٢)، فرجع المبعوثون من المدينة إلى اليمن وأخبروا والي اليمن بما قال لهم الرسول ﷺ من قتل ملكهم في فارس وليلة كذا، ثم بعد شهر أو أكثر وصل رسول كسرى الجديد يخبرهم بموت الملك في الليلة الفلانية، فدخل الإيمان في قلب والي اليمن فأسلم.

وأما ملك الروم فقبل الرسالة وتأمّلها وسأل الرسول عن النبي ﷺ فعرف أنه النبي ﷺ الذي بشَّر به موسى وعيسى عليهما السلام ففكَّر في الإسلام فدعا بطارقته ورهبانه وجمعهم في مكان؛ فكلَّمهم من مكان عالٍ: بأن الله تعالى قد بعث النبي

---

(١) وذلك في ذي الحجة من السنة السادسة بعد صلح الحديبية، انظر: طبقات ابن سعد، تاريخ الطبري، سيرة ابن هشام، سيرة ابن كثير، إمتاع الأسماع للمقريزي وغيرها.

(٢) وردت بألفاظ قريبة مما هنا منها: في الجامع الصحيح للسنن والمسانيد (١/ ٤٩٩): ((أبلغا صاحبكما أن ربي قد قتل ربه كسرى في هذه الليلة..إلخ))، وفي مجمع الزوائد بلفظ:((اذهبوا إلى صاحبكم فقولوا له إن ربي قتل ربه الليلة))، وفي المصباح المضي في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي (٢/ ١٥٥) بلفظ: ((إن ربي قتل ربكما ليلة كذا وكذا من شهر كذا وكذا بعد ما مضى من الليل سلط عليه شيرويه فقتله)).

الذي بشَّر به موسى وعيسى عليهما السلام، وأنه من استخبر الرسول عنه، فكان في صفاته كما أخبر به موسى وعيسى عليهما السلام؛ فاشتطوا غضباً ونخروا نخرة وحاصوا، فعرف الملك أنهم لا يرضون بالإسلام، فقال لهم: اهدأوا إنما صنعت ذلك بكم لأختبر ثباتكم على دينكم، فالحمد لله على ما رأيتُ من ثباتكم وصلابتكم.

وأما ملك الحبشة فأسلم وأسرَّ اسلامه وكانت الحبشة نصارى، وأراد ملك الحبشة إدخال رعيَّته من النصارى في الإسلام فدعاهم وعرض عليهم الإسلام وقال: إن محمداً ﷺ هذا النبي الذي بشر به موسى وعيسى عليهما السلام، وعلى الجملة فإنه صنع كما صنع ملك الروم.

وكتب ﷺ إلى ملك مصر فأكرم رسول رسول الله ﷺ ولم يظهر منه ميول إلى الإسلام، وأرسل إلى النبي ﷺ مع الرسول بجاريتين هدية، إحداهما مارية القبطية.

فهؤلاء هم عيون الملوك الذي كتب ﷺ إليهم، وكتب إلى ملوك آخرين.

وكانت هذه الكتب والرسائل منه ﷺ بعد صلح الحديبية مباشرة، وكما ذكرنا فإن ملك الروم مال بقلبه إلى الإسلام، فأراد المزيد من أخبار النبي ﷺ، وكانت قريش تسافر إلى الشام للتجارة، فبعث الملك في طلب رجال من قريش ليستخبرهم عن محمد ﷺ، فجاءت الرسل بجماعة من قريش فيهم أبو سفيان إلى الملك، فقال لهم الملك: ليتقدّم بالجواب أقربهم إلى محمد ﷺ؛ فتقدم أبو سفيان ووقف أصحابه خلفه، فسأله هرقل عن شرف محمد ﷺ ونسبه وعن أبويه: هل هما حيّان أم ميّتان؟ وإلامَ يدعو؟ ومن يتبعه؟ وهل ادّعى أحد من آبائه مثل ما ادعى و...الخ، ولم يجسر أبو سفيان أن يكذب في جوابه على الملك فأجاب بالصدق في جميع جواباته؛ فلما تمّ السؤال والجواب قال الملك: والله لأن صدقني الرجل ليأخذنّ ما تحت قدمي، فقال أبو سفيان: لقد أَمِرَ أَمْرُ ابن أبي كبشة، حتى أصبح يخافه ملك بني الأصفر.

[كُتَّاب النبي ﷺ]

كان للنبي ﷺ كُتَّاب يكتبون له الرسائل لأنه ﷺ لم يكن يكتب، وكاتبه الرئيسي هو علي بن أبي طالب، فقد كان يكتب العهود والرسائل والوحي؛ لأنه لم يكن يفارق النبي ﷺ إلا إذا بعثه النبي ﷺ لمهمّة، وقد اتخذ النبي ﷺ خاتماً يختم به الكتب والرسائل مكتوب فيه: (محمد رسول الله)، ولم يتخذ النبي ﷺ الخاتم إلا حين كتب إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام، ولم يكن له خاتم من قبل ذلك، وله ﷺ كتَّاب آخرون منهم: عثمان بن عفان، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبي بن كعب، وعبد الله بن عبد الله بن أبي، وقد كتب للنبي ﷺ غيرهم، وقد ذكر بعضهم أن كتاب النبي ﷺ كانوا أكثر من تسعة وثلاثون كاتباً منهم: أبو بكر وعمر...وإلخ.

[علم الكتابة]

كان علم الكتابة في قريش وفي قبائل العرب قليلاً لذلك يقال لهم الأميون ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران:٧٥]، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: ((نحن أمة أُمِّيَّة لا نقرأ ولا نحسب...الخ))، وكانوا لذلك يعتمدون في حفظ العلوم على الحفظ في الصدور، فكانت صدورهم هي صحائف العلوم ولهذا السبب أنزل الله تعالى القرآن مفرقاً في عشرين سنة: ﴿لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان:٣٢]، أي: ليحفظه النبي ﷺ والمسلمون، ولو أنزله الله تعالى دفعة واحدة لتعسّر على النبي ﷺ وعلى المسلمين حفظه.

ولم تكن العرب تعتمد على الكتابة ولا تلتفت إليها؛ لاستغنائها عنها بالحفظ؛ لذلك لم تكن الكتابة عندهم شرطاً في كمال الرجل، ولا يُعَدُّ عدم الكتابة نقصاً فيه.

[النبي الأمي]

وقد كان النبي ﷺ وهو أكمل البشر لا يكتب ولا يقرأ الكتب(١)، ولم يكن ذلك نقصاً من كماله ﷺ؛ لأنه كان مستغنياً عن الكتابة والقراءة فعلوم الإسلام والقرآن وما أطلعه الله تعالى عليه من علم الغيب وغيره كل ذلك مكتوب في صدره ومحفوظ في فؤاده، وقد كان في أصحابه ﷺ من الكتَّاب ما يكفي لكتابة رسائله إلى الآفاق، وقد تلقَّى الصحابة القرآن والسنة والشرائع والأحكام وما يتبع ذلك من العلوم من فم النبي ﷺ، وحفظوه في صدورهم وإن كانوا درجات متفاوتات في العلم، وبعضهم أعلم من بعض، وبعضهم أكثر قرآناً من بعض.

(١) في كتاب محاضرات رمضانية: الذي يظهر والله أعلم أن النبي ﷺ كان لا يقرأ ولا يكتب طول حياته وذلك لعدة أمور: ١-قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ۝٤٨﴾ [العنكبوت]. ٢-المعروف أنه كان للنبي ﷺ كتاب يكتبون له مذكورون في كتب السير معروفون بأسمائهم ولم يرو أنه كتب بيده مرة واحدة، مع حرص الرواة على نقل أفعاله ﷺ وحركاته وسكناته. ٣-أن الأمية (عدم القراءة والكتابة) من أمارات نبوته وصفاته المذكورة في الكتب السابقة: «مصاحفهم في صدورهم»..إلخ المبحث.

فتح خيبر [محرم / سنة ٧ هـ]

لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية أقام في المدينة ذا الحجة وبعض المحرّم، ثم خرج في بقية المحرّم إلى خيبر فلما أشرف على خيبر قال: ((اللهم رب السموات وما أظللن ورب الأرضين وما أقللن ورب الرياح وما أذرين، فإنَّا نسألُك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذُ بِكَ من شرِّها وشرِّ أهلها وشرِّ ما فيها)).

فلمَّا رأى أهلُ خيبر رسولَ الله ﷺ وجيشه، قالوا: مُحَمَّدٌ والخميس معه، فهربوا فقال ﷺ: ((الله أكبر خربت خيبر، إنَّا إذا نزلنا بساحةِ قومٍ فساء صباح المنذَرينَ)).

فزحَفَ رسول الله ﷺ بجيشه على أرضِ خيبر يأخذها مالاً مالاً، ويفتحها حصناً حصناً، فأول حصن افتتحه المسلمون حصن ناعم، ثم حصن القموص وهو حصن بني أبي الحقيق، وأصاب رسول الله ﷺ من هنا سبايا، منهن صفية بنت حيي بن أخطب، وكانت عند كنانة بن الربيع بن أبي الحقيق وبنتي عمٍّ لها، فاصطفى ﷺ صفية لنفسه.

ولما افتتح ﷺ من حصونهم ما افتتح لاذوا بالتحصُّن في حِصْنَيْهم الوطيح والسلالم وكانا آخر حصون خيبر افتتاحاً، فحاصرهم رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة، وخرج مرحب اليهودي من الحصن في سلاحه يطلب المبارزة ويرتجز، فخرج لمبارزته علي بن أبي طالب عليه السلام وهو يرتجز، فقتله علي عليه السلام.

[فتح خيبر على يد علي عليه السلام]

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبا بكر وعمر لفتح خيبر أحدهما بعد الآخر، فانهزم كل منهما يُجَبِّنُه أصحابه ويُـجَبِّنهم(١)، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعد ذلك

---

(١) أما عمر وتجبينه لأصحابه وتجبينهم له فقد روى ذلك محمد بن سليمان الكوفي في المناقب عن أبي سعيد الخدري، ورواه الحاكم في المستدرك عن جابر بن عبدالله وقال: صحيح على شرط مسلم، وروى حديث جابر الطبراني في الصغير بلفظ: «رجلا... فجبن» وكذلك الحاكم في المستدرك ثم ذكرا حديث الراية، وعن علي (ع) بلفظ: (يجبنونه ويجبنهم) وقال: صحيح الإسناد، وقال الذهبي: صحيح، ورواه عن علي (ع) ابن أبي شيبة في مصنفه، وأخرجه عنه السيوطي في جامع الأحاديث ثم قال: ابن أبي شيبة والبزار وسنده حسن، ومثله في كنز العمال، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه البزار وفيه نعيم بن حكيم وثقه ابن حبان وغيره، وفيه لين. انتهى. ورواه البزار في مسنده عن علي (ع) بلفظ: (فلم يلبثوا ان هزموا عمر وأصحابه)، ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق، وابن جرير الطبري في تاريخه عن بريدة بلفظ: (يجبنه أصحابه ويجبنهم) ثم ذكرا حديث الراية، وروى انهزام عمر والتجبين ابن عساكر في تاريخ دمشق عن ابن عباس، وذكر هزيمة أبي بكر قبله، وكذلك العقيلي في الضعفاء، وأخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد وعزاه إلى البزار، وروى أخذ عمر اللواء أحمد بن حنبل في مسنده عن بريدة، ورواه عن بريدة ابن أبي شيبة في مصنفه ثم قال: رجع عمر يجبن أصحابه ويجبنه أصحابه، وأما أبو بكر والتجبين فقد رواه الحاكم الجشمي في تنبيه الغافلين عن أبي ليلى عن علي (ع) بلفظ: (فرجع منهزما عن أصحابه يجبن أصحابه ويجبنونه..الخ)، وروى الحاكم في المستدرك حديث أبي ليلى بلفظ: (بعث أبا بكر إلى خيبر فسار بالناس وانهزم حتى رجع) ثم قال: صحيح الإسناد، وقال الذهبي: صحيح، وروى بعث أبي بكر فقط وانهزامه الطبراني في الكبير عن سلمة بن الأكوع والحاكم في المستدرك وقال: صحيح الإسناد وقال الذهبي: صحيح، وابن عساكر في تاريخ دمشق والمحب الطبري في الرياض النظرة، وأخرج بعث أبي بكر وانهزامه الهيثمي في مجمع الزوائد عن ابن عباس وعزاه إلى البزار.

وأما من روى أخذ أبي بكر الراية وانهزامه ثم عمر وانهزامه فهؤلاء بعضهم: فقد روى ذلك النسائي في سننه عن بريدة بلفظ: (فأخذه أبو بكر فانصرف ولم يفتح له، وأخذه من الغد عمر ولم =

كما في البخاري(١): ((لأعطين الراية غداً رجُلاً يحبُّ اللهَ ورسولَه ويحبُّه اللهُ ورسولُه، يفتح الله على يديه ليس بفرار))، فدعا رسول الله ﷺ عليّاً رضوان

يفتح له)، وروى حديث بريدة الهيثمي في دلائل النبوة، وأحمد بن حنبل في مسنده وفي الفضائل، ورواه في الخصائص عن علي (ع)، وروى ذلك البزار في مسنده عن أبي ليلى عن علي (ع) من جملة حديث بلفظ: (فإن رسول الله ﷺ دعا أبا بكر فعقد له اللواء ثم بعثه فسار بالناس فانهزم، حتى إذا بلغ ورجع دعا عمر فعقد له لواء فسار ثم رجع منهزما بالناس...الخ)، وروى حديث أبي ليلى عن علي (ع) النسائي في سننه، وابن أبي شيبة في مصنفه، وابن عساكر في تاريخ دمشق، وأخرجه السيوطي في جامع الأحاديث، ثم عدد من أخرجه فقال: ابن أبي شيبة وأحمد وابن ماجه والبزار وابن جرير وصححه والطبراني في الأوسط والحاكم والبيهقي في الدلائل والضياء ومثله فعل الهندي في كنز العمال.

وقد روى بعث أبي بكر ثم عمر عن سلمة بن الاكوع أبو نعيم في الحلية، وابن عساكر في تاريخ دمشق، والروياني في مسنده، والبيهقي في دلائل النبوة، والحارث في مسنده، وروى حديث سلمة ابن كثير في البداية والنهاية.

(١) صحيح البخاري (٤/ ٧٣) رقم: ٣٠٠٩). هذا، وروى حديث الراية يوم خيبر: أبو طالب عليه السلام في أماليه عن جابر بن عبدالله، ورواه في مناقب الكوفي عن علي عليه السلام، وعن ابن عمر، وعن سعد بن أبي وقاص، وعن سلمة بن الأكوع، وسهل بن سعد، وأبي هريرة، وعن أبي سعيد الخدري، وعن عمران بن الحصين، وعن ابن عباس، وعن بريدة بن الحصيب. ورواه مسلم في صحيحه عن سلمة بن الأكوع، وعن سعد بن أبي وقاص، وعن أبي هريرة، والترمذي عن سعد، وابن ماجه عن علي عليه السلام، وعن سعد والحاكم في المستدرك عن جابر وعن سعد وعن بريدة، وأحمد في مسنده عن علي عليه السلام وسعد وسلمة وبريدة، والنسائي في سننه عن سهل بن سعد وعن سعد بن أبي وقاص وعن علي عليه السلام وعن أبي هريرة وعن عمران بن الحصين وعن ابن عباس وعن بريدة، ورواه في خصائص النسائي عن علي عليه السلام وبريدة وسعد وأبي هريرة وعمران بن الحصين وابن عباس، وابن أبي شيبة في المصنف عن بعض من ذكر، والهيثمي في مجمع الزوائد عن بعض من ذكر وعن ابن أبي ليلى، وابن حبان في صحيحه، وأبو نعيم في معرفة الصحابة، وسعيد بن منصور في سننه، وابن حبان في صحيحه، والبزار في مسنده، والطبراني في الثلاثة، وغيرهم كثير جداً، وعلى الجملة هذا الخبر الشريف كما قال الإمام الحجة مجدالدين بن محمد المؤيدي عليه السلام في لوامع الأنوار: «وهو من المتواترات التي أطبق على نقلها أرباب الروايات».

الله عليه وهو أرمد فتفل في عينيه، ثم قال: ((خذ هذه الراية فامض بها حتى يفتح الله عليك))، فمضى علي برايته حتى ركزها تحت الحصن، فخرج إليه أهل الحصن فقاتلهم فضربه رجل من اليهود فسقط ترسه عليه السلام من يده، فتناول علي باباً كان عند الحصن فترس به عن نفسه، فلم يزل في يده وهو يُقاتل حتى فتح الله عليه، ثم ألقاه من يده حين فرغ.

قال أبو رافع: أحد رواة هذا الخبر، فلقد رأيتُني في نفر سبعة أنا ثامنهم نجهد على أنْ نقلب ذلك الباب فما نقلبه.

استسلام يهود خيبر وفدك

حين أيقن أهل خيبر في حِصْنَيْهِم الوطيح والسلالم بالهلكة، سألوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يسيرهم، وأن يحقن لهم دماءهم ففعل، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد حاز الأموال كلها وجميع حصونهم إلا ما كان من هذين الحصنين، فلما سمع بهم أهلُ فدك قد صنعوا ما صنعوا، بعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يسألونه أن يسيرهم وأن يحقن دماءهم ويخلوا له الأموال، ففعل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم.

قدوم جعفر بن أبي طالب والمهاجرين معه من الحبشة

قَدِمَ جعفر بن أبي طالب في بعض المهاجرين معه من الحبشة بعد فتح خيبر، فأعتنقه النبيُّ ﷺ والتزمه وقبَّل بين عينيه، وقال ﷺ: ((ما أدري بأيهما أنا أسر: بفتح خيبرٍ، أم بِقدوم جعفر؟)).

وكان القادمون ستة عشر رجُلاً، حملهم النجاشي في سفينتين وكان قد قَدِمَ قبل ذلك بعضهم قبل الهجرة إلى المدينة وهم ثلاثة وثلاثون رجلاً، وبعضهم لم يقدم إلا بعد قدوم جعفر، وبعضهم مات هناك، وقد كان جملة النساء المهاجرات إلى الحبشة ست عشرة امرأة، منهن رقية بنت الرسول ﷺ، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وأم سلمة بنت أمية، وسودة بنت زمعة، وسهلة بنت سهيل بن عمرو، وأسماء بنت عميس.

ثم بعد فتح خيبر فتح رسول الله ﷺ وادي القرى(١) عنوة، وفتح تيماء(٢) صلحاً.

---

(١) وادي القرى: هو من أودية الجزيرة العربية يقع بين تيماء وخيبر، وقيل بأنه المعروف حالياً باسم وادي الجزل وهو وادٍ يبلغ طوله حوالي ٣٠٠كم من مبتدأه في أعالي حرة الرهاة متجهاً جنوباً إلى أن يلتقي مع وادي الحمض عند أم زرب غرب خيبر وهدية، ويلتقي معه في نفس المنطقة وادي خيبر المعروف باسم الطبق. (الموسوعة).

(٢) تيماء: هي اليوم محافظة تتبع منطقة تبوك وتبعد عنها نحو ٢٦٤كم إلى الجنوب الشرقي، وتبعد ٤٢٠كم إلى الشمال الشرقي من المدينة المنورة. (الموسوعة).

عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سَبْع للهجرة

صَدَّتْ قريش رسول الله ﷺ والمسلمين الذين كانوا معه في الحديبية ثم وقعت الهدنة وتمَّ الصلح بين النبي ﷺ وقريش، وكان مِنْ بنود الصلح أن يرجعَ النبيُّ ﷺ في سنته تلك، ويعود هو وأصحابه في السنة المقبلة؛ فعلى هذا الاتفاق خرج النبيُّ ﷺ والمسلمون ممن صُدَّ معه عن البيت، وسُمِّيَتْ هذه عمرة القضاء؛ لأن النبي ﷺ قاضى قريشاً عليها، أي: أنه اعتمر حسب الاتفاق بينه ﷺ وبين قريش، لا لأن عُمرة الحديبية فسدت وهذه قضاء لها.

وَعُمَرُهُ ﷺ أربع بالاتفاق: عمرة الحديبية، وعمرة القضاء، وعمرة الجعرانة عند عودته من حصار الطائف، وكُلّ هذه الثلاث كانت في شهر ذي القعدة، والعمرة الرابعة هي التي قرنها ﷺ مع حجه، فعلى حسب هذا الاتفاق تكون عمرة الحديبية تامة.

ولما علمت قريش بقدوم النبي ﷺ للعمرة –عمرة القضاء– خرجت عن مكة إلى رؤوس الجبال وتحدّثت قريش فيما بينها أنَّ محمداً ﷺ وأصحابه قد أضعفتهم حُمى يثرب ووقفت قريش بحيث تنظر إلى المسلمين، فلما دخل النبي ﷺ اضطبع بردائه –أي: أدخل الرداء تحت إبطه الأيمن وغطَّى به الأيسر وأخرج عضده اليمنى– ثم قال: ((رحم الله امرأً أراهم اليوم من نفسه قوةً))، ثم استلم الركن، وخرج يهرول، ويهرول أصحابه معه، حتى إذا واراه البيت من قريش وذلك حين يستلم الركن اليماني مشى حتى يستلم الركن الأسود، ثم يهرول كذلك في الثلاثة الطوافات الأول، ومشى في سائر الطوافات وعلى هذه الصفة فعل رسول الله ﷺ في حجة الوداع في أول طواف فقط، فمضت بذلك السُّنة، وفي اليوم الثالث سألتْ قريش النبي ﷺ أن يخرج من مكة

حسب الاتفاق بين الطرفين في صلح الحديبية، فخرج النبي ﷺ من مكة.

وتزوج النبيُّ ﷺ بعد إحلاله من العمرة بميمونة بنت الحارث الهلالية، وبنى بها بـ(سَرِف)(١) موضع عند التنعيم، وبهذا الموضع ماتت رحمة الله عليها، وقبرها في ذلك المكان معروف، عليه بناء وهو على جانب خط السيارات من مكة إلى المدينة، ولِتُراب قبرها رائحة زكيّة ينفح ذكاها إلى خارج البناء، هكذا وجدتُ عند زيارتي لها رحمة الله عليها.

وكانت هذه العمرة تصديقاً لرؤيا رسول الله ﷺ التي حدَّث بها أصحابه عند الخروج إلى الحديبية، وقد تحدَّث الله تعالى عن ذلك في آخرِ سورةِ الفتح، فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ [الفتح].

(١) تعرف حالياً باسم النوارية، وهي موضع بين التنعيم ووادي فاطمة شمال غرب مكة المكرمة على بعد ١٢كم منها. (الموسوعة).

غزوة مؤتة [جمادى الأولى/ ٨هـ]

كانت في جمادى الأولى، سنة ثمان من الهجرة.

بعث رسول الله ﷺ ثلاثة آلاف رجل من المسلمين واستعمل عليهم جعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فزيد بن حارثة، فإن أصيب فعبدالله بن رواحة(١)، فودَّعوا رسول الله ﷺ وودَّعهم، وودعهم المسلمون فمضوا حتى إذا بلغوا مكاناً من أرض الشام بلغهم أنَّ هِرَقْل قد نزل أرض البلقاء في مائة ألف، وانضم إليه مائة ألف من لخم وجذام والقين وبهراء وبلى -قبائل عربية- عند ذلك تحيَّر المسلمون في أمرهم، وجعلوا ينظرون فيما يعملون فقال بعضهم: نكتب إلى الرسول ﷺ بعدد عدوّنا، ثم يأمرنا بأمره، فشجعَ الناس عبداللهُ بن رواحة، ومما قال لهم: وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدِّين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة، فقال الناس: صدق -والله- ابن رواحة، فمضى الناس حتى إذا كانوا بتخوم البلقاء(٢) لقيتهم جموع هرقل من الروم والعرب، فالتقى الفريقان عند قرية يقال لها مؤتة، فتعبَّأ المسلمون للقتال واشتبك الجيشان وقاتل جعفر على فرسه حتى إذا اشتد القتال اقتحم عن فرسه وعقرها فقاتل راجلاً حتى قُتِل بعد أن قطعت يمينه ثم قطعت شماله، واحتضن اللواء بيمينه.

ثم أخذ اللواء زيد بن حارثة فقاتل حتى مزَّقته رماح القوم، ثم أخذ اللواء

---

(١) انظر أيضاً: تفسير القرآن للمنتصر الكتاني (٢٩١/ ٢)، تفسير الألوسي (١١/ ٢٢).

(٢) البلقاء: تقع في الأردن غرب العاصمة عمّان.

وغزوة مؤتة وقعت في بلدة تسمى مؤتة وهي اليوم ضمن لواء المزار الجنوبي تتبع محافظة الكرك في الأردن وتبعد عن محافظة الكرك ١٢كم، وتبعد عن العاصمة الأردنية عمان ١٤٠كم جنوباً. (من الموسوعة باختصار).

عبدالله بن رواحة فقاتل حتى قتل، وكان خالد بن الوليد قد أسلم في هذه السنة وكان حاضراً، فاصطلح المسلمون على أن يعطوا الراية خالداً فأخذها وجانب بالمسلمين وانحاز قليلاً قليلاً حتى انصرف بهم عن المواجهة، وكان النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقت المعركة على المنبر في المدينة المنورة يحكي ما يحدث في تلك المعركة فيقول: ((أخذ الراية جعفر فقاتل بها حتى قتل، ثم أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قتل))، ثم سكت صلى الله عليه وآله وسلم حتى تغيرت وجوه الأنصار لظنهم أن قد قصر عبدالله بن رواحة فيما وكل إليه ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: ((ثم أخذ الراية عبدالله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيداً))(١).

بعد ذلك دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بيت جعفر وقال لأسماء زوجة جعفر: ((ائتني ببني جعفر))، فأتته بهم وجعل يلثمهم ويشمهم وذرفت عيناه، وأخبرها بمصاب القوم، وأمر أهله بأن يصنعوا لآل جعفر طعاماً.

(١) قال الإمام الحجة مجدالدين بن محمد المؤيدي عليه السلام في كتاب لوامع الأنوار: وعند أهل البيت أن ترتيبهم في الأمارة هكذا: جعفر ثم زيد ثم عبدالله، روى أبو العباس الحسني في المصابيح عن محمد بن زيد بن علي بن الحسين: أنه كان على الناس يوم مؤتة جعفر بن أبي طالب. وروى أيضاً من طريق أخرى عن الإمام الأعظم زيد بن علي عليه السلام: أن جعفر بن أبي طالب لم يبعثه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في وجه قط إلا جعله على الناس.. إلى آخر البحث.

[فتح مكة رمضان/ سنة ٨ هـ]

كان فتح مكة أعظم انتصار للإسلام ورسول الإسلام ﷺ لأن أهل مكة -قريشاً- كانوا أكبر عدو للإسلام ونبي الإسلام، ولم يلقَ النبي ﷺ من أحد مثل ما لقي من قريش، فقد لقي منهم ﷺ في مكة قبل الهجرة من الأذى ما لا يوصف وعذبوا أصحابه الذين آمنوا به وصدقوه، وقتلوا كثيراً منهم بعدما أذاقوهم ألوان العذاب، منهم ياسر وسمية أَبَوَا عمار بن ياسر رضوان الله عليهم.

وبعد هجرة الرسول ﷺ والمسلمين إلى المدينة شمَّرت قريش لحربه ﷺ، فحاربته يوم بدر ثم يوم أُحُد ثم يوم الخندق، وهذه الثلاث المواجهات مع قريش هي أعظم المواجهات وأشدّها وأكبرها على المسلمين ونبيهم ﷺ.

وقد كانت قريش لشقاوتها شديدة الحقد والعداوة والحسد للنبي ﷺ مع ما في غرائزها من وفورة الكبر والتعاظم والعصبية وحمية الجاهلية، وقد كانت قريش في ذلك درجات، فكانت بنو أمية بقيادة أبي سفيان في الدرجة العليا، ويليها في ذلك بنو مخزوم بقيادة أبي جهل بن هشام، وقد جاء في التفاسير المأثورة أن المراد بالشجرة الملعونة في القرآن بنو أمية[١]، وقيل بنو أمية وبنو مخزوم، وتأتي قبائل قريش في الدرجة الثالثة بعد هاتين القبيلتين[٢].

لذلك كانت قريش أشدَّ أعداء نبي الإسلام ﷺ وأكبر وأقوى مَنْ وَقَفَ في وجه دعوته ﷺ بالسنان واللسان والجَنَان والأركان، فسعت في هلاك

---

(١) انظر: السيرة الحلبية (١/ ٤٤٨)، تاريخ الطبري (١٠/ ٥٨)، تاريخ الإسلام (٢١/ ١٨)، شرح نهج البلاغة (٢/ ١٢٦).

(٢) وفي مستدرك الحاكم حديث عن أبي سعيد بلفظ: ((إن أهل بيتي سيلقون من بعدي من أمتي قتلاً وتشريداً، وإن أشد قومنا لنا بغضاً بنو أمية وبنو المغيرة وبنو مخزوم)) ثم قال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

النبي ﷺ بكل جد، وأجلبت لحربه بخيلها ورَجِلها، وسلكت للوصول إلى ذلك كل سبيل، وأعملت في ذلك كل حيلة، وتحالفت مع اليهود، ومع ثقيف وغطفان وقبائل نجد، فخيّب الله تعالى أمل قريش وقطع رجاءها وضيع سعيها، وأعز الله تعالى نبيه ﷺ ودينه وأعلى كعبه واتسعت دائرة سلطانه وعظمت هيبته، فاضطرت قريش مع عظيم كبريائها إلى مصالحته يوم الحديبية، فتم الصلح بين الفريقين على شروطٍ قد سبقت، وكان بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة قد انضمّت في ذلك الصلح إلى قريش، وانضمت خزاعة إلى صف النبي ﷺ والمسلمين، فمضى على هذا الصلح ما يقارب السنتين لم يصدر من أي من الطرفين ما يخل بشرط من شروطه التي يعتبر الإخلال بأيٍّ منها نقضاً للصلح، ثم إنّ بني بكر عَدَتْ على خزاعة وهي غَارَّة فقتلت فيها، وأعانتهم قريش بالسلاح خفية.

فجاءت خزاعة تخبر النبي ﷺ بما فعلت قريش وقال شاعرهم عمرو بن سالم الخزاعي للنبي ﷺ وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس:

يـــا رب إني ناشـــدٌ محمـــدا حلـــف أبينـــا وأبيـــه الأتلـــدا

..إلى قوله: إن قريشـــاً أخلفـــوك الموعـــدا

ونقضـــوا ميثاقـــك المؤكّـــدا وجعلـــوا لي في كـــداء رصـــدا

هـــم بيَّتونـــا بـــالوتير هجـــدا وقتلونـــا ركعـــاً وســـجدا

فقال ﷺ: ((نُصِرْتَ يا عمرو بن سالم))، ثم خافت قريش مما فعلت من الإخلال بالصلح، فركب أبو سفيان وتوجه إلى النبي ﷺ ليشدّ العهد ويؤكّد الصلح ويهدئ الوضع، فوصل المدينة وكلم الرسول ﷺ فلم يرد عليه شيئاً، وكلم علياً فلم يجد عنده ما يريد، فكلم فاطمة فلم يجد ما يريد، فسأل عليّاً

بالرحم واستنصحه، فقال له عليٌّ عليه السلام: (والله لا أعلم لك شيئا ولكنك سيد بني كنانة، فقم فَأَجِرْ بين الناس ثم الحق بأرضك) فقال: وهل ينفعني ذلك، قال علي: (لا، ولكني لا أجد لك غير ذلك)، فمضى أبو سفيان وقال ذلك، ثم قفل راجعا إلى مكة.

[الخروج بالجيوش إلى مكة]

ثم تجهَّز رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لفتح مكة وأعدوا واستعدوا لفتحها وحشد جيوش المسلمين، ثم خرج بالجيوش إلى مكة وقال صلى الله عليه وآله وسلم: ((اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها)).

فكتب حاطب بن أبي بلتعة -وهو رجل من أهل بدر- إلى قريش يخبرهم بسير رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بجيوشه لفتح مكة وأعطى كتابه امرأة تسمى سارة وهي مولاة لبعض بني عبد المطلب، فأتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم الخبر من السماء بذلك، فأرسل النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أثرها علي بن أبي طالب عليه السلام والزبير بن العوام فأخذا منها ذلك الكتاب بعد التهديد والوعيد، فعادا بالكتاب إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقال صلى الله عليه وآله وسلم لحاطب: ((ما حملك على ما صنعت؟)) فقال حاطب: ما غيَّرتُ يا رسول الله ولا بدَّلْتُ، غير أن لي في مكة أهل وولد فأردت أن أتخذ عندهم معروفا يجازوني به في أهلي وولدي، فأنزل الله تعالى في ذلك سورة الممتحنة إلا قليلاً في آخرها: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ...**﴾ [الممتحنة:١].

ولقي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في طريقه ابن عمه أبا سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب، وابن عمته عبدالله بن أبي أمية بن المغيرة فأسلما، قال ابن هشام: ولقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الطريق أيضاً عمّه العباس بن عبدالمطلب مهاجراً بعياله،

وقد كان قبل ذلك مقيماً بمكة على سقاية الحاج، ورسول الله ﷺ عنه راض فيما ذكر ابن شهاب الزهري.اهـ

وقد كان ذلك الجيش عشرة آلاف رجل، فأيقن العباس أنه هلاك قريش فخرج العباس على بغلة رسول الله ﷺ لينذر أبا سفيان وقريشاً بالهلاك إن لم يسلموا، فرأى في طريقه أبا سفيان بن حرب سيد قريش فحذره بقطع رقبته إن لم يسلم، فحمله العباس على البغلة وأتى به النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: ((أما آن لك أبا سفيان أن تعلم أن لا إله إلا الله)) قال: بلى، ثم قال له ﷺ: ((أما آن لك أن تعلم أني رسول الله)) فقال أبو سفيان: ما أحلمك وأوصلك، أما هذه فإن في النفس منها شيئاً!! فقال له العباس: ويحك أسلم واشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله قبل أن تضرب عنقك، فشهد بذلك أبو سفيان وهو كاره، فقال العباس: يا رسول الله إن أبا سفيان يحبّ الفخر فاجعل له شيئا قال ﷺ: ((نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن)).

وأراد النبي ﷺ أن يري أبا سفيان قوة الإسلام فأمر العباس أن يحبس أبا سفيان عند مضيق جبل حتى تمرّ به تلك الجيوش، فمرت به تلك الجيوش وهو ينظر إليها وكلما مرَّت قبيلة قال: من هذه يا عباس؟ فيقول العباس هذه بنو سليم، فيقول أبو سفيان: ما لي ولسليم!! فمَرَّ به المهاجرون والأنصار وفيهم رسول الله ﷺ فقال: من هؤلاء يا عباس؟ فقال: رسول الله ﷺ والمهاجرون والأنصار، فقال: سبحان الله! ما لأحد بهؤلاء من طاقة، والله لقد أصبح مُلكُ ابن أخيك اليوم عظيماً، فقال العباس: ويحك يا أبا سفيان إنها النبوة..إلخ.

بنو جذيمة

أرسل النبي ﷺ خالد بن الوليد في أكثر من ثلاثمائة رجل إلى بني جذيمة يدعوهم إلى الإسلام، فدعوهم إلى الإسلام، فأسلموا، وأمرهم خالد بوضع السلاح فوضعوه، فجعل خالد يقتلهم ويأسرهم، ودفع إلى كل رجل من أصحابه أسيراً، ثم أمر خالد بعد ذلك أن يقتل كل رجل أسيره، فقتلوهم، وأبى بعض أصحابه مِنْ قَتْلِهم، منهم ابن عمر، فلما قدموا على النبي ﷺ أخبروه الخبر فاستاء وحزن، ورفع يديه إلى السماء وقال: ((اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد))[1] مرتين، ثم بعث النبي ﷺ علياً على الفور ليعطي ديات القتلى، ويعوض ما فات عليهم من أموالهم، ففعل علي ما أمره النبي ﷺ وبقيت عند علي فضلة من المال فأعطاها إياهم، وقال لهم: (وهذا المال لكم عما لا تعلمونه ولا يعلمه رسول الله ﷺ)، فلما أخبر النبي ﷺ بذلك استبشر وذهب عنه بعض الحزن.

والسبب في صنيع خالد هو ما يقال: إنه كان بينه وبينهم دماء في الجاهلية، فلاحت له الفرصة في هذا البعث فانتقم منهم، وهذه السنة أول جهاد لخالد بن الوليد في الإسلام، أما قبل ذلك فكانت حروبه كلها مع قريش ضد النبي ﷺ والمسلمين.

وقد شهد خالد بن الوليد قبل فتح مكة بعدة أشهر غزوة مؤتة غير أنه لم يقاتل ولم يسل سيفه في تلك المعركة ضد الروم، وإنما قام في تلك الغزوة بعد قتل جعفر وزيد وابن رواحة بقيادة الجيش الانهزامية، وحين أخبر النبي ﷺ بالانهزام قال: ((أنا فئتكم)) يعني أن ذلك الجيش وإن انسحب من المعركة فلا يعد ذنباً؛ لأنهم انحازوا إلى فئة.

---

(١) انظر عن القصة: سيرة ابن هشام (٢/ ٤٢٨) وغيرها، وعن حديث النبي ﷺ: مسند أحمد (١٠/ ٤٤٥)، صحيح ابن حبان (١١/ ٥٤) قال في هامشه: إسناده صحيح على شرط الشيخين، وأخرجه أحمد والبخاري والبيهقي والنسائي و..إلخ. (باختصار).

[غزوة حنين شوال سنة ٨ هـ]

ذكر الله تعالى غزوة حنين في القرآن الكريم فقال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ۝٢٥ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾...الآية [التوبة].

كان جيش المسلمين في غزوة حنين اثني عشر ألفاً منهم ألفان من الطلقاء (مسلمة الفتح) فأُعْجِبَ المسلمون بهذه الكثرة الكاثرة، وظنوا أنهم بسبب هذه الكثرة سيحققون ما شاءوا من الانتصارات، وأنهم سيبلغون بسببها ما يتمنَّوْنَه من الغلبة والسلطان، ونسوا أن نصر الله للمسلمين لم يكن بسبب الكثرة ولا بسبب القوة، حتى قال أبو بكر يومئذ: لن نغلب اليوم من قلة(١).

فركنوا إلى كثرتهم وقوّة عدتهم، ونسوا الالتجاء إلى الله والاستغاثة به والدعاء له، فوكلهم الله إلى ما ركنوا إليه من كثرتهم وقوتهم.

فلما وصل الجيش المعجب بكثرته إلى وادي حنين خرجت عليهم كمائن العدو؛ ففزعوا وانهارت قواهم من شدة الخوف وولّوا الأدبار هاربين لا يلوون على شيء، وتركوا نبيهم ﷺ في نفر من بني هاشم ومواليهم، منهم علي والعباس، فثبت النبي ﷺ والنفر الذين معه وأنزل الله عليهم السكينة، وأَمَدَّهم بجنود من عنده، وأعطاهم النصر والظفر، ولم ترجع بعض فلول المسلمين المنهزمين إلا بعد أن نصر الله نبيه ﷺ والنفر المؤمنين الذين ثبتوا معه، وقتل من المشركين في هذه الغزوة أعداد كثيرة، ثم ولوا الأدبار

(١) انظر مغازي الواقدي، السيرة الحلبية، طبقات ابن سعد، البداية والنهاية، تاريخ الإسلام للذهبي- في تعيين القائل.

هاربين، وتركوا نساءهم وأموالهم؛ فأخذها المسلمون غنيمة.

فقسم رسول الله ﷺ السبايا من نساء هوازن بين الغانمين وأعطى أبا سفيان مائة من الإبل وأعطى ابنيه يزيد ومعاوية كل واحد مائة، وهكذا صنع لعيون قريش ولآخرين من أهل القلوب المريضة ليتألَّفهم ﷺ وليداوي بذلك العطاء الوافر داء قلوبهم، وليدفن به أحقادهم وضغائن قلوبهم، وقال له ﷺ قائل حين رأى ما رأى من عطائه ﷺ: اعدل يا محمد، فقال ﷺ: ((ومن يعدل إذا لم أعدل))، ثم قال ﷺ بعدما أدبر الرجل كلاماً معناه: ((سيخرج من هذا أقوام يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية)).

ثم جاء إلى النبي ﷺ وفد هوازن يستعطفونه على رد ما أخذ من نسائهم وغنم من أموالهم فخيَّرهم بين النساء والأموال فاختاروا أن يرد عليهم النساء، فردّها المسلمون بعد أن استطاب النبي ﷺ نفوسهم.

[مكانة قريش]

لقريش مكانة مرموقة عند قبائل العرب في الجاهلية والإسلام، فكل قبائل العرب تعترف لقريش بتقدمها في الفضل والشرف على من سواها من القبائل بسبب ما اختص الله تعالى قريشاً من النعم.

وقد ذكَّر الله تعالى قريشاً بتلك النعم في كتابه الكريم فذكر تعالى صنيعه بأصحاب الفيل فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۝١ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۝٢ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ۝٥﴾ [الفيل].

وذكَّرهم تعالى بنعمة الأمن في أسفارهم إلى اليمن وإلى الشام في حين أن غيرهم خائف، فقال سبحانه وتعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝٤﴾ [قريش].

وذكَّرهم تعالى بنعمة الأمن في وطنهم فقال جل شأنه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ [العنكبوت:٦٧]، وأسكنهم الله تعالى أشرف البقاع على وجه الأرض وأفضلها ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ۝٩٦ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ ءَامِنًا﴾ [آل عمران]، ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝٢٥﴾ [الحج].

ولعظمة موطن قريش أقسم الله جل وعلى به فقال: ﴿لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝١ وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ ۝٢﴾ [البلد]، ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ۝٣﴾ [التين].

وقد حكى الله سبحانه وتعالى دعاء إبراهيم عليه السلام لأهل ذلك البلد الحرام فقال جل شأنه: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ

الثَّمَرَاتِ﴾ [إبراهيم:٣٧].

وحكى تعالى دعاءه للبلد فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا...﴾ [البقرة:١٢٦].

ثم زادت رفعتها وشرفها حين اختار الله منها خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ؛ لذلك كانت قريش القبلة التي كانت تتوجَّه إليها أبصار قبائل العرب، والأسوة التي ينبغي أن تُتَّبع؛ فإن القبائل العربية لم تدخل في الإسلام إلا حين رأت قريشاً قد أسلمت، وكانوا من قبل ينظرون إليها كيف تصنع ليهتدوا بها في ذلك، فلما أسلمت قريش أسلمت قبائل العرب.

ولمكانة قريش جاء في الرواية عن النبي ﷺ أنه قال: ((الناس تبع لقريش صالحهم لصالحهم وطالحهم لطالحهم)) أو كما قال.

[أثر فتح مكة على إسلام جزيرة العرب]

أعلنت قبائل الجزيرة العربية إسلامها بعد فتح مكة وإسلام قريش، وبعثت بوفودها إلى النبي ﷺ ليخبروا النبي ﷺ بإسلام من وراءهم، وكان الأمر كما قال تعالى في سورة النصر: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾.

ويمكننا أن نقول: إن فتح مكة وإسلام قريش كان سبباً في إسلام قبائل الجزيرة العربية، وأن الداخلين في الإسلام بعد الفتح كانوا أكثر بكثير من الذين كانوا قد دخلوا في الإسلام مما قبل الفتح.

وقد كانت قبائل الجزيرة ترى في قريش القدوة والإسوة، فكانت تنظر إلى قريش؛ فلما دخلت قريش في الإسلام دخلوا فيه.

هذا، وقد آذنت هذه السورة بانتهاء دور النبوة بدخول الناس في دين الله أفواجاً، فإذا حصل ذلك ارتفع الوحي وانقطعت النبوة بموت النبي ﷺ.

غزوة تبوك رجب سنة ٩

سبب الغزوة:

قال الله تعالى في سورة التوبة: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلاَ بِٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرُ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ...﴾ إلى آخر الآيات الثمان، وآخرها آية (٣٥) من سورة التوبة:

أمر الله تعالى في هذه الآيات بقتال أهل الكتاب وذلك أن الجزيرة العربية كلها تقريباً أصبحت بلداً إسلامياً وأهلها مسلمون، فلم يبق أي خطر على دولة الإسلام من جنوب الجزيرة ولا من شرقها ولا من غربها، فهي محاطة من هذه الجهات الثلاث بالبحار.

أما من الجهة الشمالية فالخطر حاضر يتمثَّل في دولة الروم والممالك التابعة لها، وكلهم نصارى أهل كتاب، وقد بين الله تعالى السبب والحكمة التي دعت إلى الأمر بهذه الغزوة في قوله تعالى في هذه الآيات: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾﴾ [التوبة]، فبيّن الله تعالى لنبيه وللمسلمين أن النصارى قد صمَّموا وأرادوا ولا زالوا مصممين وعازمين على محو دين الإسلام وإطفاء نوره، فاقتضى الحال درء ذلك الخطر الكبير، ودمغه في مكانه؛ فأنزل الله تعالى الأمر بغزو ذلك الخطر وحتم على المسلمين النفور إلى عدوهم المتربص بهم خفافاً وثقالاً، قال تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.. الآية [التوبة:٤١]، ويظهر أنه كان يخرج للغزو مع النبي ﷺ قبل هذه الغزوة من

خَفَّ فأوجب الله تعالىٰ النفير في هذه الغزوة علىٰ الجميع من خف ومن ثقل للحاجة فيها إلىٰ الكثير من المقاتلين، ولم يعذر الله أحداً من المسلمين إلا أهل الأعذار في قوله تعالىٰ فيما نزل من الآيات في شأن هذه الغزوة: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلاَ عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلاَ عَلَى ٱلَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٢﴾ وَلاَ عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَناً أَلاَّ يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [التوبة].

[ساعة العسرة]

قال تعالىٰ: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ تَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة]، استعظم فريق من المهاجرين والأنصار هذه الغزوة وثقلت عليهم وحدثتهم أنفسهم بالقعود عن الغزوة وأوشكوا علىٰ التصميم علىٰ ترك الغزوة إلا أن الله تعالىٰ تداركهم بلطفه وتوفيقه فخرجوا للغزو مع نبيهم ﷺ وفازوا برضوان الله وفضله.

وقد كان السبب في ثقلها عليهم:

- شدّة الحر فقد صادف الخروج للغزوة الوقت الذي يظهر فيه أوائل نضوج التمر، وهو أشد أوقات السنة حرارة: ﴿لاَ تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ﴾ [التوبة:٨٢].
- بعد المسافة فتبوك تبعد عن المدينة أكثر من ألف كيلو: ﴿بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾ [التوبة:٤٢].
- قلّة الزاد اللازم للسفر فزراعة أهل المدينة التمر وغناهم فيه، وحضرت الغزوة قبل موعد الجذاذ للتمر.

- قلّة المركوب فكانت الإبل التي تقلّهم وأمتعتهم قليلة: ﴿لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [التوبة:٩٣].
- الخوف من المجاعة والظمأ في سفر الغزوة، مع التعب الطويل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلاَ يَطَئُونَ مَوْطِئاً يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ....﴾ [التوبة:١٢١].

[تميز المؤمن الصادق من المنافق]

ولعظم التكليف بهذه الغزوة لم يَنْقَدْ ويمتثل ويخرج إلا أهل الإيمان الصادق أما المنافقون فلم ينقادوا ولم يمتثلوا وعصوا أمر الله تعالى وأمر رسوله ﷺ ورضوا بأن يقعدوا مع الخوالف وأظهروا بألسنتهم ما كانوا يخفونه من الكفر في قلوبهم، وقد حكى الله تعالى أخبارهم في سورة التوبة.

وقد كان أكثر المنافقين أهل ثراء ومال ورزق واسع فقبضوا أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله. وقد افتضح المنافقون في هذه الغزوة وتكشف نفاقهم وظهروا على الساحة ظهوراً لا خفاء فيه، وتميزوا بنفاقهم عن المؤمنين الصادقين.

وقد كانت جماعات وأفراد من المنافقين استأذنوا رسول الله ﷺ قبل خروجه لسفر هذه الغزوة في القعود لأعذار مزيفة فأذن لهم، وقد كان النبي ﷺ لكرم أخلاقه لا يردُّ أحداً إلا في معصية الله، فأنزل الله تعالى على نبيه ﷺ فيما فعل فقال جل شأنه: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة]، قدم الله تعالى العفو عن نبيه ﷺ قبل العتاب لئلا يصدم نبيه ﷺ بالعتاب فينفطر قلبه، ثم أخبر الله تعالى نبيه أن أولئك الذين استأذنوه في القعود مع الخالفين منافقون غير

مؤمنين بالله واليوم الآخر؛ فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَسْتَْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [التوبة]، ثم قال عنهم: ﴿*وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً...﴾ [التوبة:٤٦].

[عاقبة من لم ينصر الدين]

تهدد الله تعالى المنافقين وضعاف الإيمان ووبخهم أشد التوبيخ لعدم استجابتهم لأمر الله تعالى ورسوله ﷺ لهم بالغزو مع الرسول ﷺ أي: غزوة تبوك، فقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ *إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا...﴾ [التوبة]، هذا النداء وهذا التهديد هو للذين آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، أما المؤمنون حقاً فقد استجابوا.

[كثرة المنافقين وضررهم]

وتشير هذه الآيات إلى أن المنافقين كانوا ذوي عدد كثير، وتأثير كبير، ولو كانوا قليلاً كما يروى لكان وجودهم في المجتمع الإسلامي كالعدم.

قد كان للمنافقين دور كبير في تخذيل المسلمين عن الجهاد مع نبيهم ﷺ كما حدث في يوم أحد فقد انفصل عبدالله بن أبيّ بثلث المسلمين وتركوا الجهاد يومئذ، وكما حدث يوم الخندق من أخبار المنافقين كما حكاه الله تعالى في سورة الأحزاب.

وفي هذه الغزوة «تبوك» كان المنافقون ذوي أعداد كثيرة بسبب دخول قريش في الإسلام ودخول قبائل العرب أيضاً في الإسلام، وقد كان دخول أكثرهم في الإسلام كرهاً لا عن اقتناع؛ لذلك كثر المنافقون واشتدت وطأتهم على النبي ﷺ وعلى المسلمين، فاقتضت حكمة الله تعالى أن يبتليهم بالجهاد في هذه الغزوة غزوة تبوك، وقد قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوٓاْ أَنْ يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ ۝١ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ۝٢﴾ [العنكبوت].

[خروج الجيش]

وخرج رسول الله ﷺ في ثلاثين ألفاً، وخَلَّف على أهله علي بن أبي طالب عليه السلام فتكلَّم المنافقون في استخلاف النبي ﷺ لعلي فقالوا: إنما تركه في المدينة كراهة له واستثقالاً لمصاحبته؛ فلحق علي النبي ﷺ وأخبره بقول المنافقين ورغبته في مصاحبته؛ فطيَّب النبي ﷺ نفس علي عليه السلام وقال له: ((أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي))[1] فرضي علي عليه السلام وطابت نفسه ورجع المدينة.

---

(١) قال الإمام الحجة مجدالدين بن محمد بن منصور المؤيدي عليه السلام في لوامع الأنوار في ذكر حديث المنزلة: هذا، وقد نَزَّل الله تعالى سيد الوصيين، وأخا سيد النبيين، من ابن عمه سيد المرسلين، - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - بمنزلة نفسه كما نطق به الذكر المبين، وبمنزلة هارون من موسى، على لسان المصطفى، ﷺ، كما تواترت به الأخبار عند جميع المسلمين، وهو قوله - صَلَوَاْتُ الله عَلَيْه وعلى آله وسلامه -: ((أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)) هكذا رواه الإمام الأعظم زيد بن علي بن الحسين بن علي عن آبائه - عليهم السلام. وقال الإمام الهادي إلى الحق القويم، يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم - عليهم الصلاة والتسليم -: وفيه يقول ﷺ: ((علي مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي))، وفي ذلك دليل على أنه قد أوجب له ما كان يجب لهارون مع موسى، ما خلا النبوة؛ وهارون عليه السلام فقد كان يستحق مقام موسى، وكان شريكه في كل أمره، وكان أولى الناس بمقامه، إلى آخر كلامه. وآل محمد عليهم السلام من قَبْل الإمامين الأعظمين ومن بعدهما وما بينهما، مجمعون على =

[ثمار غزوة تبوك]

- كانت جيوش الروم في تبوك فلما سمعت بجيش العسرة بقيادة النبي صلى الله عليه وآله وسلم رحلت من تبوك وابتعدت عنها، ولما بلغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم تبوك لم يرَ جيش الروم، فخيَّم بجيشه هناك.
- وقد كان هناك ممالك صغار من العرب تابعة للروم، يظهر أن مهمتها حماية الروم من عوادي العرب، فبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعثاً على أكيدر دومة فأتوا به أسيراً مع مغانم كثيرة، ثم إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لم يؤاخذه وصالحه وكتب له بذلك كتاباً.

ثم أتى بعد ذلك صاحب أيلة وأهل جرباء وأذرح مستسلمين ومسالمين فصالحهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكتب لكل واحد منهم كتاب صلح وسلام.

- وقد أقام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وجيشه في تبوك بضع عشرة ليلة ثم رجع صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة هو وجيشه سالمين منصورين لم يلقهم مكروه

ذلك، محتجون بها هنالك. وأما سائر فرق الأمة، فقال الإمام الحجة، المنصور بالله عبدالله بن حمزة عليه السلام: فيه من الكتب المشهورة عند المخالفين أربعون إسناداً، من غير رواية الشيعة، وأهل البيت. انتهى. وقال الحاكم: هذا حديث المنزلة، الذي كان شيخنا أبو حازم الحافظ يقول: خرّجته بخمسة آلاف إسناد. انتهى. ورواه ابن أبي شيبة، ورواه في مسند أحمد بعشرة أسانيد، ومسلم من فوق سبع طرق، ورواه البخاري، في صحيحيهما، وأبو داود، والنسائي، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم صاحب المستدرك، والطبراني، والخطيب، والعُقَيلي، والشيرازي، وابن النجار. وعلى الجملة، الأمر كما قال الإمام الحجة، عبدالله بن حمزة عليه السلام: والخبر مما علم ضرورة، انتهى. قال السيد الإمام الحسين ابن الإمام عليه السلام في شرح الغاية بعد سياق رواياته من كتب المحدثين: واتفق الجميع على صحته، حتى صار ذلك إجماعاً منهم. قال الحاكم النيسابوري: هذا حديث دخل في حدّ التواتر. قال ابن الإمام: وقد رواه عدد كثير من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، منهم: علي، وعمر، وسعد بن أبي وقاص، وأبو هريرة، وابن عباس، وابن جعفر، ومعاوية، وجابر بن عبدالله، وأبو سعيد الخدري، والبراء بن عازب، ومالك بن الحويرث، وأم سلمة، وأسماء بنت عميس؛ وأخرجه ابن المغازلي في مناقبه عن سعد بن أبي وقاص من اثني عشر طريقاً، وعن أنس وابن عباس وابن مسعود، ومعاوية بن أبي سفيان. انتهى.

واستسلمت تلك الممالك الموالية للروم وأدت الجزية، وعظمت بسبب هذه الغزوة هيبة الإسلام وهيبة النبي ﷺ، وتلاشى ذلك الخطر الذي كان يستهدف إطفاء نور الإسلام.

- وتكشفت أسرار المنافقين وظهر نفاقهم وهتكت أستارهم.
- وبين الله تعالى أن الذين قعدوا ولم يخرجوا مع النبي ﷺ للغزو منافقون، ولم يستثن الله تعالى إلا أهل الأعذار.
- وعند رجوعه ﷺ من هذه الغزوة أمر بهدم مسجد الضرار فهدم.

[غزوات النبي ﷺ وسراياه]

١- سرية حمزة بن عبدالمطلب من ناحية العيص في (رمضان سنة١هـ) ومعه ثلاثون راكباً من المهاجرين، فلقيَ أبا جهل في ثلاثمائةٍ من أهل مكة، فحجز بينهما مجدي بن عمرو الجهني فلم يكن قتال.

٢- سرية عبيدة بن الحارث بن المطلب إلى ثنية المرة (رابغ) (شوال سنة ١هـ)، في ستين من المهاجرين، فلقي أبا سفيان بن حرب ومعه مائتان فكان بينهم الرمي، ولم يسلوا السيوف، ولم يصطفّوا لقتال، ورمى سعد بن أبي وقاص بسهم، فكان أول سهم رمي به في الإسلام، ثم انصرف الفريقان.

وقد اختلف في أول راية عقدها رسول الله ﷺ في الإسلام، فقيل: سرية حمزة، وقيل: سرية عبيدة.

٣- سرية سعد بن أبي وقاص في عشرين من المهاجرين لتعترض عيراً لقريش فيما بين مكة والمدينة (الخرار) في (ذي القعدة سنة ١هـ)، فوجدت العير قد مرَّت بالأمس.

٤- غزوة ودَّان (الأبواء) خرج رسول الله ﷺ في المهاجرين حتى بلغ الأبواء يعترض عيراً لقريش فلم يلق كيداً، ووادع ﷺ في هذه الغزوة مخشي بن عمرو الضمري وكان سيد قومه، وضمرة من بني كنانة على ألّا يغزو بني ضمرة ولا يغزوه، ولا يُكَثِّروا عليه جمعاً ولا يعينوا عدواً، وكُتِبَ بينه وبينهم في ذلك كتاب، وذلك في (صفر سنة اثنين هجرية).

٥- غزوة بواط من ناحية رضوى بين المدينة وينبع في (ربيع الأول سنة ٢هـ)، بقيادة الرسول ﷺ ومعه مائتان من أصحابه يعترض عيراً لقريش فيها أمية بن خلف الجمحي في مائة رجل من قريش، فبلغ النبي ﷺ بواط ولم يلق كيداً ورجع إلى المدينة.

٦- غزوة سفوان (بدر الأولى) في (ربيع الأول سنة ٢هـ)، خرج النبي ﷺ يطلب كرز بن جابر الفهري الذي أغار على سرح الأنعام في المدينة واستاقه فطلبه النبي ﷺ حتى بلغ واديا يقال له: سفوان من ناحية بدر فلم يلحقه، ورجع ﷺ إلى المدينة.

٧- وخرج النبي ﷺ في غزوة ذات العشيرة في (جمادى الآخرة سنة ٢هـ) ومعه مائتان يعترض عيراً لقريش فبلغ ذات العشيرة بناحية ينبع فوجد العير قد مضت منذ أيام إلى الشام، فرجع المدينة.

٨- سرية عبدالله بن جحش الأسدي إلى بطن نخلة قرب مكة في اثني عشر من المهاجرين ليرصد عيراً لقريش، فاشتبكوا مع أصحاب تجارة لقريش قادمين من الطائف، وذلك في آخر يومٍ من (رجب سنة ٢هـ) فغنموا العير وقتلوا عمرو بن الحضرمي وأسروا اثنين.

٩- غزوة بدر الكبرى في (رمضان سنة ٢هـ) وقد تقدم ذكرها.

١٠- سرية عمير بن عدي إلى عصماء بنت مروان في (رمضان سنة ٢هـ) التي كانت تحرّض على المسلمين بشعرها فقتلها.

١١- سرية سالم بن عمير إلى أبي عفك اليهودي في (شوال سنة ٢هـ) الذي كان يحرّض بشعره على المسلمين فقتله.

١٢- غزوة بني قينقاع في (شوال سنة ٢هـ).

١٣- غزوة السويق في (ذي الحجة سنة ٢هـ) خرج النبي ﷺ في ركبٍ من المسلمين لعلَّهم يلحقون أبا سفيان الذي جاء أطراف المدينة فقتل أنصارياً وغلامه وأحرق بيتاً وولَّى هارباً، وجعل أبو سفيان وأصحابه يتخففون في هربهم فيلقون السويق ولم يلحقهم رسول الله ﷺ.

١٤- غزوة بني سليم جنوب المدينة على رأس (ثلاثة وعشرين شهراً من الهجرة) لملاقاة جمعٍ من بني سليم وغطفان فلم يتفق ذلك.

١٥- محمد بن مسلمة الأنصاري نفَّذ مهمة قتل كعب بن الأشرف اليهودي في (ربيع الأول سنة ٣هـ).

١٦- غزوة ذي أمر في نجد في (ربيع الأول سنة ٣هـ)، خرج النبي ﷺ في أربعمائة وخمسين رجلاً يريد جماعة تجمّعوا يريدون الغزو على أطراف المدينة ولم يحصل قِتال.

١٧- غزوة بحران ناحية الفرع جنوب المدينة (ربيع الأول سنة ٣هـ)، وكانت بقيادة النبي ﷺ يريد جمعاً من بني سليم فتفرقوا ولم يحصل قتال.

١٨- سرية زيد بن حارثة إلى القَرَدة بنجد في (جمادى الآخرة سنة ٣هـ)، يعترض عيراً لقريش فتمكّن من العير وهرب أعيان القوم.

١٩- غزوة أحد في (١٥ شوال سنة ٣ للهجرة)، وقد مَرَّ ذكرها.

٢٠- خرج رسول الله ﷺ في (١٦ شوال سنة ٣هـ)، هو وكل المشاركين في غزوة أُحُد في طلب أبي سفيان ليرى أبو سفيان ومن معه أن بهم قوة، وأن ما أصابهم في أُحُد لم يوهنهم عن عدوهم، فبلغوا حمراء الأسد وانسحب أبو سفيان إلى مكة ولم يحصل مواجهة.

٢١- سرية أبي سلمة إلى ماء لبني أسد في (محرم سنة ٤هـ) في مائةٍ وخمسين رجلاً لتفريق جمع جُمع هناك ولم يحصل مواجهة.

٢٢- سرية عبدالله بن أنيس إلى عرنة قريب مكة لتفريق جمع جُمع هناك ولم يحصل مواجهة. [في: المحرم من السنة الرابعة للهجرة].

٢٣- سرية المنذر بن عمرو الساعدي ومعه سبعون من الأنصار يُسمّون القراء، وسبب ذلك أن عامر بن مالك بن جفر الكلابي أبو براء ملاعب الأسنة قال للنبى ﷺ: لو بعثت معى نفراً من أصحابك إلى قومى لرجوت أن يسلموا، فقال ﷺ: ((إني أخشى عليهم أهل نجد))، فقال عامر: أنا لهم جار فبعثهم النبى ﷺ؛ فلما بلغوا بئر معونة غدروا بهم وقتلوهم جميعاً رحمة الله عليهم. [في: صفر من السنة الرابعة للهجرة].

٢٤- وبعث النبي ﷺ ستة بقيادة مرثد بن أبي مرثد الغنوي مع رهط من قبيلتي عضل والقارة سألوا النبي ﷺ معلِّمين يعلّمونهم الإسلام، فخرجوا حتى إذا بلغوا الرجيع جنوب جدة غدروا بهم فقتلوا بعضاً وأسروا بعضاً. [في: صفر من السنة الرابعة للهجرة].

٢٥- غزوة بني النضير (ربيع أول سنة ٤هـ)، وقد تقدمت.

٢٦- غزوة بدر الثالثة في (ذي القعدة سنة ٤هـ)، خرج رسول الله ﷺ إلى بدرٍ حسب الموعد بين النبي ﷺ وبين أبي سفيان، فبقي فيها ﷺ ثمانية أيام ثم عاد إلى المدينة ولم يخرج أبو سفيان على حسب وعده يوم أُحُد.

٢٧- خرج النبي ﷺ في أربعمائةٍ من أصحابه إلى نجد يريد بعض قبائل غطفان في (محرم سنة ٥هـ)، ولم يحصل في هذه الغزوة مواجهة وسميت هذه الغزوة (ذات الرقاع)؛ لأنَّ المسلمين كانوا يلفُّون على أرجلهم الرقاع من ألم المشي.

٢٨- غزوة دومة الجندل (ربيع الأول سنة ٥هـ)، خرج فيها رسول الله ﷺ في ألفٍ من المسلمين حين بلغه أن بها جمعاً كثيراً يريدون الدنوّ من المدينة، فلما قرب النبي ﷺ منها تفرَّق ذلك الجمع فبعث في أثره السرايا في عدة اتجاهات ولم يلق أحدا.

٢٩- غزوة بني المصطلق في (شعبان سنة ٥هـ)،

٣٠- غزوة الخندق في (شوال سنة ٥ للهجرة)، وقد مرَّ ذكرها.

٣١- غزوة بني قريظة في ذي القعدة (سنة ٥ للهجرة).

٣٢- سرية محمد بن مسلمة الأنصاري إلى القرطاء في (عشرة محرم سنة ٦ للهجرة) في ثلاثين راكبا إلى القرطاء وهو بطن من بطون بني بكر بن كلاب.

٣٣- مقتل سلام بن أبي الحقيق من أهل خيبر بعد أن انقضى شأن غزوة الأحزاب وانتهى أمرُ بني قريظة في (رمضان سنة ٦هـ)، استأذنت الخزرج رسول الله ﷺ في قتله؛ لأنه السبب المباشر في تحريض المشركين على غزوة الأحزاب، فذهب خمسة منهم إلى خيبر ودخلوا داره ليلاً وتمكنوا من قتله جزاء تحريضه للأحزاب.

٣٤- غزوة بني لحيان في (ربيع الأول سنة ٦هـ)، سار النبي ﷺ بثمانين حتى وصل الرجيع حيث غَدرَ ناس من قبيلتي عضل والقارة بستة من المسلمين فقتلوهم، فلما وصل النبي ﷺ الرجيع فرَّ أبناء القبيلتين في رؤوس الجبال، فهبط النبيُّ ﷺ عسفان لتسمع قريشٌ أنه قد اقترب من مكة وليسمعوا بقوة المسلمين وجرأتهم.

٣٥- غزوة ذي قَرَدَ في (ربيع الأول سنة ٦هـ)، أغار عيينة بن حصن الفزاري في جماعة من غطفان على لقاح[١] لرسول الله ﷺ في الغابة من ضواحي المدينة، فاستنقذ المسلمون منها عشراً، وسار ﷺ في خمسمائةٍ من المسلمين حتى بلغ ذا قَرَد ثم عاد ﷺ.

---

(١)- جمع لقحة، أي: إبل ذوات لبن.

٣٦- سرية عكاشة بن محصن الأسدي في (ربيع الأول سنة ٦هـ)، إلى الغمر وهو ماء لبني أسد في أربعين رجلاً فعاد ولم يلق كيداً.

٣٧- سرية محمد بن مسلمة إلى ذي القصبة في (ربيع الآخر سنة ٦هـ)، فسار في عشرة نفر إلى بني ثعلبة فحملت عليهم الأعراب بالرماح فقتلوهم ووقع محمد بن مسلمة جريحاً، فمرَّ به رجلٌ من المسلمين فحمله إلى المدينة المنورة.

٣٨- سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى ذي القصة في (ربيع الآخر سنة ٦هـ)، بعثه رسول الله ﷺ في أربعين إلى بني ثعلبة وبني محارب؛ الذين قتلوا من كان في سرية محمد بن مسلمة ففرق أبو عبيدة شملهم.

(٣٩، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٣)- نفَّذ زيد بن حارثة خمس سرايا على التوالي:

٣٩- أولها إلى بني سليم بالجموم في (ربيع الآخر سنة ٦هـ).

٤٠- وثانيها في (جمادى الأولى سنة ٦هـ) إلى العيص.

٤١- وثالثها في (جمادى الآخرة سنة ٦هـ) إلى الطرف إلى بني ثعلبة.

٤٢- ورابعها إلى قبيلة حذام لتعرضها لدحية بن خليفة الكلبي في الطريق في (جمادى الآخرة سنة ٦هـ).

٤٣- وخامسها إلى وادي القرى لتأديب ناس من فزارة استلبوا تجارة للمسلمين في (رجب سنة ٦هـ).

٤٤- سرية عبد الرحمن بن عوف إلى دومة الجندل في شعبان سنة ٦هـ إلى قبيلة كلب، فأسلم الأصبغ بن عمرو الكلبي، وزوَّج عبد الرحمن ابنته تماضر وهي أم ابنة أبي سلمة.

٤٥- سرية علي بن أبي طالب إلى فدك في شعبان سنة ٦هـ، حيث اجتمع عدد

من بني سعد بن بكر يريدون أن يمدوا يهود خيبر، فسار إليهم علي في مائةٍ من المسلمين فهربوا، وعاد علي إلى المدينة ولم يكن مواجهة.

٤٦- ثم سرية أبي اليسر إلى رجل من بني هذيل هجا رسول الله ﷺ فضرب أبو اليسر رأسه.

٤٧- سرية عبدالله بن رواحة في ثلاثين رجلا إلى أسير بن زارم اليهودي بخيبر وهو الذي حرَّض غطفان على حرب الرسول ﷺ فقُتِلَ أسير ومن معه. وذلك في شوال سنة ست.

٤٨- سرية عمرو بن أمية الضمري ومعه مسلمة بن أسلم إلى مكة سنة ٦هـ إلى أبي سفيان لعلهما يصيبان منه غرّة فيقتلانه جزاءً على بعثه إلى المدينة من يقتل النبي ﷺ فعرفهما معاوية فعادا إلى المدينة.

٤٩- ثم سرية كرز بن جابر في شوال إلى ناحية قباء.

٥٠- ثم سرية عمر بن الخطاب إلى ناحية على أربعة أميال من مكة.

٥١- ثم سرية أبي بكر في سنة ٦.

٥٢- ثم سرية بشير بن سعد سنة ٦.

٥٣- ثم فتح الحديبية ذو القعدة سنة ٦.

٥٤- ثم غزوة خيبر محرم سنة ٧.

٥٥- ثم سرية غالب بن عبدالله الليثي إلى ناحية وراء بطن نحل في رمضان سنة ٧.

٥٦- ثم سرية ابن أبي العوجاء في ذي الحجة سنة ٧.

٥٧- ثم سرية غالب بن عبدالله إلى الكديد في صفر سنة ٨.

٥٨- ثم غزوة مؤتة في جمادى الأولى سنة ٨.

٥٩- ثم سرية عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل على عشرة أيام من المدينة في جمادى الأخرى سنة ٨.

٦٠- ثم سرية علي بن أبي طالب إلى ذات السلاسل وكان الفتح على يده وقتل منهم مائة وعشرين قتيلاً وقتل رئيسهم الحارث بن بشر.

٦١- ثم سرية الخبط أميرها أبو عبيدة سفيان سنة ٨.

٦٢- ثم فتح مكة في رمضان سنة ٨.

٦٣- ثم غزوة حنين في شوال سنة ٨.

٦٤- ثم غزوة تبوك في رجب سنة ٩.

وعلى الجملة فغزوات النبي ﷺ التي شهدها بنفسه سبع وعشرون غزوة وسراياه سبع وأربعون سرية وبعوثاته للزكاة اثنتا عشرة بعثة.

فضل نبينا محمد ﷺ على الأنبياء والرسل

الفضل ينقسم إلى قسمين:

١- كثرة الثواب، فمن كان أكثر ثواباً فهو أفضل.

٢- الفضل بالكرامات، فمن حظي من الله تعالى بأكثر وأعظم الكرامات فهو الأفضل.

فذاك هو ما نعرفه عن أسباب الفضل والتفضيل، وقد سبق نبينا محمد ﷺ الأنبياء والرسل في كلّ ذلك وإليك البيان:

أما كثرة الثواب فإنه ﷺ أكثر الأنبياء والرسل ثواباً وذلك -وإن كان عمره قصيراً- فإنه أكثر أتباعاً، وله ﷺ من الثواب والحسنات مثل ثوابهم وحسناتهم؛ لأنه ﷺ هو الذي سنّ لهم السنن وهداهم إلى الإسلام، وفي الحديث: ((من سنَّ سنة حسنة كان له أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة...)) الحديث.

وأما كثرة الكرامات وعظمها:

١-فلأنّ معجزته ﷺ الدالة على صدقه معجزة باقية إلى يوم القيامة، بخلاف معجزات من سبقه من الأنبياء فإنها لم تبقَ، ولا يخفى أن المعجزة الباقية بقاء التكليف أعظم من المعجزة التي ليست كذلك.

٢-فضيلة الإسراء من مكة إلى المسجد الأقصى، وفضيلة المعراج إلى السماء ثم إلى سدرة المنتهى.

٣-فضيلة تكليم الله تعالى وتقدس له ﷺ عند سدرة المنتهى نطق بذلك القرآن في سورة النجم.

٤-أرسله الله تعالى إلى عموم المكلفين، وكان النبي قبله يرسله الله إلى قومه خاصة، نطق بذلك القرآن الكريم.

٥-أُحِلَّت له المغانم ولم تحلّ لنبي قبله ﷺ.

٦-نُصِرَ بالرعب على مسيرة شهر.

٧-تُبْعَثُ أُمَّتُه يوم القيامة غراً محجلين من آثار الوضوء، يُعْرَفون بذلك يوم القيامة من بين الأمم.

٨-أعطاه الله تعالى الشفاعة والوسيلة والمقام المحمود.

٩-أعطاه الله تعالى أن لا يعذب أمته بمثل عذاب الأمم السابقة.

١٠-جعل الله تعالى أمته خير أمة أخرجت للناس.

١١-بعثه الله تعالى بالحنيفية السمحة لا إصر فيها ولا أغلال.

١٢-جعل الله تعالى في أمته من يجدد لها دينها إلى يوم القيامة فلا يزال دينه ﷺ حياً جديداً إلى يوم القيامة.

١٣-أعطاه الله تعالى يوم الجمعة وليلة القدر التي هي خير من ألف شهر.

١٤-جعله الله تعالى خاتم النبيين صلوات الله عليه وعلى آله وعليهم وسلامه: ﴿وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب٤٥].

١٥-((أنا سيِّد ولد آدم ولا فخر)).

١٦ -((آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة)).

١٧-جعل الله تعالى وَصِيَّه خير الأوصياء.

١٨-وجعل الله ابنته سيّدة نساء العالمين.

١٩-وجعل تعالى وَلَدَي فاطمة سيدَي شباب أهل الجنة.

٢٠-وجعل الله تعالى الحق والهدى والعلم والحكمة في ذراريهما إلى يوم القيامة، لا يفارقون الكتاب ولا يفارقهم، وجعل تعالى فيهم خلافة النبوة إلى يوم

القيامة، وآخرهم المهدي الذي سيملأ الدنيا عدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

٢١-أمر الله تعالى بالصلاة عليه في فرائض الصلوات ونوافلها، ثم كلما ذكر صلوات عليه وسلامه وعلى آله، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب] وعلّم النبي ﷺ المسلمين كيف يقولون، فقال ﷺ: ((قولوا اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما صلّيت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد)).

٢٢-وأمر الله تعالى في الإسلام أن ينادى باسمه ﷺ خمس مرات في اليوم والليلة في جميع قرى المسلمين وأمصارهم، وأن يقرن اسمه ﷺ مع اسم ربه جل وعلا، فيقال في الأذان: أشهد أن لا إله إلا الله مرتين، وأشهد أن محمداً رسول الله مرتين.

٢٣-شريعته ﷺ خاتمة الشرائع لا تُنْسَخُ فهي باقية إلى يوم القيامة بخلاف شرائع الأنبياء السابقين فإنها قد نُسِخَت.

أهل بيت النبي ﷺ -وآل بيته- وآل النبي

بعض أهل السنة يفسّرون هذه العبارات بزوجات النبي ﷺ، وهذا تفسير باطل، والذي دعاهم إلى هذا التفسير هو عداوتهم لذرية النبي ﷺ، وإلا فقد روى مسلم(١) في الصحيح حديث الكساء الذي جمع فيه النبي ﷺ علياً وفاطمة والحسن والحسين ثم قال: ((اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم

(١) انظر: صحيح مسلم (٤/ ١٨٨٣ رقم: ٢٤٢٤) بلفظ: قَالَتْ عَائِشَةُ: خَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَدَاةً وَعَلَيْهِ مِرْطٌ مُرَحَّلٌ، مِنْ شَعْرٍ أَسْوَدَ، فَجَاءَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ فَأَدْخَلَهُ، ثُمَّ جَاءَ الْحُسَيْنُ فَدَخَلَ مَعَهُ، ثُمَّ جَاءَتْ فَاطِمَةُ فَأَدْخَلَهَا، ثُمَّ جَاءَ عَلِيٌّ فَأَدْخَلَهُ، ثُمَّ قَالَ: " {إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} [الأحزاب: ٣٣].

الرجس وطهرهم تطهيراً))...إلخ[١].

وبعد، فإن المعروف عموماً أنه إذا قيل: آل حسان، وآل جمعان، وآل حميد الدين، وآل الأحمر، وآل فلان، و...إلخ- فإن المفهوم من هذه الإطلاقات ونحوها هو الذراري لا الزوجات.

[أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام]

لعلي خصائص لم يشاركه فيها أحد على الإطلاق:

١- لقد كان لعلي بن أبي طالب مقام في نصرة النبي ﷺ لم يبلغه أحد سواه[٢].

---

(١) رواه في تفسير الطبري، وتفسير ابن كثير، وتفسير الثعالبي، وتفسير القرطبي، والثعلبي في الكشف والبيان، ورواه مسلم في صحيحه، والترمذي في سننه، والنسائي في سننه، وابن أبي شيبة في مصنفه، والحاكم في المستدرك، وأحمد في مسنده وفي الفضائل، والطبراني في الثلاثة، وابن حبان في صحيحه، والبزار في مسنده، وأبو يعلى في مسنده، وإسحاق بن راهويه في مسنده، والبيهقي في سننه، وابن أبي عاصم في السنة، والبغوي في شرح السنة، والبخاري في التاريخ الكبير، وأبو نعيم في المعرفة، والنسائي في الخصائص، والخطيب في تاريخ بغداد، وابن عساكر في تاريخ دمشق، والمحب الطبري في ذخائر العقبى، والزرندي في نظم درر السمطين، والطحاوي في مشكل الآثار، والمتقي الهندي في كنز العمال وعزاه إلى ابن النجار والقاضي عياض في الشفاء، وأبو داود في سننه مختصراً عند ذكر الحسن والحسين عليهما السلام عن ثوبان بلفظ: ((هؤلاء أهل بيتي))، ومثله روى الروياني في مسنده، وابن عدي في الكامل، وروى حديث الكساء العقيلي في الضعفاء وغيرهم، وقد روي خبر الكساء وما في بابه عن جماعة من الصحابة مرفوعاً منهم علي عليه السلام وفاطمة الزهراء عليها السلام والحسن السبط وجابر بن عبدالله وابن عباس والبراء بن عازب وعبدالله بن جعفر وواثلة بن الأسقع وأبو سعيد الخدري وأم سلمة وعائشة وأبو هريرة وعمر بن أبي سلمة وسعد بن أبي وقاص وثوبان وأنس بن مالك وأبو الحمراء وغيرهم.

(٢) منها سابقة إيمانه وهي قصر معنوي، ومنها مبيته عليه السلام على فراش النبي ﷺ ليلة الهجرة لا يخفى، موطناً نفسه على القتل والأسر، ومنها ما في بدر وفي أحد والخندق وخيبر وحنين وغيرها، وكلها مشهورة، وهي في أصعب الأحوال التي تظهر عندها القيمة الحقيقية للرجال.

٢- النبي صلى الله عليه وآله وسلم هو الذي تولّى تربيته منذ كان فطيماً إلى أن بلغ مبالغ الرجال، وصحب النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل البعثة إلى أن نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فآمن به وصدّقه واتبعه، ثم صحب النبي صلى الله عليه وآله وسلم منذ ذلك الحين إلى أن مات صلى الله عليه وآله وسلم.

٣- وكان له مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم مجالس خاصة حتى شكت عائشة من كثرة مجالسته وملازمته للنبي صلى الله عليه وآله وسلم في السفر والحضر.

٤- علي هو أقرب بني هاشم إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وذلك أن عبدالله بن عبدالمطلب وأبا طالب أخوان لأب وأم دون غيرهما من أولاد عبدالمطلب.

٥- تزوّج علي بفاطمة بنت الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أفضل نساء العالمين.

٦- ولد لعلي من فاطمة الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة(١).

٧- لفّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على علي وفاطمة والحسنين كساءً خيبرياً ثم قال: ((اللهم هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً)) فنزل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب]، روى ذلك محدِّثو أهل السنة والجماعة، منهم مسلم في صحيحه.

---

(١) جاء ذلك في حديث متواتر فقد روى ابن ماجه في سننه عن ابن عمر مرفوعاً: ((الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة وأبوهما خير منهما)) ورواه النسائي في سننه عن أبي سعيد وحذيفة وأبي هريرة، ورواه الترمذي في سننه عن أبي سعيد وقال: حسن صحيح، ورواه الحاكم في المستدرك عن ابن مسعود وصححه وعن ابن عمر وحذيفة، ورواه الطبراني في الكبير عن قرة بن إياس وعن مالك بن الحويرث وعن جابر وعن عمر بن الخطاب، وفي الأوسط عن البراء وعن أسامة وعن علي الهلالي، ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق عن علي عليه السلام وعن الحسن السبط وعن أنس وابن عباس وبريدة وأبي رمثة، ورواه الآجري في الشريعة عن مسلم بن يسار، ورواه المحب الطبري في ذخائر العقبى عن أبي بكر، ورواه ابن حبان في صحيحه، وأحمد بن حنبل في مسنده وغيرهم.

٨- ورد في علي وفاطمة والحسنين وذراريهما حديث الثقلين المجمع على صحته، وهو في مسلم وغيره من صحاح أهل السنة: ((إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي...إلخ))(١).

٩- جاء في علي حديث المنزلة المجمع على صحته: ((علي مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي)) رواه البخاري ومسلم وغيرهما(٢).

١٠- جاء في علي حديث الراية يوم خيبر: ((لأبعثنّ بالراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبّه الله ورسوله...الحديث)). صحيح البخاري(٣) وغيره.

---

(١) حديث الثقلين متواتر مجمع على صحته، رواه الجم الغفير عن الجم الغفير، قال ابن حجر في صواعقه: اعلم أن لحديث التمسك بذلك طرقاً كثيرة وردت عن نيف وعشرين صحابياً. هذا، وممن ورد عنه من الصحابة: أمير المؤمنين عليه السلام، وجابر بن عبدالله، وأبو سعيد الخدري، وأبو ذر، وحذيفة بن أسيد، وزيد بن ثابت، وزيد بن أرقم هؤلاء رواته المشهورون، وعن جبير بن مطعم [السنة لابن أبي عاصم] وأم سلمة [سمط النجوم العوالي] وأبي هريرة [كشف الأستار] ونبيط بن شريط [نسخة نبيط بن شريط]، وعبدالله بن حنطب [مجمع الزوائد] وضمرة الأسلمي، وعامر بن ليلى بن ضمرة، وأم هاني، وخزيمة بن ثابت، وسهل بن سعد، وعدي بن حاتم، وعقبة بن عامر، وأبي أيوب الأنصاري، وأبي شريح الخزاعي، وأبي قدامة الأنصاري، وأبي ليلى، وابي الهيثم بن التيهان، وأبي رافع [الولاية لابن عقدة- الاعتصام للإمام القاسم]، فاطمة الزهراء عليها السلام [الولاية لابن عقدة] ابن عباس [الحدائق الوردية] سعد بن أبي وقاص، وابن عمر [تاريخ اليعقوبي] وغيرهم. هذا، وممن رواه من المحدثين المخالفين مسلم في صحيحه والترمذي في سننه والنسائي في سننه وأحمد في مسنده والطبراني في الثلاثة وابن أبي شيبة في مصنفه وغيرهم. انظر لوامع الأنوار للإمام الحجة مجدالدين بن محمد المؤيدي عليه السلام.

(٢) صحيح البخاري (٥/ ١٩ رقم ٣٧٠٦)، صحيح مسلم (٤/ ١٨٧٠ رقم ٢٤٠٤) ولهما فيه طريقان، وانظر: سنن ابن ماجه (١/ ٤٢ رقم ١١٥)، مسند أبي داود (١/ ١٦٧ رقم ٢٠٢)، مسند أحمد (٢٣/ ٩ رقم ١٤٦٣٨)، وغيرها كثير. وانظر تخريجه كاملاً في كتاب لوامع الأنوار للإمام الحجة مجدالدين بن محمد المؤيدي عليه السلام.

(٣) صحيح البخاري (٥/ ١٣٤ رقم: ٤٢١٠) وانظر: صحيح مسلم (٢/ ١٤٣٣ رقم ١٨٠٧)، سنن ابن ماجه (١/ ٤٣ رقم ١١٧)، مسند أحمد (٢/ ١٦٨ رقم: ٧٧٨)، المستدرك على =

١١- جاء في علي وفاطمة والحسن والحسين وذراريهما: ((قولوا: اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد)). صحيح البخاري[١] وغيره.

١٢- جاء في علي حديث الغدير المتواتر المعلوم الذي رواه أهل السنة وغيرهم: ((ألست أولى بكم من أنفسكم؟)) قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ((فمن كنت مولاه فعلي مولاه...)) الحديث[٢].

- وعلى الجملة فلم يزل النبي صلى الله عليه وآله وسلم يشيد بفضل علي وأهل بيته عليهم السلام منذ بعثته صلى الله عليه وآله وسلم إلى حين وفاته صلوات الله عليه وآله وسلم، وكتب أهل السنة والجماعة -العدوّ التأريخي لعلي وأهل البيت- مشحونة بفضائل علي وأهل البيت[٣].

الصحيحين (٣/ ٤٠ رقم: ٤٣٤٢)، وغيرها كثير. وانظر تخريجه كاملاً في كتاب لوامع الأنوار للإمام الحجة مجدالدين بن محمد المؤيدي عليه السلام.

(١) صحيح البخاري (٤/ ١٤٦ رقم: ٣٣٧٠)، وانظر: صحيح مسلم (١/ ٣٠٥ رقم: ٤٠٥)، صحيح ابن خزيمة (١/ ٣٥١ رقم ٧١١)، صحيح ابن حبان (٣/ ١٩٣ رقم٩١٢)، وغيرها كثير.

(٢) فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (٢/ ٥٨٥ رقم٩٩١) (٢/ ٥٨٦ رقم٩٩٢)، (٢/ ٥٩٦ رقم ١٠١٦)، السنة لابن أبي عاصم (باب من كنت مولاه فعلي مولاه (٢/ ٦٠٤) الأرقام (١٣٥٤إلى ١٣٧٦) بزيادة بقية الحديث في بعضها، وكذلك في المستدرك على الصحيحين وغيره بطرق كثيرة. وانظر تخريجه كاملاً في كتاب لوامع الأنوار للإمام الحجة مجدالدين بن محمد المؤيدي عليه السلام.

(٣) انظر كتاب لوامع الأنوار.

شخصيات بارزة على عهد الرسول ﷺ

عمار بن ياسر

نوَّه الرسول ﷺ بفضل عمار بن ياسر كما في الحديث المتواتر[١] الذي رواه البخاري[٢]: ((ويح عمار تقتله الفئة الباغية، يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار))[٣]، وروى المحدّثون وأهل السير حديث: ((صبراً آل ياسر فإن موعدكم الجنة))[٤]، وفي حديث: ((عمار جلدة ما بين عيني وأنفي))[٥].

في سيرة ابن هشام، قال عمار بن ياسر وهو يعمل في مسجد النبي ﷺ وقد أثقلوه بحمل اللبن: قتلوني يا رسول الله، قالت أم سلمة: فرأيت رسول الله ﷺ ينفض وفرة عمار بيده -وكان رجلاً جعداً- وهو يقول: ((ويح ابن سميّة ليسوا بالذين يقتلونك، إنما تقتلك الفئة الباغية)).

وارتجز علي بن أبي طالب يومئذ:

لا يستوي من يعمر المساجدا يدأب فيها قائماً وقاعدا

ومن يرى عن التراب حائدا ...إلخ.

---

(١) قال ابن عبدالبر في الاستيعاب: وتواترت الآثار عن النبي ﷺ أنه قال: ((تقتل عماراً الفئة الباغية)).

(٢) ورد في موضعين من صحيح البخاري: (١/ ٩٧ رقم ٤٤٧)، و(٤/ ٢١ رقم ٢٨١٢).

(٣) رواه البخاري بهذا اللفظ عن أبي سعيد ورواه مسلم عن أم سلمة بلفظ: ((تقتل عماراً الفئة الباغية))، ورواه الترمذي في سننه عن أبي هريرة وصححه وقال: في الباب عن أم سلمة وعبدالله بن عمرو وأبي اليسر وحذيفة، ورواه ابن حبان في صحيحه، ورواه الطبراني في الكبير عن معاوية وعمرو بن العاص وعبدالله بن عمرو، ورواه أبو يعلى في معجمه عن عثمان وعن أبي رافع، ورواه الحاكم في المستدرك عن عمرو بن حزم وابن العاص وصححه على شرط الشيخين وعن حذيفة وصححه.

(٤) جامع الأحاديث (١٣/ ٤٦٣ رقم ١٣٥٣٦) وذكر أنه أخرجه: الحارث وأبو نعيم في الحلية.

(٥) أورده ابن هشام في السيرة (١/ ٤٧٦) نقلاً عن ابن إسحاق بلفظ: «ما لهم ولعمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار إن عماراً جلدة ما بين عيني وأنفي»

فأخذها عمار وجعل يرتجز بها، فظنّ عثمان بن عفان أنه إنما يعرّض به فقال: قد سمعتُ ما تقول منذ اليوم يا ابن سمية، والله إني لأراني سأعرض هذه العصا لأنفك، وفي يده عصا، قال: فغضب رسول الله ﷺ ثم قال: ((ما لهم ولعمار يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار، إن عماراً جِلدةٌ ما بين عيني وأنفي، فإذا بلغ ذلك من الرجل فلم يستبق فاجتنبوه))(١).

أبو ذر الغفاري

- أشاد النبي ﷺ بفضله فقال ﷺ: ((ما أقلَّت الغبراء ولا أظلَّت الخضراء على ذي لهجة أصدق من أبي ذر))(٢).
- رأى النبي ﷺ في مسيره في غزوة تبوك سواداً مقبلاً فقال ﷺ: ((كن أبا ذر))، فلما وصل أبو ذر قال له النبي ﷺ: ((إنك يا أبا ذر تموت وحدك، وتُدْفَنُ وحدك، وتُبْعَثُ وحدك، وسيشهد موتك وتجهيزك ودفنك جماعة من المؤمنين)) هذا معنى الحديث(٣).

---

(١) هكذا في سيرة ابن هشام (٢/ ١٠٢/ ط/ تحقيق طه عبدالرؤوف سعد) نقلاً باللفظ مع اختصار يسير فقط، وأيضاً لم يذكر في سيرة ابن هشام عثمان وإنما قال: «رجل»، ثم قال بعد ذلك: وقد سمى ابن إسحاق الرجل!! وابن هشام يرويها عن ابن إسحاق ولكنه حذف ذكر عثمان.اهـ وقد صرح بأنه عثمان في: تاريخ الخميس (١/ ٣٤٥)، السيرة الحلبية (٢/ ٩٩) رواية عن ابن إسحاق.

(٢) رواه الترمذي في سننه عن عبدالله بن عمرو ثم قال: وفي الباب عن أبي الدرداء وأبي ذر، وهذا حديث حسن، ورواه ابن ماجه في سننه، وابن حبان في صحيحه، وأحمد في مسنده، والدولابي في الكنى والأسماء عن جابر بن سمرة وغيره، وأبو نعيم في الحلية عن علي عليه السلام وفي معرفة الصحابة عن أبي هريرة وغيره، ورواه الحاكم في المستدرك عن أبي ذر وقال: صحيح على شرط مسلم ثم قال: وقد روي عن عبدالله بن عمرو وأبي الدرداء على شرط مسلم، ورواه أيضاً في المستدرك عن علي عليه السلام وقال: صحيح على شرط مسلم.

(٣) أورده أحمد بن حنبل في مسنده (٣٥/ ٣٠٠ رقم ٢١٣٧٣) بلفظ: وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ليموتن رجل منكم بفلاة من الأرض يشهده عصابة من المؤمنين)) وليس من =

سلمان الفارسي، والمقداد بن الأسود

اشتهر حديث: ((الجنة تشتاق إلى أربعة: علي وعمار وسلمان والمقداد))(١).

واشتهر حديث: ((سلمان منَّا أهل البيت))(٢).

سعد بن معاذ الأنصاري

اشتهر أن النبي ﷺ قال للمسلمين يوم تحكيم سعد في يهود بني قريظة وقد أقبل سعد: ((قوموا إلى سيّدكم))(٣).

وأخبر النبي ﷺ أن الملائكة نزلت لتشييع جنازته، وتحدث ﷺ بما أعطى الله سعداً من الثواب.

أولئك النفر أحد إلا وقد مات في قرية أو جماعة وإني أنا الذي أموت بفلاة والله ما كذبت ولا كذبت»، ومثله في صحيح ابن حبان (١٥/ ٥٧ رقم ٦٦٧٠)، والمستدرك على الصحيحين للحاكم (٣/ ٣٨٨)، وغيرها.

(١) رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق عن أنس بلفظ: ((إن الجنة تشتاق إلى أربعة: علي وعمار وسلمان والمقداد))، ورواه الطبراني في الكبير، وأبو نعيم في حلية الأولياء وغيرهم، ورواه الترمذي في سننه بدون ذكر المقداد، وأبو يعلى في مسنده، ورواه بلفظ: ((اشتاقت الجنة إلى أربعة: علي بن أبي طالب والمقداد وعمار وسلمان)) أبو نعيم في صفة الجنة، ورواه ابن عساكر عن حذيفة وذكر أبا ذر بدل المقداد، ورواه الحاكم في المستدرك بلفظ: ((اشتاقت الجنة إلى ثلاثة: علي وعمار وسلمان)) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(٢) المستدرك على الصحيحين (٣/ ٦٩١ رقم ٦٥٣٩)، المعجم الكبير للطبراني (٦/ ٢١٢ رقم ٦٠٤٠)، مجمع الزوائد (٦/ ١٣٠ رقم ١٠١٣٣).

(٣) رواه البخاري في صحيحه (٤: ٦٧) رقم (٣٠٤٣) ومسلم في صحيحه (٣: ١٣٨٨) رقم (١٧٦٨)، وأبو داود في سننه (٤: ٣٥٥) رقم (٥٢١٥)، والنسائي في سننه (٧: ٣٣٨) رقم (٨١٦٥)، وأحمد في مسنده (١٧: ٢٥٩) رقم (١١١٦٨)، والبيهقي في سننه (٦: ٩٥) رقم (١١٣١٤)، والطبراني في الكبير (٦: ٦) رقم (٥٣٢٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٧: ٣٧٩) رقم (٣٦٨٣٠)، والبغوي في شرح السنة، وابن حبان في صحيحه (١٥: ٤٩٦) رقم (٧٠٢٦)، وعبد بن حميد في مسنده (١: ٣٠٧) رقم (٩٩٥)، والطيالسي في مسنده (٣: ٦٨٤) رقم (٢٣٥٤) وغيرهم.

[دور المهاجرين والأنصار في نصرة الدين]

ينقسم صحابة الرسول ﷺ إلى قسمين: المهاجرون والأنصار:

١- **المهاجرون**: وهم الذين آمنوا وصدَّقُوا بمحمد ﷺ في مكة قبل الهجرة ثم هاجروا إلى المدينة.

٢- **والأنصار**: هم أهلُ المدينة الذين آمنوا بالنبيِّ ﷺ وصدَّقوه وآووه ونصروه.

كان للأنصار دور كبير في انتصارات الإسلام وقيام كيانه وقوة سلطانه، أمَّا المهاجرون فدورهم ضعيف على الجملة، ولولا دور عليٍّ الفعَّال وحمزةَ لم يكد يُذكر المهاجرون.

والدليلُ على ما ذكرنا: أن يوم أُحُد كان أَشدَّ يوم على المسلمين وأشد هجمةٍ واجهها المسلمون من المشركين، فكان مجموع قتلى المسلمين سبعين قتيلاً والجرحى كثير، منهم النبي ﷺ فقد أُصيب يومئذٍ بجراحات، فقُتِلَ من الأنصارِ ستة وستون قتيلاً، ولم يقتل من المهاجرين إلَّا أربعةٌ: حمزة، ومصعب بن عمير، ورجلٌ من بني مخزوم، وآخر حليفٌ لبني أُمية.

فيتبيَّن لنا بذلك أنَّ الأنصار هم أهل العناية في الحروب، وأنهم هم وقودُها دون المهاجرين، اللهم إلا عدّة قليلة منهم مثل: علي وحمزة وعبيدة ومصعب، بل إن أكثر المهاجرين وعظمائهم فرُّوا يوم أُحُد، وعلى رأسِ الفارين أبو بكر وعمر وعثمان.

والدليل على ذلك: أن الذين ثبتوا عند النبي ﷺ ولم يفرُّوا قُتِلوا أو جُرِحُوا فلم يسلم أحد من القتل أو الجراحة، فالنبي ﷺ أصيب بعدّة جراحات بالغة، وعلي أصيب بعدّة جراحات وكُسِرت إحدى زنديه، وقُتِل حمزة ومصعب والعشرات ممن ثبت، ولم يخرج أحد ممن ثبت في المعركة سالماً.

أما أبو بكر وعمر وعثمان وغيرهم ممن فرّ فسَلِمُوا من كل ذلك، وعلى الجملة فالخلفاء الثلاثة ومن كان على شاكلتهم من المهاجرين ليس لهم أي دور في جهاد المشركين ورفع راية الإسلام، فعلى هذا فقد ذهب بفضل الجهاد ورفع راية الإسلام وتوسيع دائرته غيرهم وهم من ذكرنا، وللأنصار بالإضافة إلى فضيلة الجهاد فضل إيواء النبي ﷺ وإيواء المهاجرين وحمايتهم والقيام بنفقاتهم حتى مدحهم الله تعالى على ذلك فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ....﴾ [الحشر:٩].

ونحن لا ننكر فضل المهاجرين وعلى رأسهم أبو بكر وعمر وعثمان فلهم فضل الإيمان والإسلام والهجرة إلا أنهم قد فاتهم فضل الجهاد والنصرة فذهب به غيرهم.

[فضل المهاجرين والأنصار]

المهاجرون في الجملة أفضل من الأنصار لأمور:

١- لأن اسم المهاجرين شمل الذين هاجروا من مكة إلى المدينة ومن جملتهم النبي ﷺ وعلي بن أبي طالب وحمزة وعبيدة بن الحارث ولا ريب أن جماعة منهم النبي ﷺ تكون أفضل جماعة.

٢- أن الله تعالى يقدم في القرآن ذكر المهاجرين على ذكر الأنصار.

٣- أن مهاجري قريش أقرب نسباً إلى النبي ﷺ فهم قبيلته وعشيرته.

وللأنصار فضائل غير تلك فضلهم فيها على فضل المهاجرين سوى النبي ﷺ وأهل بيته هي:

١- فضيلة الجهاد مع النبي ﷺ فقد كان لهم في ذلك الدور الأعظم، أما المهاجرون فلولا علي وحمزة لم يذكروا في هذا الباب.

٢- فضيلة الإنفاق في سبيل الله وعلى الفقراء من الصحابة ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴿٩﴾﴾ [الحشر].

٣- فضيلة إيواء المهاجرين ونصرتهم وقد نوه الله بذلك في القرآن.

[ظهور النفاق في المدينة ومكة]

ظهر النفاق أولاً في المدينة المنورة بعد الهجرة حين عمَّ الإسلام المدينة، وصار له كيان ودولة فدخل الكثير في الإسلام خوفاً على نفوسهم لا رغبة في الإسلام، ولا سيما بعد النصر المبين في غزوة بدر، وكانوا ذوي عدد كبير، بدليل ما روي أن عبدالله بن أبيّ في يوم أحد رجع بثلث الجيش المتوجّهين إلى أحد لقتال قريش.

ثم ظهر منافقون جدد من أهل مكة وهم الذين امتنعوا عن المهاجرة إلى النبي ﷺ في المدينة، وقد تحدث الله تعالى عنهم في سورة النساء.

وأخيراً دخلت قريش في الإسلام يوم فتح مكة كرهاً فاضطرّ الكثير منهم إلى النفاق، وهكذا اضطرّ الكثير من غير قريش للنفاق فأظهروا الإسلام خوفاً من قوّة الإسلام وأسرّوا الكفر، وقد كان النبي ﷺ يتألّف أعيان أولئك وذوي الرأي فيهم ليسلم شرّهم فكان يعطيهم سهماً من الزكاة ويختصهم بعطايا من الغنائم كما فعل يوم حنين حين أعطى أبا سفيان مائة من الإبل وابنه يزيد مائة وابنه معاوية مائة وهكذا أعطا غيرهم من أعيان قريش وأعيان غيرهم من القبائل.

[أنواع المنافقين]

والمنافقون بشكل عام أنواع:

النوع الأول: من ظهر نفاقه وكيده للإسلام والمسلمين وهم عبدالله بن أبيّ وأتباعه، وقد كانوا ذوي عدد كثير، وكانوا منتشرين في المدينة بين المسلمين مخالطين

لهم، يحضرون مجالس النبي ﷺ ويستمعون لحديثه، ويشاركونه في الرأي والمشورة، وربما خرج الكثير منهم مع النبي ﷺ في الغزو.

وكانوا على طول عهد النبي ﷺ في سعي متواصل لكيد النبي ﷺ وكيد الإسلام والمسلمين، وقد نزل فيهم قرآن كثير من ذلك سورة المنافقون: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ۝١﴾ [المنافقون]...إلى آخر السورة، وفيهم نزل قوله تعالى في أول سورة البقرة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾ [البقرة]..إلى آخر الآيات الثلاث عشرة من سورة البقرة، ونزل فيهم آيات في سورة الأحزاب أولها قوله تعالى: ﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢﴾ [الأحزاب]..إلى آخر الآيات، والقرآن مملوء من ذكر المنافقين وذكر أعمالهم الذميمة.

النوع الثاني: هم منافقون من أهل مكة قد كانوا آمنوا بالنبي ﷺ في مكة قبل الهجرة؛ فلما أمر الله تعالى نبيّه ﷺ والمسلمين بالهجرة إلى المدينة هاجروا وبقي كثير في مكة لم يستجيبوا لأمر الله ورسوله ﷺ بالهجرة، ونزلت في هذا النوع آيات في سورة النساء، ونفاق هؤلاء نفاق ظاهر إلا أن فسادهم أقلّ من فساد منافقي المدينة بسبب بعدهم عن عاصمة الإسلام.

النوع الثالث: منافقون لم يظهر نفاقهم ولم يظهر شيء من أعمالهم التي يستدلّ بها على نفاقهم وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ۝٢٩ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ۝٣٠﴾ [محمد]، وهذا النوع من المنافقين لم يعرفوا لعامّة المسلمين، ولعلّ النبي ﷺ هو الذي اختصّ بمعرفتهم بزكاء فطرته دون غيره من المسلمين.

النوع الرابع: لم يعرفهم النبي ﷺ ولا غيره من المسلمين بل الله تعالى وحده هو الذي اختصّ بمعرفتهم، وهذا النوع من المنافقين كانوا على درجات عالية من الذكاء والمكر بحيث إن النبي ﷺ هو أزكى البشر عقلاً لم يتمكّن بفطنته من التعرّف عليهم وفي هذا النوع يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ...﴾ الآية [التوبة:١٠١].

[نسبة المنافقين بين الصحابة]

الذي يظهر أن نسبة المنافقين بين الصحابة في العصر النبوي كانت كبيرة بدليل:

- أن عبد الله بن أُبَيّ رجع يوم أحد بثلث الجيش، ولم يذهب مع النبي ﷺ إلى أحد إلا ثلثا ذلك الجيش.
- أجمعت أهل السنة والشيعة على صحّة حديث: ((أنه لا يحب علياً إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق))(١)، وذلك يكشف لمن عرف سير الصحابة بعد

(١) أورد رواته وألفاظه الإمام الحجة مجدالدين بن محمد المؤيدي عليه السلام في كتاب لوامع الأنوار (٤/ ٢٩٣/ ط٥) ومن ذلك قوله: «وأخرج الإمام الناصر عليه السلام فيه بسنده، عن علي عليه السلام أنه قال: «قضي فانقضى، إنه لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق» قال الحسين بن القاسم، والإمام محمد بن عبدالله الوزير، والسيوطي، والمقبلي، حديث: (لا يحبني إلاَّ مؤمن، ولا يبغضني إلاَّ منافق)، أخرجه جماعة، منهم: مسلم، وأحمد، والحميدي، وابن أبي شيبة، والترمذي، والنسائي، وابن عدي، وابن حبان، وأبو نعيم، وابن أبي عاصم؛ عن علي عليه السلام.
وحديث علي عليه السلام: والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، إنه لعهد النبي الأمي إلي، أنه لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق؛ أخرجه محمد بن سليمان الكوفي بسنده إلى زِرٍّ بن حُبَيْش عن علي عليه السلام، وأخرجه أحمد عنه من طريقين، وأخرجه النسائي عن زر من ثلاث طرق، ومسلم، والترمذي.
قال الإمام محمد بن عبدالله الوزير: وهذا الحديث مشهور، بل متواتر معنى، وله ألفاظ وسياقات، وممن أخرجه: البيهقي، والديلمي، وأبو الشيخ، والكرخي، والرافعي، والخطيب، والطبراني، والحاكم في المستدرك، وابن عبدالبر، وابن المغازلي، وغيرهم؛ كل منهم من رواية صحابي، ومن طريق واحدة فأكثر؛ وهذه الأحاديث في أهل البيت عليهم السلام فهي كثيرة الموارد في أن من أبغضهم فهو منافق بألفاظ؛ والحمد لله، انتهى».

موت النبي ﷺ كثرة المنافقين بين ظهراني الصحابة.

- ذكر الله تعالى المنافقين في القرآن بكثرة مما يدل على أن لهم وجوداً كبيراً بين المسلمين يشكل خطراً كبيراً على الإسلام والمسلمين، حتى قال الله تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [المنافقون].

[معاملته ﷺ مع المنافقين]

كان النبي ﷺ مع استحكام معرفته بأكثر المنافقين لا يكشف سترهم، ولا يعاملهم بما في قلوبهم من النفاق، وكان القرآن ينزل في ذم المنافقين عموماً، وكان ﷺ لا يَجْبَهُ أحداً منهم بما يكره ولا يجفوه، وكان يصدر من كثير من المنافقين فلتات تدلّ على نفاقهم، فيغضي ويعرض، وهكذا كان خلقه ﷺ مع جميع أصحابه المنافقين وغير المنافقين، وتماماً كما قال تعالى عن خلق نبيه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩]؛ لذلك لم يؤْثَر عن النبي ﷺ أنه عيَّر أحداً بذنبه، أو أعلمه بذنبه إلا أن يكون حداً من حدود الله تعالى.

[أصناف الصحابة ومنازلهم]

للصحابة منازل متفاوتة وهي:

١- منهم المنافقون، وقد قدّمنا أصناف المنافقين.

٢- ومنهم مخلصون حقاً لا يشوب إخلاصهم ما يكدره، وهم قِلَّة قليلة، وقد عينت الآثار والأخبار أشخاصاً على رأسهم علي بن أبي طالب، ومنهم عمار وأبو ذر، وسلمان الفارسي والمقداد، وهؤلاء ممن عاش بعد النبي ﷺ، ومن هذا الصنف أشخاص قُتِلوا في عهد النبي ﷺ.

٣- ومنهم من إخلاصه راجح إلا أنه لم يصل إلى منازل الصنف الذين ذكرناهم،

ويتمثل هذا الصنف في الكثير من الأنصار، ولضعف الإخلاص صدرت منهم هفوات في حق علي وأهل البيت، وتناسوا العهد الذي أخذه النبي ﷺ عليهم، وهم وإن صدر ما صدر منهم من الهفوات في حق علي وأهل البيت بعد موت النبي ﷺ فقد عادوا لنصر علي عليه السلام في خلافته وقاتلوا معه في حروبه، وإنما نزلنا هذا الصنف هذه المنزلة نظراً لما ظهر لنا من أعمالهم؛ لأن الأعمال الظاهرة تدل على ما وراءها من الأعمال الباطنة.

٤- ومنهم صنف منزلته في الإخلاص دون من ذكرنا في الرقم الثالث، ويتمثل هذا الصنف في الأكثرية من قريش المهاجرين منهم والطليق، ودليل ذلك: ما ظهر من أعمالهم التي خالفوا فيها الرسول ﷺ ولم يبالوا بعصيانه، فإن في ذلك دليلاً على ضعف الإخلاص واستيلاء الهوى، حتى صار الإخلاص مرجوحاً والهوى راجحاً. وهذه الأصناف الأربعة هي التي عرفت الإسلام وصحبت النبي ﷺ في سفره وحضره، وكثرت مجالستها له ﷺ وكثر سماعها منه ﷺ.

٥- وهناك صنف خامس وهم الذين أسلموا ورأوا النبي ﷺ ولم يكن لهم من الصحبة والاستماع والمجالسة مثل ما كان للأصناف الأربعة، ونعني بهؤلاء العوام الذين يقال عنهم: إنهم أتباع كل ناعق، يميلون مع كل ريح.

[الصحابة وطبائع البشر]

الصحابة بشكل عام كغيرهم من الناس، تتصارع في صدورهم طبائع الخير والشر، وطبائع الرذيلة والفضيلة، وتميل بهم الأهواء أحياناً، ولم ترفعهم الصحبة للنبي ﷺ إلى درجة الملائكة المعصومين، ولم يبلغوا بها منازل الأنبياء والمرسلين، بل ما زالت طبائعهم البشرية عن صدورهم لا في عهد النبي ﷺ ولا بعد موته.

[غلوّ المخالف في الصحابة والجواب عليه]

وقد ابتدع أهل السنة والجماعة مذهباً في الصحابة غلوا فيه غلواً كبيراً فحكموا لمن كان صحابياً:

١ - أنه لا يضرّه مع الصحبة ذنب.

٢ - أنه لا يجوز ذمّ عصاة الصحابة المرتكبين للكبائر.

٣- لا يجوز ذكر ما جرى بين الصحابة من العداوات والحروب و...الخ.

٤ - من ثبتت صحبته ولو برؤية النبي ﷺ مرة واحدة فقد جاوز القنطرة أي أنه عَدْلٌ ثقة لا يجوز لأحد توجيه النقد إليه ولا التجريح.

٥ - توجيه النقد إلى الخلفاء أو توجيه التساؤلات إليهم زندقة، وكل ذلك يُرَادُ به معاوية وأبو بكر وعمر وعثمان ومن كان في صفهم من الصحابة دون علي بن أبي طالب وأتباعه وأشياعه من الصحابة فليس لهم في تلك الحصانة حظّ ولا نصيب عند أهل السنة والجماعة، وحينئذ يعرف أن تلك الحصانة والقداسة ليست من الإسلام في شيء وإنما هي مذاهب سياسيَّة تبنَّاها سلاطين أهل السنة والجماعة وأدخلوها في شرائع الإسلام، ودليل بطلان مذهبهم ذاك أمور:

١ - أن القرآن الكريم مدح الصحابة في مواضع من القرآن وذمَّهم في مواضع منه[١]، فأخذ أهل السنة بآيات المدح وأعرضوا عن آيات الذم.

٢ - أن الرسول ﷺ أثنى على الصحابة في أحاديث وذمّ في أحاديث[٢].

٣- أن هذه الحصانة والقداسة لم تكن موجودة في زمن النبي ﷺ ولا في

---

(١) وقد تقدم ذكر بعضها.

(٢) من ذلك رواية الحوض وفيها: ((فأقول: يا رب، أصحابي أصحابي)) وممن رواها البخاري ومسلم في صحيحهما، انظر تخريجه في كتاب لوامع الأنوار للإمام الحجة مجدالدين بن محمد المؤيدي عليه السلام.

عهد الصحابة فقد نزل القرآن بذم ولعن قَذَفَةِ عائشة، وهم صحابة، وجَلَدَهم النبي ﷺ حدَّ القذف، وهم صحابة وقطع النبي ﷺ يد السارق الصحابة ورجم زانيهم وحكم ﷺ بالنار على الصحابي الذي سرق شيئاً يسيراً من المغانم، ثم قتل مع النبي ﷺ فقال النبي ﷺ إنه في النار، ففتَّشوا متاعه فوجدوا بين متاعه شيئاً كان قد غلَّه من المغنم.

[فوائد]

١ - أن للصحابة بجانب حسناتهم سيّئات ذمهم الله تعالى عليها كما مدحهم على حسناتهم في آيات أخرى.

٢ - أن صحبتهم للنبي ﷺ لا تدفع ولا تمنع من ذكر أعمالهم السيئة.

٣ - الإيمان بالآيات التي ذمّهم الله فيها واجب، وهكذا آيات المدح والثناء.

٤ - أن في الصحابة الكثير من المؤلّفة قلوبهم.

٥ - أن أوّل ظهور الخوارج كان من بين صفّ الصحابة.

سيرة النبي ﷺ في أصحابه

في التواضع

كان النبيُّ ﷺ متواضعاً حقاً، فكان بين أصحابه كأحدهم، بل إنه ﷺ كان أشدَّهم تواضعاً، يجيب دعوة العبد والمولى والمرأة والفقير والضعيف، فكان يأكل من طعامهم ويشرب من شرابهم ويدعو لهم، ويداعب أطفالهم، وكانوا يسألونه ﷺ أن يصلي في بيوتهم ليتَّخذوا مِنْ مكان صلاته مصلى، وربما ابتدأهم النبي ﷺ فيقول: ((دعوني لأصلّي لكم)).

مع أهل الزلات من المؤمنين

كان الصحابة يتعلّمون الإسلام والإيمان بالتدريج، فكثيراً ما يحصل منهم ما لا ينبغي ولا يجوز بسبب الجهل والخطأ أو الغفلة أو ضعف الإيمان، وكان ﷺ في معاملته لهم كما لو لم يَصْدُرْ منهم شيءٌ مِنْ ذلك، فلم تتغيَّر معاملته لهم عما كانت عليه من قبل عصيانهم، وكان كما قال الله تعالى عنه: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩]، فكان ﷺ مع لين جانبه وسهولة أخلاقه وعظيم كرمِهِ يعفو عما صدر من أصحابه من الأخطاء، ويسألُ الله تعالى لهم المغفرة، ويدعوهم للمشاورة في أمور الإسلام العامة؛ ليستطيب بذلك نفوسهم.

مع المنافقين

كان النبي ﷺ يعامل المنافقين كما يعامل المؤمنين ما داموا مُسِرِّين لنفاقهم وكافِّين لشرِّهم؛ فإذا ظهر من منافقٍ كيدٌ للإسلام والمسلمين دفعه ﷺ بما يَرُدُّه، ثم يعود إلى معاملتهم بالحُسنى، بل كان ﷺ يبالغ في الإحسان إليهم رجاء أن تميل قلوبهم إلى الإيمان والإخلاص، وكان ﷺ يُغضي ما أمكن عما

يبدو من نفاق المنافقين، ولا يؤاخذهم ولا يكشف أستارهم إلا أن يأمره الله تعالى بشيءٍ من ذلك، ومن شواهد ما ذكرنا أن النبي ﷺ حين مات عبدالله بن أُبيّ رئيس المنافقين حضر النبي ﷺ جنازته، وكفَّنه في ثوبه، وصلى عليه، وقام على قبره، ثم نزل عليه القرآن بعد ذلك ينهاه عن الصلاة على المنافقين: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ...﴾ الآية [التوبة:٨٤].

معاملته ﷺ مع عدوّه

كانت قريش ألدَّ أعداء النبي ﷺ وأشدَّهم عليه، ولم يلقَ ﷺ من غيرهم مثل ما لقيَ منهم، كذَّبوه واستهزأوا به وآذوه، وحاصروه مع بني هاشم سنين في مكة، وعذبوا أصحابه، ثم طردوه، ثم بعد ذلك حاربوه في بدر، ثم في أحدٍ حيث جرى هنالك أكبر قتلة في صفوف المسلمين على عهد النبي ﷺ، وفي هذه المعركة جُرِحَ النبيُّ ﷺ في وجنته جُرحاً سالت منه الدماء، وكُسِرَتْ رباعيّته، وأسقطوه ﷺ في حفرةٍ مما أدى إلى أوجاع في رِجْلي النبي ﷺ، ثم غزوه يوم الخندق في جيوشٍ جرَّارةٍ، لولا عناية الله وتأييده لنبيه ﷺ لاكتسح ذلك الجيش المدينة، ولكن الله برحمته هزمهم وردهم خائبين، ثم صَدّوا النبي ﷺ وأصحابه وما معهم من الهدي عن دخول مكة للعمرة، وكان النبي ﷺ والمسلمون مُحرِمين.

وعلى الجملة فقد بذلت قريش قصارى جهودها، وبذلت غايات مجهودها في سبيل إطفاء نور الإسلام، والقضاء على دين محمد عليه وآله الصلاة والسلام، وسلكت في ذلك كل السبل الموصلة إلى مطلوبهم، ولم يتركوا من مجهودهم في ذلك أيّ شيء، ولم يزالوا كذلك من أوّل دعوة النبي ﷺ إلى أن قهرهم الإسلام وغلبهم، ودخلوا فيه راغمين كارهين.

وقد خسرت قريش في عِدَائها للنبي ﷺ الكثير من الأموال والأنفس، ولحقها من الضعف والوهن ما لا يقدر قدره، وقد قال تعالى في ذلك: ﴿فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال]، وقد قُتِلت أشرافُ قريش وساداتها في سبيل عداوتها للإسلام.

﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال]، وقال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ [التوبة].

وفي يوم فتح مكة حين دخل ﷺ والمسلمون مكة بجيوشهم الكثيرة بالقوة وأيقنت قريش أنه لا طاقة لها في مواجهة ذلك الجيش واستسلمت، وأصبحت قريش وقائدها أبو سفيان في قبضة النبي ﷺ قال لهم النبي ﷺ بعد حوار استرحموا فيه النبي ﷺ وطلبوا العفو فقال: ((اذهبوا فأنتم الطلقاء))(١) فعفا النبيُّ ﷺ عنهم وأطلقهم، ولم يؤاخذهم بما فعلوا به وبأصحابه، بل إنه ﷺ أعطى رؤساء قريش من غنائم حنين كل واحد منهم مائة من الإبل؛ ليستميل بها قلوبهم إلى الإسلام، ويُرغبهم بها إلى الانقياد له؛ لأنهم لم يُسْلِموا يوم فتح مكة الإسلام الحق، وإنما استسلموا وأظهروا كلمة الإسلام خوفاً من السيف.

معاملته ﷺ مع أهله وقرابته

كان ﷺ أبرَّ الناس بأهله وقد قال ﷺ: ((خيركم خيرُكم لأهله وأنا خيركم لأهلي)) وكان ﷺ يَصِلُ الرحم ويأمر بصلتها.

---

(١) معرفة السنن والآثار (١٣/ ٢٩٣ رقم ١٨٢٣١)، السنن الكبرى للبيهقي (٩/ ١٩٩ رقم ١٨٢٧٦)، فتح الباري (٨/ ١٨)، سيرة ابن هشام (٢/ ٤١٢).

[مع المرضى والموتى]

- كان ﷺ يعود المرضى، ويدعو لهم ويعلمهم الدعاء، ويرشدهم إلى التداوي.
- وكان ﷺ يشهد جنائز المسلمين ويشيعهم، ويصلي عليهم، ويقوم على قبورهم.
- وكان ﷺ يَتَعَهّد قبور موتى المسلمين بالزيارة.

[النبي ﷺ في السفر]

- كان النبي ﷺ يقصر الصلاة الرباعية إلى اثنتين.
- وكان يجمع بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء، فكان إذا دخل وقت الصلاة وهو في حال السير أَخَّر الصلاة، ثم يجمع الظهر والعصر ركعتين ركعتين في وقت العصر، وأَخَّر المغرب إلى وقت العشاء، ثم يصليهما جميعاً بأذان واحد وإقامتين.
- وكان إذا سافر في شهر رمضان أفطر، وربما صام.
- وكان ﷺ يصلي نوافل الليل على راحلته أينما توجَّهت به.
- وكان الحادي يحدو لتنشيط الإبل بحضرته ﷺ.
- وكان ﷺ حسن المفاكهة والمحادثة، ولا سيما في السفر.
- وكان يتجنَّب النزول في المواضع المسمَّاة بأسماء مكروهة، ويتوخَّى النزول في المواضع التي أسماؤها حسنة.
- وكان ﷺ يعلم أصحابه في السفر شرائع دينهم بالقول والفعل.
- وكان الصحابة يتبرَّكون بما تساقط من ماء وضوء النبي ﷺ في السفر، أما في الحضر فكان ﷺ يتوضأ في بيته.
- وكان له ﷺ نوق يركبهنّ في سفره، منهنّ العضباء، وكانت سابقة.
- وكان ﷺ إذا رجع من السفر يتلقّاه صبيان بني عبدالمطلب فيُرْكِبهم معه.
- وكان ﷺ لا يطرق أهله ليلاً إذا رجع من سفر.

زوجات النبي ﷺ

[خديجة بنت خويلد]

أوّل زوجات النبي ﷺ خديجة بنت خويلد تزوجها ﷺ في مكة قبل النبوة، وكانت رضي الله عنها ذات شرف وذات مال، وهي التي أوعزت إلى النبي ﷺ أن يتزوّجها، وسبب رغبتها فيه ﷺ ما عَرَفت من أمانته، وما ظهر لها من بركته، وما توسّمت فيه من كرامته.

وذلك أنها استأجرته ﷺ في تجارة لها إلى الشام فذهب ﷺ في هذه التجارة مع غلام لها اسمه ميسرة فربحت في هذه التجارة أكثر من سواها، وكان ميسرة يخبرها بأحوال النبي ﷺ وصنيعه في تلك السفرة، وبما رأى من الآيات الدالة على كرامته على الله فرغبت في الزواج بالنبي ﷺ جداً، فسعت في الزواج الميمون، فتمّ بإذن الله ذلك الزواج.

وخديجة هي أمّ أولاد النبي ﷺ جميعاً إلا واحداً من أبنائه فأمه مارية القبطية.

وحين بعثه الله تعالى نبياً ﷺ آمنت به وصدقته، وهي أول من آمن به وصدق، ثم بعدها علي بن أبي طالب عليه السلام.

وشاركته ﷺ في مالها وأطلقت له التصرّف، وكانت رضي الله عنها من النساء اللاتي ذكرهنّ النبي ﷺ بالكمال فيما روي في الصحاح عنه ﷺ أنه قال: ((كمل من النساء أربع: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد))(١) ﷺ.

---

(١) رواه الثعلبي في الكشف والبيان (٩: ٣٥٢)، والزمخشري في الكشاف (٤: ٥٧٣)، وأبو السعود في تفسيره (٨: ٢٧٠)، والبيضاوي في تفسيره، وابن جرير الطبري في تفسيره (٥: ٣٩٥). وقال =

وقد كانت تؤازر النبي ﷺ في دعوته وتشدّ عزيمته، وتخفّف عنه أحزانه و..إلخ.

وماتت رضوان الله عليها قبل الهجرة بثلاث سنوات، وهو العام الذي مات فيه عمه أبو طالب، فتراكم عليه ﷺ الحزن؛ فسمي هذا العام عام الحزن.

وكان النبي ﷺ يحبها كثيراً، وصحبها ﷺ أكثر من عشرين عاماً، ولم يزل النبي ﷺ يذكرها بعد موتها، ويثني عليها، وكان ﷺ يحسن إلى قرابتها بعد موتها، وإلى أصدقائها.

وروي أن عائشة كانت تغار من خديجة من كثرة ذكر النبي ﷺ لها وثنائه عليها، وقالت له ﷺ يوماً: ما أكثر ما تذكرها حمراء الشدقين قد أبدلك الله

ابن كثير في تفسيره (٢: ٣٤): وقال ابن جرير [الطبري]: حدثني المثنى، حدثنا آدم العسقلاني... إلخ ثم قال: وقد أخرجه الجماعة إلا أبا داود. وقال في موضع آخر (٨: ١٩٤): وقد ثبت في الصحيحين من حديث شعبة عن عمرو بن مرة عن مرة الهمداني عن أبي موسى الأشعري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد...إلخ ولم يذكر فاطمة عليها السلام. وقال الشوكاني في فتح القدير (١: ٣٩٠): وفي الصحيحين وغيرهما من حديث أبي موسى الأشعري... إلخ وذكر الحديث وفيه خديجة بنت خويلد ولم يذكر فاطمة عليها السلام. انتهى. وقال الألوسي في تفسيره (١٤: ٣٥٩):وفي الصحيح: ((كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع: آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد)). انتهى. وقال سيد طنطاوي في الوسيط (١٤: ٤٨٣): وروى الشيخان عن أبي موسى الأشعري أنه قال: كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا أربع: مريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وسلم وآسية بنت مزاحم، امرأة فرعون. وقال ابن تيمية في الفتاوى (٦: ٤٤٧) وفي منهاج السنة (٥: ٢٨): قال النبي ﷺ كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع. ولكن في النسخ المطبوعة الموجودة لدينا للبخاري ومسلم وغيرهما لم يذكر إلا آسية ومريم مع أن مسلمًا قد ذكر الحديث في فضائل خديجة عليها السلام، ولكن نقل ابن كثير والشوكاني وغيرهما للحديث كاملًا من الصحيحين وغيرهما دلالة على قولنا إنه في الصحاح، ولكن لعبت بعض الأيادي بالحديث فحذفت آخره عند الطباعة.

عز وجل بها خيراً منها، فقال ﷺ: ((ما أبدلني الله خيراً منها، قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله عز وجل ولدها إذ حرمني أولاد النساء))(١).

ولم يتزوّج النبي ﷺ عليها حتى ماتت، وقد جاء في فضلها أحاديث صحيحة مروّية في الصحاح وغيرها، ويكفيها فضلاً أنها أمّ أهل البيت النبوي.

[عائشة بنت أبي بكر]

ثم تزوج النبي ﷺ عائشة بنت أبي بكر في مكة بعد موت خديجة وهي في السابعة من عمرها، ولم يدخل بها إلا في المدينة وهي بنت تسع سنوات، وقبل الدخول بعائشة تزوّج النبي ﷺ بسودة بنت زمعة.

أفضل زوجات النبي ﷺ

أهل السنة يذهبون إلى أن عائشة أفضلهنّ، والشيعة بما فيهم الزيدية يذهبون إلى أن خديجة أفضلهنّ، وقد كان النبي ﷺ يحب عائشة، وكانت أصغر نساء النبي ﷺ، ولم يتزوّج بكراً غيرها، وكانت ذكية، وتميزت من بين زوجات النبي ﷺ بما تسبب في ذكرها في القرآن الكريم وفي السيرة النبوية، ثم بما تسبب في ذكرها بعد العهد النبوي:

١- فمن ذلك حديث الإفك الذي افتراه المنافقون في المدينة، وأحدث ضجّة كبيرة بين المسلمين، فأنزل الله سبحانه وتعالى في مسح تلك الضجة الأثيمة سورة النور؛ فبرّأ الله تعالى فيها عائشة، ولعن قاذفيها، وأنزل فيها حد

(١) رواه أحمد بن حنبل في مسنده (٤١: ٢٥٦) رقم (٢٤٨٦٤)، والطبراني في الكبير (٤٣: ١٣) رقم (٢١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩: ٢٢٤): رواه أحمد وإسناده حسن. وقال في رواية الطبراني: رواه الطبراني وأسانيده حسنة، وروى بعضه البخاري ومسلم في صحيحيهما، وابن حبان في صحيحه، والحاكم في المستدرك وصححه هو والذهبي.

القذف، وجلد النبي ﷺ حد القذف حسان بن ثابت وحمنة بنت جحش ومسطحاً، وتغاضى النبي ﷺ عن جلد عبد الله بن أُبَيّ لمصلحة الإسلام.

٢- وبسبب ضياع عقد عائشة نزلت آية التيمم.

٣- وفي عائشة وحفصة(١) بنت عمر نزلت أوائل سورة التحريم، وقد كان حصل منهما ما لا ينبغي، وهدّدهما الله تعالى وتوعّدهما في هذه السورة، فقال سبحانه: ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ ۝٤ عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ۝٥﴾ [التحريم].

٤- زوجات النبي ﷺ وإن كان لهن فضل على سائر النساء إلا أن طباعهنّ كطباع النساء، فكنّ يؤذين النبي ﷺ بالكلام، وكثرة اللوم، وكثرة المطالب، وإلى آخر ما يعرف من ذرابة لسان المرأة، حتى بلغن في ذلك الأذى إلى حد نفد فيه صبر النبي ﷺ -وهو الغاية في قوة الصبر البشري- فحرَّمَهُنّ النبيُّ ﷺ شهراً واعتزلهنّ بما فيهن عائشة وحفصة.

٥-لكثرة أذى نسائه ﷺ له في المطالب الدنيوية أنزل الله تعالى لقطع ذلك الأذى قرآناً في سورة الأحزاب أمر الله فيه النبي ﷺ أن يدعو نساءه ويخيّرهن بين خيرتين: إما أن يختاروا الحياة الدنيا وزينتها، وإما أن يختاروا الرسول ﷺ، فقال تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا

(١) روى ذلك البخاري في صحيحه عن عمر وعن عائشة، ومسلم في صحيحه، والترمذي في صحيحه عن عمر، وأبو داود في سننه عن عائشة، والنسائي في سننه وأحمد في مسنده عن عمر وعائشة.

فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴿٢٨﴾ وَإِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴿٢٩﴾﴾ [الأحزاب]، فخيّر النبي ﷺ نساءه وخيّر عائشة خاصة.

٦-كانت عائشة واحداً من الأسباب التي أثارت الناس على الثورة على عثمان بن عفان حتى قُتِل، وقد كان قتل عثمان باب فتنة بعيدة المدى، وكانت عائشة تسمي عثمان نعثلاً، وتقول: «اقتلوا نعثلاً فقد كفر»(١).

٧-وكان لعائشة دور فعّال في تحميس الناس على حرب علي بن أبي طالب في البصرة (حرب الجمل)، وقد كانت في هذه الحرب قائدة ميدانية.

٨-كان لعائشة علم وفقه، وقد روي عنها من ذلك شيء كثير.

٩- تعمَّرت عائشة كثيراً بعد موت النبي ﷺ، وأدركت الخلاف بعد موت النبي ﷺ، ثم دخلت في الفتنة ضدّ علي بن أبي طالب عليه السلام.

رَأْيُنَا في عائشة/ هو أنها زوجة نبينا محمد ﷺ فهي صحابية من الدرجة الأولى، وهي -وإن صدر منها ما صدر من حرب علي بن أبي طالب وعداوتها لأهل البيت- حرمتها الأولى باقية، بمعنى أن حرمتها في عهد النبي ﷺ وبعد الدخول في الفتنة سواء، لم تنقص حرمتها بسبب الدخول في الفتنة، وهكذا كان يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ففي نهج البلاغة كلام تشكّى فيه أمير المؤمنين من عائشة ثم قال بعد ذلك: (ولها بَعْدُ حرمتها الأولى، وحسابها على الله).

---

(١) السيرة الحلبية (٣/ ٤٠٢)، تذكرة الخواص لسبط ابن الجوزي (١/ ٣٠٠، ٣٠٤)، والطبري في تاريخه، وابن الأثير في الكامل، وبلفظ: «اقتلوا نعثلاً قتل الله نعثلاً» في شرح نهج البلاغة (٦/ ٢١٥)، وانظر: تفسير الألوسي (١١/ ١٩٢)، جامع غريب الحديث (٢/ ٤٠٦)، ورواه ابن قتيبة في الإمامة والسياسة بلفظ: « فقد فجر ».

١٠- انقسم الصحابة ثم من بعدهم إلى شيعة وسنة، وكانت عائشة في صف أهل السنة.

١١- الذي يرويه محدّثو الزيدية أن عائشة هي التي قالت لبلال من تلقاء نفسها: مُرْ أبا بكر فليصلِّ بالناس(١).

١٢- وهكذا رووا أن علياً هو الذي كان قائماً على موت النبي ﷺ حتى خرجت روحه ﷺ، فغمض عينيه ومسح وجهه وسواه ﷺ، لا عائشة(٢).

---

(١) ورواه أبو العباس الحسني عليه السلام في المصابيح، وقال الإمام الهادي عليه السلام في كتاب تثبيت الإمامة بعد ذكر اختلاف الأمة في الإمام بعد رسول الله ﷺ إلى أربع فرق، قال: وأجمعت الفرق الثلاث التي خالفتهم أن عائشة هي التي أمرت بلالاً فقالت: مر أبا بكر أن يصلي بالناس.

(٢) ذكر في نهج البلاغة عن علي (ع): (ولقد قبض رسول الله (ص وآله) وإن رأسه لعلى صدري) وروى ذلك أبو العباس الحسني (ع) في المصابيح من جملة خبر الوفاة، وروى محمد بن سليمان الكوفي في المناقب عن علي (ع) قوله: (ولقد قبض رسول الله (ص وآله) بين جوانحي)، وروى الطبراني في الكبير عن ابن عباس قوله: (ورأسه في حجر علي)، وروى ذلك البزار في مسنده عن أبي رافع، وروى ذلك ابن سعد في الطبقات عن علي (ع) وعن علي بن الحسين وعن الشعبي وفيها عن أبي غطفان قال: سألت ابن عباس أرايت رسول الله (ص وآله) توفي ورأسه في حجر أحد؟ قال: توفي وهو إلى صدر علي، قلت: فان عروة حدثني عن عائشة أنها قالت: توفي رسول الله (ص وآله) بين سحري ونحري، فقال ابن عباس: أتعقل؟!! والله لتوفي رسول الله (ص وآله) وهو مستند إلى صدر علي، وهو الذي غسله..إلخ، وروى هذا ابن منظور في مختصر تاريخ دمشق، وأخرجه ابن حجر في فتح الباري عن الواقدي بسنده إلى أبي غطفان وروى الحاكم في المستدرك عن أم سلمة قالت: والذي أحلف به إن كان علي لأقرب الناس عهداً برسول الله (ص وآله)، عُدْنا رسول الله (ص وآله) غداة وهو يقول: ((جاء علي؟ جاء علي؟)) مراراً، فقالت فاطمة رضي الله عنها: كأنك بعثته في حاجة؛ قالت: فجاء بعد فظننت أن له إليه حاجة، فخرجنا من البيت فقعدنا عند الباب، وكنت من أدناهم إلى الباب، فأكب عليه رسول الله (ص وآله) وجعل يساره ويناجيه، ثم قبض رسول الله (ص وآله) من يومه ذلك، فكان علي أقرب الناس عهداً، ثم =

بقية زوجات النبي ﷺ

ومن زوجاته ﷺ أم سلمة، ولها رواية، وعندها علم وبصيرة، وكانت تنهى عائشة وتَعِظُها من الدخول في الفتنة.

ومن زوجاته ﷺ حفصة بنت عمر، ورملة بنت أبي سفيان، وصفية بنت حيي بن أخطب، وميمونة بنت الحارث الهلالية، وزينب بنت جحش.

[إبطال التبني في الإسلام]

وكانت زينب قبل زواجها بالنبي ﷺ مزوجة مع زيد بن حارثة مولى النبي ﷺ، وكان ﷺ قبل الإسلام قد تبنّى زيداً؛ فكان يقال له: زيد بن محمد ﷺ مدّة طويلة، إلى أن أنزل الله تعالى في إبطال التبني ما أنزل من

قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي: صحيح، وروى حديث أم سلمة النسائي في سننه وفي الخصائص وأبو يعلى في مسنده وإسحاق بن راهويه في مسنده وأحمد بن حنبل في مسنده وفي الفضائل وابن عساكر في تاريخ دمشق وابن أبي شيبة في مصنفه وأبو نعيم في أخبار أصبهان والمحب لطبري في ذخائر العقبى، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد عند ذكر هذا الخبر: رواه أحمد وأبو يعلى والطبراني باختصار ورجالهم رجال الصحيح غير أم موسى وهي ثقة وروى المحب الطبري في ذخائر العقبى عن عائشة قالت: قال رسول الله (ص وآله) لما حضرته الوفاة: ((ادعوا لي حبيبي)) فدعوا له ابا بكر (رض) فنظر إليه ثم وضع رأسه، فدعوا له عمر (رض) فلما نظر إليه وضع رأسه، ثم قال: ((ادعوا لي حبيبي)) فدعوا له عليا رضي الله عنه، فلما رآه أدخله معه في الثوب الذي عليه حتى قبض (ص وآله)، ثم قال: أخرجه الرازي، وروى حديث عائشة ابن عساكر في تاريخ دمشق وفي تاريخ دمشق أيضا عن جميع بن عمير أن أمه وخالته دخلتا على عائشة فقالتا: يا أم المؤمنين أخبرينا عن علي، قالت: أي شيء تسألن عن رجل وضع يده من رسول الله ﷺ موضعاً فَسَالَتْ نفسُه في يده فمسح بها وجهَه..إلخ، ورواه أبو يعلى في مسنده رواية أوسع من هذه، وروى الطبراني في الاوسط وفي الكبير عن ابن عباس أن النبي (ص وآله) لما ثقل..إلى أن قال: ثم قال: ((ادن مني ادن مني)) فأسنده إليه، فلم يزل عنده حتى توفي...إلخ.

القرآن في سورة الأحزاب: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ..﴾ الآية.

وللمبالغة في إبطال تلك السنة أمر الله نبيه ﷺ أن يتزوّج بزينب بنت جحش بعد أن يطلقها زيد؛ فضاق النبي ﷺ ذرعاً بهذا الأمر؛ لما يتوقع من سوء قالة الناس ومقتهم له حيث تزوج بزوجة ابنه: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ [الأحزاب:٣٧]، ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب:٤٠]، المعنى: أن محمداً النبي ﷺ ليس بأب لزيد بن حارثة كما تعتقدون؛ لأن زيداً ليس من قرابة النبي ﷺ، ولا من رجال بني هاشم، بل هو رجل من رجالكم الذين لا يربطهم بالنبي ﷺ نسب ولا قرابة(١).

وصية رسول الله ﷺ لزوجاته

أوصاهنّ النبي ﷺ بلزوم قرارة بيوتهنّ، وكرَّرَ عليهن وصية الله لهنّ في كتابه، وهي قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب:٣٣].

وقد كان ﷺ علم بالوحي أن إحدى زوجاته ستخرج في فتنة يقتل عن

---

(١) وأما الحسنان وذريّتهما عليهما السلام فهم أبناء النبي ﷺ بنصّ القرآن الكريم قال تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ...﴾ الآية [آل عمران:٦١]، ولم يدع ﷺ من الأبناء إلا الحسنين عليهما السلام بإجماع الأمة، وإذا كان الحسنان عليهما السلام ابنا النبي ﷺ فكذلك ذرّيتهما الطاهرون، وكذلك بروايات الموالف والمخالف مثل: ((كل بني أنثى...الحديث))، و((جعل ذريتي في صلب علي..الحديث))، ((أخي وأبو ولدي)) وغيرها كثير، انظر لوامع الأنوار ج١/ ص١٢٦/ ط٥ للإمام الحجة مجدالدين بن محمد المؤيدي عليه السلام.

يمينها وعن شمالها قتلى كثيرة كلها في النار[١]، فحذر ﷺ نساءه من ذلك، وقال ﷺ: ((ليت شعري أيتكنّ صاحبة الجمل الأدبب تنبحها كلاب الحوأب))[٢] ثم قال لعائشة: ((إياكِ أن تكوني إياها يا حميراء))[٣].

سيرته ﷺ مع زوجاته

-كان ﷺ يقسم بينهن الليالي والأيام إلا سودة بنت زمعة فإنها وهبت نوبتها لعائشة، وسبب ذلك أنها كانت قد أسنّت وكبرت فخافت أن يطلقها النبي

---

(١) شرح نهج البلاغة (٩/ ٣١١)، وبلفظ: ((أيتكن صاحبة الجمل الأدبب يقتل حولها قتلى كثيرة تنجو بعدما كادت)) في دلائل النبوة (١/ ٣١) وفي هامشه: رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٣٧٧٨٥) قال الهيثمي في مجمع الزوائد: رواه البزار ورجاله ثقات (٧/ ٤٧٤).

(٢) حديث: ((تنبحها كلاب الحوأب)) أخرجه أحمد بن حنبل في مسنده عن عائشة عندما بلغت ماء الحوأب بطريقين، والحاكم في المستدرك، والبيهقي في دلائل النبوة، وأبو يعلى في مسنده وقال: إسناده صحيح، وابن حبان في صحيحه، وإسحاق بن راهويه في مسنده، وابن أبي شيبة في مصنفه، والهيثمي في مجمع الزوائد، وقال: رواه أحمد وأبو يعلى والبزار، ورجال أحمد رجال الصحيح، وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لنسائه: ((ليت شعري أيتكن صاحبة الجمل الأدبب تخرج فينبحها كلاب الحوأب..إلخ)) ثم قال: رواه البزار ورجاله ثقات. انتهى، ورواه نعيم بن حماد في الفتن، والطبري في تاريخه، وابن عدي في الكامل، وابن حجر في الإصابة، والذهبي في تذكرة الحفاظ، وأخرجه في البداية والنهاية لابن كثير، وابن الأثير في الكامل، واليعقوبي في تاريخه، والطبراني في الأوسط.

(٣) رواه في نهج البلاغة لابن أبي الحديد، وروى نحوه الحاكم في المستدرك عن أم سلمة بلفظ: ((انظري يا حميراء ألا تكوني أنت)) من جملة ثلاثة أحاديث ثم قال: كلها صحيحة على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، ورواه البيهقي في الدلائل بهذا اللفظ، ورواه نعيم بن حماد في الفتن بلفظ: ((إياك يا حميراء))، وأخرجه الهندي في كنز العمال ثم قال: نعيم بن حماد في الفتن، وسنده صحيح، ورواه ابن عساكر في الأربعين بلفظ: ((انظري يا حميراء ألا تكوني أنت))، ورواه كذلك في المحاسن والمساوئ، ورواه ابن قتيبة في الإمامة والسياسة عن عائشة بلفظ: ((وإياك أن تكوني أنت يا حميراء)).

ﷺ من أجل ذلك، فتنازلت عن نوبتها لعائشة فرضي النبي ﷺ بذلك، وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ...﴾ [النساء:١٢٨].

-وكان ﷺ إذا سافر أقرع بين نسائه أيتهنّ تخرج معه، فمن خرج سهمها خرجت معه.

-وكان ﷺ لطيفاً في معاشرة زوجاته، لا يؤاخذهنّ على ما بدر منهنّ من سوء الأدب وسلاطة اللسان ورفع الصوت، وقد لقي ﷺ من ذلك أذى كثيراً حتى هجرهنّ شهراً، وأنزل الله تعالى في ذلك قرآناً في سورة الأحزاب وسورة التحريم، وكان ﷺ يقول ما معناه: ((المرأة كالضلع الأعوج إن أقمته كسرته، وإن استمتعت بها استمتعت وفيها عوج)) وقال ﷺ: ((استوصوا بالنساء خيراً))، وقال ﷺ: ((خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي)).

-وحجّ ﷺ بنسائه في حجة الوداع.

تاريخ التشيع والنصب في أهل بيت النبي ﷺ

يظهر من دراسة السيرة أن النصب والتشيع في أهل البيت قد ولدا في عهد النبي ﷺ؛ يظهر ذلك من:

١- حديث بريدة المشهور الذي تمالأ فيه جماعة من الجيش الذين كانوا تحت إمارة علي وخالد في اليمن على الشكاية بعلي عند النبي ﷺ، تحتوي على عدة نقاط اتهموا فيها علياً فبعثوا بتلك الشكاية بريدة، فوصل بريدة قبل أن يصل الجيش فعرض تلك الشكوى على النبي ﷺ فأعرض عنه، ثم عرضها فأعرض عنه، ثم عرضها مرة ثالثة فظهر الغضب على وجه رسول الله ﷺ وقال لبريدة ما معناه: ((لا تسب علياً فإنه مني وأنا منه، وهو ولي كل مؤمن بعدي))(١).

٢- في حديث للعباس بن عبد المطلب أنه قال للنبي ﷺ ما معناه: ما بال قريش إذا لقي بعضهم بعضاً لقوهم بوجوه ضاحكة مستبشرة، وإذا لقونا لقونا بوجوه مكفهرة؟ فاستنكر النبي ﷺ ذلك وقال: ((أوَقد فعلوها؟ والذي نفسي بيده لا يؤمنون حتى يحبوكم لحبي)) هذا معنى الرواية(٢).

---

(١) رواه الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام في مجموعه، والمؤيد بالله عليه السلام في شرح التجريد، والمرشد بالله عليه السلام في الأمالي، ورواه الحاكم الجشمي في تنبيه الغافلين، ورواه أحمد بن حنبل في مسنده وفي فضائل الصحابة، ورواه الترمذي في سننه، وابن حبان في صحيحه، والنسائي في سننه، وأبو يعلى في مسنده ثم قال: رجاله رجال الصحيح، وابن أبي شيبة في مصنفه، والطيالسي في مسنده، والبغوي في معجم الصحابة، والطبراني في الكبير، وابن أبي عاصم في السنة، والحاكم في المستدرك وقال: صحيح على شرط مسلم، وابن عساكر في تاريخ دمشق، والمحب الطبري في الرياض النضرة، وابن البطريق في العمدة، والزرندي في نظم الدرر، والنسائي في الخصائص، وابن عدي في الكامل وغيرهم.

(٢) ذكر قريباً منه: الطبراني في الأوسط (٧/ ٣٧٣) بلفظ: وَأَتَاهُ الْعَبَّاسُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي =

٣- وقد أخبر النبي ﷺ بوجود العداوة لأهل بيته في زمنه فقال ﷺ لعلي عليه السلام ما معناه: ((إن في صدور قوم من أصحابي هنات لا يبدونها لك إلا بعد موتي))(١).

وقد تركّز النصب في قريش بشكل عام ولم يسلم من النصب والعداء لأهل البيت إلا القليل النادر، ومن القليل النادر أم سلمة.

وبعد موت النبي ﷺ أظهرت قريش عداوتها لآل محمد ﷺ بما فيهم الخلفاء.

- وكانت أم المؤمنين عائشة تكره فاطمة وعلياً، وقد يكون السبب في كراهتها لهما:

انْتَهَيْتُ إِلَى قَوْمٍ يَتَحَدَّثُونَ، فَلَمَّا رَأَوْنِي سَكَتُوا، وَمَا ذَاكَ إِلَّا أَنَّهُمْ يَبْغَضُونَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَوَ قَدْ فَعَلُوهَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُهُمْ حَتَّى يُحِبَّكُمْ، أَيْرْجُونَ أَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّةَ بِشَفَاعَتِي وَلَا يَرْجُوهَا بَنُو عَبْدِ الْمُطَّلِبِ». وأحمد في فضائل الصحابة (٢/ ٩٣٣ رقم ١٧٩١) بلفظ: قَالَ الْعَبَّاسُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّا لَنَرَى ضَغَائِنَ فِي وُجُوهِ قَوْمٍ مِنْ وَقَائِعَ أَوْقَعْتَهَا بِهِمْ، قَالَ: وَقَدْ فَعَلُوهَا؟ قَالُوا: نَعَمْ، قَالَ: «مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا حَتَّى يُحِبُّوكُمْ لِقَرَابَتِي»، وقريباً من هذه الألفاظ في: المعجم الصغير للطبراني (١/ ٣٩٩ رقم ٦٦٧).

وقد ذكر الإمام الحجة مجدالدين بن محمد المؤيدي عليه السلام حديث وجوب محبة أهل البيت بألفاظه المختلفة ومن رواه في لوامع الأنوار (ج٤/ ٢٥١ وما بعدها ط٥) فارجع إليه موفقاً.

(١) ورد الحديث في ذكر خروج النبي ﷺ آخذاً بيد علي عليه السلام في بعض سكك المدينة ومرورهم بالحدائق ولفظه -بعد هذا السياق- في المقصد العلي في زوائد أبي يعلى (٣/ ١٨٠ رقم ١٣٢١): فَلَمَّا خَلا لِي الطَّرِيقُ اعْتَنَقَنِي ثُمَّ أَجْهَشَ بَاكِيًا. قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: «ضَغَائِنُ فِي صُدُورِ أَقْوَامٍ لا يُبْدُونَهَا لَكَ إلا مِنْ بَعْدِي». قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فِي سَلامِي مِنْ دِينِي؟ قَالَ: «فِي سَلامَةٍ مِنْ دِينِكَ».اهـ وقريباً منه في: مسند البزار (٢/ ٢٩٣)، المعجم الكبير للطبراني (١١/ ٧٣ رقم ١١٠٨٤)، مجمع الزوائد (٩/ ١١٨ رقم ١٤٦٩٠، ورقم ١٤٦٩١)، وغيرها.

١- إما لأن فاطمة هي ابنة ضرّتها خديجة، وكان النبي ﷺ لا يزال يذكر خديجة ويثني عليها، وكراهتها لعلي تابع لكراهة فاطمة.

٢- وإما لأن النبي ﷺ كان يحب فاطمة وعلياً أكثر ما يكون من الحب، ويثني عليهما أكثر ما يكون من الثناء، وينوّه بفضلهما غاية التنويه، مما تسبب للغيرة والحسد في نفس عائشة.

٣- وإما لنوازع تأريخية، وهي ما كان ولا زال من العداوات بين بيوتات قريش وبين بني هاشم.

[تشيع أبي ذر وما ناله في خلافة عثمان]

- وكان أبو ذر من المخلصين في ولائهم لآل محمد ﷺ فلحقه بسبب ذلك بلاء عظيم في خلافة عثمان بن عفان، فإن عثمان بن عفان لما لم يستطع إسكات أبي ذر في المدينة أرسله إلى الشام إلى معاوية لغرضين:

١- لئلا يفسد عليه الناس في المدينة.

٢- ليؤدبّه معاوية.

فلم يستطع معاوية أن يسكت أبا ذر فكتب معاوية إلى عثمان يخبره بشدة خطر أبي ذر على بلاد الشام، فكتب عثمان إلى معاوية بأن يرسل أبا ذر إلى المدينة على جمل بغير وطاء، وأن يأمر من يسوق به سوقاً عنيفاً، فأرسله معاوية من الشام إلى المدينة على جمل حسب طلب عثمان، فلم يصل أبو ذر المدينة إلا وقد تسلخ لحم فخذيه، فعنّفه عثمان وسبّه، وكان أبو ذر يقول: إنه بايع رسول الله ﷺ على أن يقول الحق ولا يخاف في الله لومة لائم، فلذلك لم يصده ما فعل به عثمان ومعاوية عن قول الحق.

فازداد غيض عثمان من أبي ذر، فاستدعاه وسبّه وعنّفه، وقال: من عذيري من

هذا الشيخ الكذاب؟! فقال أبو ذر: سمّاني رسول الله ﷺ بالصدق وتسميني بالكذب!! لشتّان ما بينكما، فركله عثمان ركلة منكرة أوهت قواه، ثم أصدر عثمان قراراً بالمنع المطلق لكل واحد من المسلمين من أن يكلم أبا ذر أو يجلس إليه، وأن من كلمه فإنه سينال العقوبة البالغة.

فتحاماه الناس واجتنبوه خوفاً من عقوبة عثمان، فكان أبو ذر رضي الله عنه يترصّد عثمان ليُسْمِعَه ما يكره، فغضب عثمان وأصدر قراراً جديداً بنفي أبي ذر إلى الربذة، ومنع الناس أن يودّعوه، فخرج من المدينة وهو يقول: ردَّني عثمان أعرابياً بعد الهجرة. فودَّعه علي بن أبي طالب، وعمار بن ياسر، ودَعَوَا له ودعا لهما.

فجاء مروان بن الحكم إليهما على فرس وقال لهما: أما علمتما أن أمير المؤمنين عثمان نهى عن تكليم أبي ذر ووداعه؟ فضرب عليٌ وجه فرسه بالسوط، فغضب مروان وذهب إلى عثمان يشكو علياً وعماراً و..إلخ.

فخرج أبو ذر إلى الربذة وأقام فيها غريباً هو وزوجته، وكان لهما غنيمات يشربان من درّها، فلبث ما شاء الله في الربذة هو وزوجته وحيدين، ثم مات هنالك وحيداً، وحضر موته جماعة من المؤمنين تولوا دفنه، وقال أبو ذر لتلك الجماعة التي حضرت موته ما معناه: أبشرّكم بما قال لي رسول الله ﷺ من أني سأموت وحدي وسيحضر موتي جماعة من المؤمنين(١).

(١) – كان منهم حجر بن عدي ومالك الأشتر. روى ذلك ابن أبي الحديد. من تخريج أحاديث الشافي.

[دولة القرآن الكريم]

حين بعث الله تعالى محمداً ﷺ نبياً أمره بالدعوة إلى توحيد الله وترك الأصنام (لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ)، وأمره بالجدّ في ذلك والصبر على ما يلاقي في سبيل ذلك، وأمر تعالى الذين آمنوا بالصبر وتحمّل الأذى، ونهاهم عز وجل عن القتل والقتال إلا بعد ثلاث عشرة سنة من البعثة، وذلك بعد الهجرة إلى المدينة.

وذلك لعلمه تعالى بأن القتال لو وقع في تلك الفترة لأدى إلى ضياع الإسلام والمسلمين؛ لقلتهم وضعفهم وكثرة عدوهم.

وبعد الهجرة حين كثر المسلمون وصار لهم كيان كبير وأتباع أَذِنَ الله سبحانه وتعالى في قتال المشركين الذين يقاتلونهم وحدهم، الذين بدأوا النبي ﷺ والمسلمين بالقتل والقتال والعداوة دون غيرهم.

وكان حول المدينة الكثير من قبائل اليهود فصالحهم النبي ﷺ وعاهدهم على المسالمة والأمن وكفّ الضرر وترك العدوان، فوفى النبي ﷺ لهم بما عاهدهم عليه هو والمسلمون، واستمرت اليهود على الوفاء فترة، ثم غدروا به ونقضوا العهد، فبعضهم تحالف مع قريش على حرب النبي ﷺ والمسلمين واستئصالهم تماماً؛ فحاربهم النبي ﷺ وانتصر عليهم.

ثم تحالف قبائل كثيرة مع قريش لحرب النبي ﷺ، فاضطرّ النبي ﷺ والمسلمون إلى حربهم، وهكذا دعت الضرورة إلى إعلان الحرب على كل من وقف بسيفه في وجه الدعوة إلى دين الإسلام.

أما المشركون الذين كفّوا أيديهم عن العدوان والتزموا بمعاهدتهم مع المسلمين فقد قال تعالى للمسلمين بشأنهم: ﴿فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ﴾ [التوبة:٧].

وعلى الجملة فحروب النبي ﷺ مع المشركين واليهود كانت على جهة الدفاع أو الردّ بالمثل.

هكذا كانت سيرة النبي ﷺ في جميع حروبه مع المشركين واليهود.

ثم أن الله سبحانه وتعالى أمر بعد ذلك بقتال المشركين كافّة: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة:٣٦]، وهكذا أمر بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، وما ذلك إلا لما علم الله تعالى من خبث نيّات المشركين واليهود في الفتك بالمسلمين إن حانت لهم فرصة، وقد قال تعالى في المشركين: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة]، وقال فيهم: ﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ [الممتحنة]، وقال فيهم: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران:١١٨]، إلى غير ذلك من الآيات.

وقال سبحانه في المشركين واليهود: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [المائدة:٨٢].

فلذلك أمر بقتال الفريقين على الإطلاق، وكان هذا الأمر من الله تعالى للمسلمين حين أصبح للمسلمين دولة عظيمة بقيادة نبيهم ﷺ، وصار لهم كيان كبير وسيطرة واسعة، فكان لا بد لأعداء الإسلام في جزيرة العرب من أهل الكتاب والمشركين أن يقبلوا بالوضع العام فيدخلوا في الإسلام، أو يصبروا على ما هم عليه من العداوة للإسلام ونبي المسلمين، فكان لا بد لدولة الإسلام من قتال عدوّهم المصرّ على عداوته حتى يحصل واحد من ثلاثة:

١ - إما أن يدخلوا في الإسلام.

٢ - وإما أن يستسلموا للدولة الإسلامية ويقبلوا بقوانينها العادلة؛ فيعطوا لها ما

عليهم، ويأخذوا منها ما هو عليها، وتماماً كما هو الحال عليه اليوم في بعض دول العالم؛ فإن الأقليّات الدينية والأحزاب المعارضة وذوي النوازع العنصرية أو العرفية تقبل بالوضع العام والسياسة القائمة وتذعن لقوانينها، فتعطي ما عليها، وتأخذ ما هو لها في القانون العام.

٣- وإما الصبر على القتل والقتال حين يحكم الله بين الفريقين، وهذه السياسة هي سياسة حكيمة جارية على ما هو المعروف من سنن البشر التي تعرفها العقول وتجيدها.

وكانت الدولة الإسلامية تأخذ من رعاياها شيئاً من المال؛ فالمسلمون يؤدون الزكاة فيعطي التاجر في السنة (٢,٥ بالمئة)، وأصحاب الزراعة يعطون (١٠بالمئة) من محصول زراعتهم إذا سقيت بغير تعب نحو أن تسقى بماء المطر أو الأنهار، و(٥بالمئة) إذا كانت تسقى بالآلات، وأهل المواشي التي ترعى الكلأ يعطون منها على حسب كثرتها وقلّتها، وإذا كانت تُعْلَفُ فلا زكاة عليها.

ويعطي كل واحد من المسلمين صاعاً في السنة من طعام على الغني والفقير، والصغير والكبير، والذكر والأنثى، والحر والعبد.

وأهل الكتاب يؤخذ من كل واحد من فقرائهم اثني عشر درهماً في السنة، ومن أوساطهم أربعة وعشرين، ومن أغنيائهم ثمانية وأربعين درهماً، والاثنا عشر درهماً هي أقل من ريال فرانصي.

وقد تتصالح الدولة الإسلامية مع أهل الكتاب أو المشركين بأقلّ من ذلك أو بأكثر، على حسب المصلحة وحسب الاتفاق.

نعم، هذا المال الذي تأخذه الدولة ليس ظلماً؛ لأسباب:

١ - أنها تأخذ المال من جميع رعاياها من المسلمين وغيرهم.

٢- أنها تأخذ المال في مقابل خدمات تقدّمها الدولة كحماية رعاياها، وتأمين طرقهم، وتأمين تجاراتهم و...الخ.

٣- أن قيام الدولة لا يتمّ إلا بالمال، فالمال ضروري للدولة، ولا مصدر له سوى ما تجبيه من رعاياها.

وقد ألزم الله تعالى ولاة الإسلام قبل الدخول في القتال أن يدعوا من يريدون قتاله إلى الإسلام أو الاستسلام أو القتال، وكره الله لهم ورسوله ﷺ أن يقاتلوا أحداً قبل الدعوة إلى ذلك، والتكرير لها، والترغيب في الإسلام.

[النبي ﷺ في دولته]

وكان رسول الله ﷺ يكره القتل وسفك الدماء ويميل بطبعه إلى العافية والسلامة، وكان لا يقرّر القتل أو القتال إلا عند الضرورة، وكل ذلك لما جبله الله تعالى عليه من الرحمة العامة والشفقة، فأطلق ﷺ أسرى المشركين في بدر وكانوا ألدّ الأعداء وأشدّهم قساوة وعداوة على النبي ﷺ، وردّ سبايا يوم حنين، وعفا عن أهل مكة يوم فتحها مع أنهم الغاية في العداوة، ولم يلقَ النبي ﷺ من أحد مثل ما لقي منهم.

وعلى الجملة فقد كانت شخصيته ﷺ العفو والصفح، وكانت صفته المذكورة في الكتب السابقة أنه لا يجزي على السيئة أو يكافئ على السيئة بالسيئة.

وكان من شيمته ﷺ في سيرته طول حياته المباركة الإغضاء عن عيوب أصحابه ومساويهم، ويقبل أعذار المذنبين إذا اعتذروا من غير مناقشة ولا مساءلة حتى اتهمه المنافقون بالغباء وقلّة التمييز كما حكاه الله تعالى في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ﴾ [التوبة:٦١]، أي: أنه يسمع ويَقْبَل كل ما يقال له ويستجيب لذلك من غير تمييز، ولم يعرف المنافقون أن ذلك إنما صدر منه عن كرم أخلاقة وعظيم شيمته، وعن

أدب عظيم تلقاه من ربه كما في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩].

وكان ﷺ يتنازل عن حقوقه الخاصة فلا يؤاخذ أصحابه عليها ويستحيي من المطالبة بها حتى يكون الله تعالى هو الذي يطالب بها لنبيه ﷺ ﴿.... إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ [الأحزاب:٥٤]، ﴿لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ...﴾ [الحجرات:٢].

وكان ﷺ يغضي عما يصدر من المنافقين كما يغضي عن المؤمنين، ولم تختلف معاملته لهم عن معاملته للمؤمنين، وشاهد ذلك ما اشتهر عنه ﷺ يوم مات عبد الله بن أُبَيّ رأس المنافقين ورئيسهم فإن النبي ﷺ شيع جنازته وأعطاهم قميصه ليكفّنوه فيه، وصلى عليه صلاة الجنازة، ووقف على قبره حتى قبر، وكان ذلك قبل أن ينهاه الله تعالى عن الصلاة على المنافقين.

وكان ﷺ يعرف المنافقين ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد:٣٠]، ثم يستر عليهم ولا يفضحهم، ومات ﷺ وأمْرُ المنافقين مستور وغير مكشوف إلا أن النبي ﷺ أسرّ إلى بعض أصحابه بأسرارهم واستكتمه ذلك.

بل إنه ﷺ كان يأمر بالتستر ويحث عليه ويقول كما روي: ((من أبدى صفحته للحق هلك)) ويقول: ((نحن نحكم بالظاهر، والله يتولى السرائر))، بل كان ﷺ يلقّن السارق ونحوه ما يسقط عنه الحد.

ومع هذه الشيم العالية والأخلاق الكريمة كان ﷺ لا يتساهل ولا يغضي عن تنفيذ ما أمره الله تعالى به من إقامة الحدود والقصاص والحكم بالعدل وإقامة

الفرائض والأحكام والشرائع.

وكان ﷺ يقول: ((إذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة))، وكان ﷺ ينهى عن المثلة حتى بالكلب العقور.

وكان ﷺ يبعث إلى المسلمين البعيدين من يعلمهم أمر دينهم كبعثه مصعب من عمير إلى المدينة قبل الهجرة.

وبعث معاذ بن جبل إلى اليمن لعدّة أغراض:

١- الدعوة إلى الإسلام وتعليمهم أمر دينهم.

٢- ليأخذ الزكاة من أغنيائهم ويردّها في فقرائهم.

٣- ليقضي بين المتنازعين، فكان معاذ داعياً ومعلماً ومصدقاً وقاضياً.

كما بعث ﷺ علياً عليه السلام إلى اليمن أيضاً داعياً ومعلماً ومصدقاً وقاضياً.

وكان ﷺ يبعث المصدقين إلى النواحي لأخذ الزكاة.

وكان النبي ﷺ هو المتولي لقيادة الحروب الكبرى يوم بدر وأحد والخندق، وحروبه مع اليهود: بني قريظة وبني النضير وبني قينقاع وأهل خيبر، ويوم الفتح، ويوم حنين، وغزوة تبوك، وكان ﷺ هو المتولي للقضاء بين الخصوم، وإقامة الحدود والقصاص، وكان ﷺ هو الذي يتولى المفاوضات مع الخصوم والمحاورات والمعاهدات والعقود.

وعلى الجملة فقد كان النبي ﷺ هو القائم بكل أعمال دولة القرآن وعلى رأسها تبليغ رسالة ربه، وهذا بالإضافة إلى ملازمته ﷺ بإمامة الصلوات الخمس والجمعة والخطبة، وقيامه بحاجات أهله كشراء الطعام ونحوه، وحمله إلى بيوته، ونحو ذلك.

وكان ﷺ يشاور أصحابه في قرارات الحرب والسلم، وفي النوازل الهامة إذا لم ينزل فيها وحي، أما إذا نزل فيها وحي بأمرٍ فإنه ﷺ ينفذه من غير مشاورة.

وكان ﷺ يجلس بين أصحابه كأحدهم حتى إن الغريب إذا جاء يسأل: أيّكم رسول الله ﷺ؟ ولم يكن ﷺ يتعاظم ولا يترفّع بل إن خلقه التواضع والرفق واللين والسهولة وعدم التكلّف، فبيوته مثل بيوت أصحابه أو دونها مبنيّة من اللبن ومسقوفة بجريد النخل، وهكذا كان مسجده ﷺ.

ليس لبيوته حرس ولا حجاب، يجيب دعوة من دعاه ولو كان من أوضع الناس أو أفقرهم؛ فيدخل بيوتهم، ويأكل من طعامهم ويدعو لهم، ويصلي ركعتين في مكان من البيت ليتخذوه مصلى.

وكان العبد يأخذ بيد النبي ﷺ فيذهب به حيث يشاء لا يأنف من ذلك ولا يترفّع، وكان يجلس على الأرض ويأكل على الأرض، وكان يجلس مثل جلوس العبد؛ تواضعاً منه ﷺ.

وكان ﷺ ربما هَزَلَ بغير معصية الله، أو استمع إليه، في السفر والحضر؛ لما في ذلك من استدعاء انبساط أصحابه إليه وإقبالهم عليه، وكان يشارك أصحابه في جدّهم وهزلهم ويداعب أولادهم، وكل ذلك لما ذكرنا.

وكان ﷺ يتفقّد أصحابه فإذا افتقد أحدهم سأل عنه فإن كان مريضاً عاده، وإن مات شهد جنازته وصلى عليه، وإن سافر دعا له بخير.

وكان ﷺ إذا رأى متنازعين أصلح بينهم، وكان يخرج من المدينة ليصلح بين المتنازعين.

وكان ﷺ عظيم الشفقة والرحمة والنصيحة بأصحابه، شديد التلطّف بهم حتى في تبليغ الأحكام إليهم، فإذا كان في تبليغهم بعض الأحكام ما قد ينفرهم شيئاً من

التنفير اختار لذلك الوقت المناسب، وألقاه إليهم بألطف العبارات وأخفّها، ومثال ذلك واضح في حديث: ((علي مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي))[١] وحديث: ((لأبعثنّ بالراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه))[٢] رواهما البخاري، وحديث الغدير: ((من كنت مولاه فعلي مولاه))[٣]، وكحديث ((قولوا: اللهم صل على محمد وآل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد))[٤].

وكانت سنته ﷺ إذا خرج بجيشه لغزو قوم أوهم أنه يريد غيرهم، من غير أن يكذب، وذلك من أجل:

١- أن لا ينصب له الأعداء الكمائن في طريقه لو علموا بوجهته.

---

[١] صحيح البخاري (٥/ ٢٣ رقم ٣٧٠٦)، (٦/ ٣ رقم ٤٤١٦).

[٢] صحيح البخاري (٤/ ٥٧ رقم ٢٩٤٢)، (٥/ ٢٢ رقم ٣٧٠١)، (٥/ ١٧١ رقم ٤٢١٠).

[٣] ذكر هذا اللفظ ضمن حديث الغدير في: المعجم الكبير (٤/ ١٦ رقم ٣٥١٤)، المعجم الأوسط (٢/ ٢٧٥ رقم ١٩٦٦) (٢/ ٣٦٨ رقم ٢٢٥٤)، المعجم الصغير (١/ ١١٩ رقم ١٧٥)، المستدرك على الصحيحين (٣/ ١١٨ رقم ٤٥٧٧) (٣/ ٦١٣ رقم ٦٢٧٢) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وعلق عليه من تلخيص الذهبي بقوله: صحيح. وهو أيضاً في السنن الكبرى للنسائي (٧/ ٤٣٩ رقم ٨٤١٩) وفي خصائص علي (١/ ١٠٢ رقم ٨٨) وغيره من كتب السنة بأسانيد مختلفة، وقد روي أيضاً منفرداً بدون ذكر يوم الغدير كما في الكتاب في مصادر كثيرة جداً تركنا نقلها اختصاراً.

[٤] سنن ابن ماجه (١/ ٢٩٣ رقم ٩٠٤)، مسند ابن أبي شيبة (١/ ٣٤٣ رقم ٥٠٥)، مسند أحمد (٢٨/ ٢٩٩ رقم ١٧٠٦٧)، صحيح ابن حبان (٣/ ١٩٣ رقم ٩١٢)، صحيح مسلم (١/ ٣٠٥ رقم ٤٠٥)، صحيح البخاري (٤/ ١٤٦ رقم ٣٣٧٠)، وغيرها كثير وبروايات متعددة في كل كتاب وإنما تركناها اختصاراً.

٢- أن يصل بجيشه حيث يريد وعدوّه على غير استعداد.

هكذا كانت غزواته ﷺ وسراياه إلا في غزوة تبوك فإنه أظهر وجهته فيها ومراده، وذلك أنها كانت غزوة بعيدة الشقّة تحتاج إلى مراكب وأزواد وإعداد واستعداد.

[أصحاب النبي ﷺ في دولته]

وكان أصحاب النبي ﷺ في حياته على أصناف: مهاجرين وأنصار، وفي كُلٍّ: منافقون وصادقون في إيمانهم، وفيهم المجاهد الفاتك بسيفه في المشركين، وفيهم غير ذلك، وفيهم الثابت في مواطن القتل والقتال الصابر، وفيهم من يفرّ ولا يثبت، وفيهم ذوو الأثر العظيم في الجهاد، وفيهم ذوو الأثر المتوسط، وفيهم ذوو الأثر الضعيف، وفيهم الذي لا أثر له أصلاً، وفيهم من هو شديد التعظيم للنبي ﷺ شديد الحياء منه، وفيهم خلاف ذلك، وفيهم من نوّه النبي ﷺ بفضله، وفيهم غير ذلك، وفيهم من اشتهر بقلّة الأدب مع النبي ﷺ، وفيهم من كان ينتقد النبي ﷺ ويطعن عليه في تصرفاته، وهم أعيان المهاجرين وكبارهم فإنهم طعنوا عليه في تأميره لأسامة، وطعنوا عليه قبل ذلك في تأميره لأبيه زيد بن حارثة، وطعن عليه بعضهم في صلح الحديبية، وفي الصلاة على المنافقين قبل نزول النهي، وفي الصلاة على مرجوم ومرجومة في الزنا.

وكان بعضهم ينزره ﷺ -أي: يرفع صوته بالاستنكار على النبي ﷺ- وكان بعضهم يفرض رأيه على النبي ﷺ، ويأمر النبي ﷺ بقبول ذلك، ويرفع صوته فوق صوته ﷺ.

ومنهم من كان يتكلّم بملءِ فيه ضدّ المشركين فإذا حصل التواجه بالسيوف اختفى، وقد ذكر الله تعالى الكثير من ذلك: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ

يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ وذكر الله أن منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، ومنهم من بدّل، وأن منهم من وهن وضعف واستكان، ومنهم من صبر.

[أصحاب اليد الطولى في نصرة الدين]

وتدل مصادر السيرة النبوية إلى أن اليد الطولى بشكل عام في الجهاد والثبات والقتل والقتال هي للأنصار، ولأشخاص معدودين من المهاجرين، يتبين ذلك في غزوة أحد؛ فإن القتلى من الأنصار كانوا ستة وستين، ومن المهاجرين أربعة قتلى لا غير، ويتبيّن أيضاً في يوم بدر فإن النبي ﷺ حين خرج بالمسلمين إلى بدر وكان قد وعده الله تعالى إحدى الطائفتين، فلما نزل ببدر بلغه أن قريشاً نزلت قريباً منه؛ فشاور المسلمين وطلب آراءهم، فأجابه بعض المهاجرين؛ فكرّر ﷺ السؤال؛ فأجابه بعض المهاجرين، وكرّر السؤال؛ فقام بعض كبار الأنصار فقال: كأنك تعنينا يا رسول الله؟ قال ﷺ: ((نعم))، فقال ما معناه: قد آمنا بك وصدقناك فسر بنا إلى عدونا، والله لو أمرتنا أن نخوض البحر لخضناه معك ما تخلّف منا رجل والله، وتكلم بعده بعضهم فقال قريباً من مقالته، وتكلّم آخر منهم بنحو ذلك؛ فدعا لهم بخير وأمرهم بالمسير إلى عدوّهم، وقال: ((أبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين))، فإن في ذلك دليلاً على أن الأنصار هم الجناح الفعال في الجهاد ومواجهة الأعداء من المشركين.

[الدولة بعد وفاة النبي ﷺ]

وقد مدح الله تعالى الأنصار بأنهم آووا المهاجرين ونصروا الإسلام ونبي الإسلام في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا...﴾ [الأنفال:٧٢، ٧٤].

وقد برز فيهم الكثير وظهر فضلهم ظهوراً كبيراً، ونوّه به النبي الكريم ﷺ، إلا أن الخلافة بعد موت النبي ﷺ صارت خلافة قرشية، تسيطر عليها

رجالات قريش، والمعروف أن قريشاً كانت ألدّ أعداء الإسلام ونبي الإسلام؛ فلما سيطرت على الأمر بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم همَّشَت الأنصار، وجَدَّت في مسح فضائلها، وصغَّرت شأنها، بل إنها سلّطت شعراءها في أول خلافة أبي بكر على ذمّ الأنصار وهجائهم، وقتلت في أوّل خلافة عمر عظيم الأنصار سعد بن عبادة غيلة، وكانت سياسة الخليفة الأول والثاني والثالث خاضعة لسياسة قريش؛ لأن قريشاً بعد دخولها في الإسلام كرهاً يوم الفتح أصبح لها ثقل كبير ووزن عظيم في المجتمع الإسلامي، راجح على وزن الأنصار، مما اضطر الخلفاء الثلاثة إلى موافقة قريش في سياستها، وقدياً قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((الناس تبع لقريش: صالحهم لصالحهم، وطالحهم لطالحهم)).

وقد كانت قريش حاقدة على الأنصار لِمَا فعلوا بهم يوم بدر من القتل والأسر، كما كانت حاقدة على أمير المؤمنين علي عليه السلام لكثرة من قتل منهم في حروبهم مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فكانت الخلافة بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بمثابة انقلاب سياسي على أنصار دولة النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وما زالت آثار ذلك الانقلاب السياسي قائمة حتى اليوم، فأهل السنة اليوم يذمّون من يحب علياً أو أهل بيته ولا يرون لهم حرمة ولا كرامة، ويحكمون عليهم بالضلال، وكل ذلك لأنهم يحبّون علياً وأهل البيت، وكما ذكرنا فإن هذا المذهب وضعه الخلفاء الثلاثة تحت ضغط قريش.

وعلى الجملة فقد اشتهر وتميّز أهل الفضل بفضلهم على عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، وفي عهد الخلافة رفضت قريش أهل الفضل وفضائلهم؛ لعداوتها لهم الناتج عن تاريخهم الطويل في حرب قريش الذي خلّف قتلى كثيرة من قريش في بدر وغيرها، فترى قريش أن لها ثارات عند أولئك.

رُوِّجَ بعد موت النبي ﷺ لشخصيَّات لا ظهور لها في العهد النبوي، ولا أثر ولا فضل، ولا قيمة لها فيه ولا وزن، اللهم إلا فضل الإسلام والهجرة الذي يشترك فيه كلّ مسلم مهاجر، ومن هذه الشخصيات أبو بكر وعمر وعثمان وأبوعبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وسمرة والمغيرة وأبو موسى وأبو هريرة والوليد بن عقبة ومروان بن الحكم وكثير من الطلقاء.

[نزول فريضة الحج]

نزلت فريضة الحج في السنة السادسة من الهجرة، وقد كانت عادته ﷺ إذا نزل عليه أمر أن يبادر إلى امتثاله من غير تأخّر، ولكنه حين نزلت فريضة الحج أخَّرَ الامتثال إلى السنة العاشرة للهجرة، وقد ذكر العلماء بعض الأسباب التي دعت النبي ﷺ إلى تأخير الحج:

١- فقيل: السبب هو أن الحج في السنين التي قبل السنة العاشرة كان في غير وقته، وذلك بسبب النسيء الذي صنعه المشركون، والنبي ﷺ لا يرضى ولا يحبّ أن يحج في غير وقت الحج.

٢- وقيل: السبب أن المشركين فيما قبل السنة العاشرة كانوا يحجّون البيت الحرام وكانوا يطوفون بالبيت وهم عراة، فكره النبي ﷺ أن يختلط بهم ويصحبهم في هذه العبادة العظيمة.

[البعث بالبراءة سنة ٩ هـ]

قبل حجة الوداع بسنة أي في السنة التاسعة بعث النبي ﷺ أبا بكر بأول سورة براءة ليقرأها على أهل موسم الحج؛ فلما خرج أبو بكر من المدينة نزل جبريل على النبي ﷺ وقال: ((لا ينبغي أن يبلِّغ المشركين سورة براءة إلا أنتَ أو رجل منك))(١)، فدعا النبي ﷺ علياً أن يلحق أبا بكر ويأخذ منه براءة ويبلّغها هو على أهل الموسم، فمضى علي عليه السلام وأخذ براءة من أبي بكر وأدّى ما عهد إليه النبي ﷺ من البلاغ إلى المشركين، فكان علي عليه السلام ينادي في جموع الحجيج أيام منى.

ومن جملة ما بلّغه إلى أهل الموسم: أنه لا يحجنّ بعد هذا العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له من المشركين عهد مع الرسول ﷺ فعهده إلى مدّته، ومن لم يكن له مع النبي ﷺ عهد فله أربعة أشهر يذهب ويجيء فيها، وبعدها لا أمان له إلا بالإسلام.

---

(١) فضائل الصحابة لأحمد بن حنبل (٢/ ٧٠٣ رقم ١٢٠٣)، وفتح الباري (٨/ ٣١٨)، وفي المسند (٢/ ٤٢٧ رقم ١٢٩٦)، المستدرك (٣/ ٥٣ رقم ٤٣٧٤)، مجمع الزوائد (٧/ ٢٩ رقم ١١٠٣٦) بلفظ: ((لن يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك)). وانظر تخريجه كاملاً في كتاب لوامع الأنوار للإمام الحجة مجدالدين بن محمد المؤيدي عليه السلام.

[حجة الوداع سنة ١٠ هـ]

ثم بعد عام من تبليغ هذا البلاغ إلى المشركين أعلن إلى جميع المسلمين في المدينة وخارج المدينة أنه سيحج هذا العام، وأراد ﷺ بهذا الإعلان أن يحج معه ما أمكن من المسلمين ليعرفوا مناسك حجّهم من أوّلها إلى آخرها معرفة مستحكمة، فخرج للحج جموع كثيرة من شتّى البلدان الإسلامية في الجزيرة العربية ليأتموا بالنبي ﷺ في الحج، فحج النبي ﷺ والمسلمون وأمرهم أن يتعلّموا من أفعاله ومن أقواله، فقال لهم: ((أيها الناس خذوا عني مناسككم))، وكان يكرّر عليهم التعليم بالقول، فعلّمهم ﷺ مناسك حجهم يوم التروية في مكة، ثم كرّر عليهم التعليم في عرفة بعد صلاة الظهر والعصر، ثم علّمهم مناسكهم في يوم النحر، وكان هذا التعليم عاماً لجميع الحجاج، وكان مع ذلك يجيب على المستفتين ويرشد الجاهلين.

وقد ركَّز النبي ﷺ في حجه هذا - زيادة على تعليم المسلمين مناسك حجهم - على الوصيّة بكتاب الله تعالى وبأهل بيته، فقال في خطبة يوم عرفة: ((إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدي أبداً كتاب الله وعترتي أهل بيتي إن اللطيف الخبير نبأني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض))(١).

---

(١) حديث الثقلين المتواتر الذي أجمعت الأمة على صحته قد تكرر في عدة مواطن في مجامع الناس، منها في خطبة يوم عرفة على الحجيج، ومنها في خطبة يوم الغدير في الجحفة، ومنها في مرض الوفاة في المسجد، ومنها في مرض الوفاة في حجرته ﷺ وقد امتلأت الحجرة بأصحابه، وغيرها من المواطن. هذا، وممن روى حديث الثقلين في يوم عرفة- الترمذي في سننه عن زيد الأنماطي عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، وكذلك الطبراني في الكبير والأوسط، ورواه الخطيب في المتفق والمفترق عن إبراهيم الأزدي عن جعفر عن جابر، والرافعي في التدوين عن حاتم بن إسماعيل عن جعفر..إلخ، وفي جامع =

ونادى النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بعض خطبه بإهدار دماء الجاهلية وبوضع الربا، وبتحريم دماء المسلمين وأموالهم وأعراضهم، وبغير ذلك من معالم الإسلام وشرائعه العظيمة صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

فمن هنا استحكمت معرفة المسلمين مناسك حجهم، وشعائره، ووقته.

[حديث الغدير]

لما أكمل النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون مناسك حجهم رجعوا إلى بلدانهم، فخرج النبي صلى الله عليه وآله وسلم من مكة راجعاً إلى المدينة؛ فلما بلغ صلى الله عليه وآله وسلم الجحفة نزل في غير وقت نزول وأمر المسلمين بالنزول في وقت شديد الحرِّ بقرب غدير يقال له: غدير خم، فلما نزل الناس واطمأنّوا قام النبي صلى الله عليه وآله وسلم على مكان مرتفع فحمد الله وأثنى عليه و...و...ثم[1] قال: ((أيها الناس ألست أولى بكم من أنفسكم لا أمر لكم معي؟)) قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ((فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله))، ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: ((هل بلغت؟)) قالوا: نعم، قال: ((اللهم فاشهد)) و...الخ.

هذا هو حديث الغدير المشهور المتواتر المعلوم[2]، وقد كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أراد

الأحاديث للسيوطي بعد ذكر الحديث [الترمذي -حسن غريب- وابن ماجه والطبراني عن جابر] وذكر اليعقوبي في تاريخه حج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخطبته يوم عرفة ومنها حديث الثقلين بطريقين عن ابن عمر وعن سعد بن أبي وقاص.

(١) ومنها حديث الثقلين، وقد رسم صلى الله عليه وآله وسلم في خطبته يوم الغدير طريق نجاة أمته من بعد وفاته إلى انقطاع التكليف فذكر ولاية أهل البيت عليهم السلام عموماً في حديث الثقلين، ثم ذكر ولاية أمير المؤمنين عليه السلام على وجه الخصوص.

(٢) في شرح مذاهب أهل السنة لابن شاهين: وقد روى حديث غدير خم عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نحو مائة نفس وفيهم العشرة، وفي مناقب ابن المغازلي الشافعي ذكر مثل ذلك. وقال الذهبي في سير أعلام النبلاء: ومتنه فمتواتر. انتهى. وقال فيه أيضاً: أبهرتني سعة رواياته فجزمت بوقوع =

أن يبلغ المسلمين في الحج في علي بهذا البلاغ فضاق النبي ﷺ ذرعاً بهذا البلاغ؛ لما يعلمه من عداوة قريش وكراهتها لعلي عليه السلام لما صنع فيهم من القتل في حروبهم مع النبي ﷺ، ولما يعلمه من حسد الناس لعلي؛ فأَجَّلَ ﷺ تبليغ ذلك إلى وقت آخر وفرصة ثانية، فلما خرج ﷺ من مكة راجعاً إلى المدينة نزل عليه الوحي يأمره بتبليغ ذلك، وذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ...﴾ الآية [المائدة:٦٧]، فنزل ﷺ في الجحفة وبلغ ذلك.

ذلك. انتهى. وفي فتح الباري لابن حجر: وهو كثير الطرق جداً وقد استوعبها ابن عقدة في مؤلف مفرد، وأكثر أسانيدها صحيح أو حسن. انتهى. وفي كشف الخفاء للعجلوني: والحديث متواتر أو مشهور. انتهى. وذكر المناوي في التيسير عن السيوطي القول بتواتره، وقال ابن الجزري في مناقب الأسد الغالب: هذا حديث حسن صحيح من وجوه كثيرة تواتر عن أمير المؤمنين علي وهو متواتر أيضاً عن النبي ﷺ رواه الجم الغفير عن الجم الغفير. انتهى. ولمعرفة المزيد انظر كتاب لوامع الأنوار للإمام الحجة مجدالدين بن محمد المؤيدي عليه السلام.

الخلافة

ما زال النبي ﷺ يمهد ويرتب منذ مبعثه إلى حين وفاته لخلافة أهل بيته وعلى رأسهم علي بن أبي طالب، وكُتُبُ حديث أهل السنة والجماعة بما فيها الصحاح مشحونة بما ذكرنا(١)، إلا أنه لم يكتب النجاح لذلك التمهيد والترتيب.

مـا كـلّ مـا يتمنّـى المـرء يدركـه تجري الرياح بـما لا تشـتهي السـفن

وقد كان النبي ﷺ حريصاً كل الحرص على نجاح ما رتب(٢) حتى إنه ﷺ في مرض موته حشر القوم الذين يخشاهم على الخلافة في جيش كبير، وأَمَّر عليهم أسامة بن زيد، وأمرهم بالمسير إلى حيث قتل جعفر وزيد وعبدالله بن رواحة، وحثّهم على المسير، فتثاقلوا؛ فغضب النبي ﷺ، وقال لهم: ((أنفذوا بعث أسامة، لا يتخلَّف عن بعث أسامة إلا عاص لله ولرسوله))، فتثاقلوا، ولم ينفّذوه، وطعنوا على النبي ﷺ في تأميره أسامة على وجوه الصحابة، فغضب النبي ﷺ، وقال: ((لئن طعنتم على تأميري أسامة فقد طعنتم على تأميري أباه من قبله، وأيم الله إنه لخليق بالإمارة))(٣).

---

(١) من ذلك خبر الدار يوم الإنذار عندما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤]، وخبر ليلة الإسراء، وخبر المنزلة وهو في مواطن كثيرة، وخبر الغدير، وقد تقدم ذكرها، وكذلك أخبار الوصاية والسيادة والوراثة والخلافة وغير ذلك كثير جداً، انظر كتاب لوامع الأنوار للإمام الحجة مجدالدين بن محمد المؤيدي عليه السلام.

(٢) وبهذا يتضح للعيان الأهمية الكبرى لهذا الموضوع في الدين الإسلامي، ولذا يجعله أئمتنا عليهم السلام من مسائل أصول الدين.

(٣) كنز العمال (١٠/ ٥٧٠ رقم ٣٠٢٦٤)، الطبقات الكبرى (٢/ ١٩١)، أنساب الأشراف (١/ ٤٧٤ رقم ٩٥٥) ولفظه فيه: فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، أَنْفِذُوا بَعْثَ أُسَامَةَ، فَلَعَمْرِي لَئِنْ قُلْتُمْ فِي إِمْرَتِهِ، لَقَدْ قُلْتُمْ فِي إِمْرَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلِهِ، وَلَقَدْ كَانَ أَبُوهُ لِلإِمَارَةِ خَلِيقًا، وَإِنَّهُ لَخَلِيقٌ بِهَا. وَكَانَ فِي جَيْشِ أُسَامَةَ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَوُجُوهٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ رَضِيَ اللَّه تَعَالَى عَنْهُمْ.

ثم أمرهم بتنفيذ البعث وحثّهم عليه، فتثاقلوا ورفضوا الأمر، وتعلَّلوا بما معناه: أنهم رفضوا تنفيذ البعث لشفقتهم على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مرضه، وخوفهم عليه، وإنهم يكرهون أن يغيبوا عنه وهو على تلك الحال، وأنهم إذا غابوا انقطع عنهم خبره صلى الله عليه وآله وسلم ولا يأتيهم من خبره صلى الله عليه وآله وسلم إلا ما تجيئهم به الركبان(١).

وكان هذا الجيش قد ضمّ وجوه المهاجرين بما فيهم أبو بكر وعمر(٢)، فرجع أكثر ذلك الجيش المدينة وعلى رأسهم أبو بكر وعمر، ولبث أسامة مكانه حيث

(١)- ذكر بعث أسامة وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمَّرَه على كبار الصحابة، والتأكيد على إنفاذه: ابن هشام في السيرة، تهذيب الكمال، تاريخ دمشق، الطبقات الكبرى لابن سعد، مجمع الزوائد، الحاوي الكبير، وغيرها.

(٢) في مجموع الإمام القاسم بن إبراهيم عليه السلام وسألته: هل كان أبو بكر وعمر في بعث أسامة بن زيد وكيف هذا؟ فقال: قد كانا جميعاً في جيشه وبعثه. وفي كتاب تثبيت الإمامة للإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين عليه السلام، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: ((أنفذوا جيش أسامة ولا يتخلف عن جيش أسامة إلا من كان عاصياً لله ورسوله))، فلما صار أسامة بعسكره على أميال من المدينة بلغهم مرض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فرجع أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح فلما دخلوا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تغير لونه وقال: ((اللهم إني لا آذن لأحد أن يتخلف عن جيش أسامة)) وهمَّ أبو بكر بالرجوع إلى أسامة واللحوق به فمنعه عمر. انتهى. وقال الإمام الحجة مجدالدين بن محمد المؤيدي عليه السلام في لوامع الأنوار في حديثه عن بعث أسامة وشدّد في تنفيذه غاية التشديد وتوعد على التخلف عنه نهاية الوعيد وكان في جملته أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وغيرهم من المهاجرين والأنصار غير أهل بيت النبوة وتخلف المذكورون عن الجيش وكان من أمر السقيفة ما كان وجميع ذلك معلوم للأنام متفق على نقله بين أهل الإسلام. انتهى. قال البلاذري في أنساب الأشراف: وكان في جيش أسامة أبو بكر وعمر ووجوه من المهاجرين والأنصار وروى ذلك اليعقوبي في تاريخه وابن سعد في الطبقات وابن هشام في سيرته وابن عساكر في تاريخ دمشق، وابن أبي شيبة في مصنفه والمتقي الهندي في كنز العمال وغيرهم وقال الذهبي في تاريخ الإسلام: فلم يبق أحد من المهاجرين والأنصار إلا انتدب في تلك الغزوة فيهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة. وروى أمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم بتنفيذ بعث أسامة الطبراني في الكبير والبيهقي في سننه وابن حبان في الثقات وعبدالرزاق في مصنفه وابن عساكر في تاريخ دمشق والخطيب في المتفق والمفترق والطبري في تاريخه وابن سعد في الطبقات وابن هشام في سيرته وابن كثير في البداية والنهاية واليعقوبي في تاريخه وغيرهم.

أمره النبي ﷺ أن يقف ليجتمع الناس إليه.

والذي يظهر للمتأمّل أن الرافضين لتنفيذ بعث أسامة -وعلى رأسهم أبو بكر وعمر- قد أدركوا نوايا نبيِّهم ﷺ وفهموا أنه يريد أن تكون المدينة خالية عند موته ممن يخشى منهم منازعة أهل بيته في الخلافة؛ لذلك تمردوا عن تنفيذ أمر النبي ﷺ، وتعللوا، ورجعوا إلى المدينة.

وبعد أن أخفق هذا المخطط الذي رسمه النبي ﷺ أراد النبي ﷺ أن يثبِّت خلافة علي بطريقة أخرى، فطلب ﷺ أن يأتوه بقلم ودواة ليكتب لهم كتاباً لا يضلون بعده، فكان عمر بن الخطاب بالمرصاد، حيث قال: إن رسول الله ﷺ يهجر -أي: يهذي- وقال أيضاً: أكتاباً غير كتاب الله يريد؟ وقال: حسبنا كتاب الله، وكان عند النبي ﷺ جماعة فقال بعضهم: القول ما قال عمر، وقال البعض الآخر: أعطوا رسول الله ﷺ دواة وقلماً، وارتفعت أصوات الفريقين عند النبي ﷺ فقال ﷺ: ((إنه لا ينبغي عند نبي تنازع))(١)، وأمر بخروج الحاضرين وأعرض عن كتابة الكتاب؛ لأنه ﷺ عرف أن لا فائدة من كتابته؛ لأنه لو كتبه لطعنوا فيه بأن النبي ﷺ كتبه وهو يهذي ويهجر من شدة المرض، وبذلك تمّ لعمر وأصحابه إفشال مخططين اثنين أصدرهما النبي ﷺ:

١- تنفيذ بعث أسامة.

٢- كتابة وصية النبي ﷺ.

وكان ابن عباس يبكي ويقول: «الرزيَّة كلّ الرزيَّة ما حال بين رسول الله ﷺ وبين كتابة الكتاب))(٢).

---

(١) رواه البخاري ومسلم عدة روايات في صحيحيهما والنسائي في سننه وأحمد في مسنده والطبراني في الكبير وابن حبان في صحيحه والفاكهي في أخبار مكة وعبدالرزاق في مصنفه وغيرهم.

(٢)- ذكرت هذه الحادثة بتفاصيلها في: صحيح البخاري، صحيح مسلم، سنن النسائي، مصنف =

[وفاة النبي الكريم ﷺ]

مرض النبي ﷺ أياماً ثم مات ﷺ بعد أن بلّغ رسالات ربه بتمامها وكمالها.

وقد كان الصحابة من المهاجرين والأنصار يرتّبون للخلافة؛ فالأنصار يريدون الخلافة لهم، والمهاجرون من قريش يريدونها لهم وأنهم أولى بها، وكان الرسول ﷺ في مرض موته يرتّب لخلافة على وأهل بيته، فحشر ﷺ كبار المهاجرين وغيرهم في جيش تحت إمرة أسامة بن زيد وأمره النبي ﷺ أن يسير بذلك الجيش إلى حيث قُتِل أبوه، وأراد النبي ﷺ بهذا البعث أن يبعد أعيان المهاجرين عن المدينة ويشغلهم عن طمعهم في الخلافة، فتثاقلوا ولم يسمعوا لحثّ النبي ﷺ؛ فإن في ذلك دليلاً على ما ذكرنا من ترتيب المهاجرين لأخذ الخلافة، ودلالة أيضاً على ما كان يريده ﷺ من الترتيب لها، أما الأنصار فقد اجتمعوا يوم مات النبي ﷺ وأرادوا أن يبايعوا بالخلافة لسعد بن عبادة.

- وكان ابن عباس كما في رواية الصحيحين يبكي حتى بل الثرى ويقول: الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين كتابة الكتاب.
- ما ذكرنا حقائق تاريخية صحيحة مروية في صحاح أهل السنة.
- وكل ذلك يدل على أن الغالبية العظمى من الصحابة تراجعوا عن بعض تعاليم دينهم وتركوا وصيّة نبيهم ﷺ وراء ظهورهم ولم يلتفتوا إليها ولم يبالوا بمخالفتها، وقد كان النبي ﷺ أوصاهم بالثقلين كما في صحيح مسلم وهما كتاب الله وعترته ﷺ أهل بيته، وفي الحديث –مسلم –: ((أذكركم الله في أهل بيتي أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي))، هكذا في صحيح مسلم.

عبدالرزاق، مسند أحمد، صحيح ابن حبان، السيرة النبوية لابن كثير، سير أعلام النبلاء، الطبقات الكبرى، تاريخ الإسلام، وغيرها كثير.

[خلافة قرشية بحتة]

كان لقريش وزنها وثقلها حين دخلت في الإسلام، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((الناس تبع لقريش صالحها لصالحها، وطالحها لطالحها))، لذلك صار الناس بعد دخولها في الإسلام تبعاً لها، وقريش -وإن دخلت في الإسلام- فلا زالت صدروهم تغلي على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلى بني هاشم ولا سيما علي عليه السلام، وذلك لما لحقها في حروبها مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم من القتل والأسر والهزائم، ثم دخوله مكة قهراً، وإرغامه لهم على الإسلام، وهذا بالإضافة إلى ما كان بين قبائل قريش من التنافس في الشرف، فرأت قريش أن بني هاشم قد سبقوهم في الشرف وأخذوا عليهم الفخر بأطرافه حيث بعث فيهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فبعد موت النبي صلى الله عليه وآله وسلم أصبح علي عليه السلام هو المسؤول الأول عن ثاراتها، فصبَّتْ عليه أحقادها ووجهت إليه سهام غلّها؛ لذلك جهدت أن تحول بينه وبين الخلافة، ومن هنا قال عمر بن الخطاب لابن عباس في كلام دار بينهما: إن قريشاً كرهت أن تجتمع لكم الخلافة والنبوّة فتبجحوا على قريش بجحاً(١).

وكان علي بن أبي طالب رحمة الله عليه يكثر التشكّي من قريش، وكان يقول: (والله ما زلت مظلوماً منذ قبض الله نبيه عليه وعلى آله السلام)؛ فلما مات النبي صلى الله عليه وآله وسلم سيطرت قريش على الخلافة، فكانت خلافة قرشية بحتة، ليس لبني هاشم فيها أي حظّ ولا نصيب، وليس للأنصار -أهل المدينة- أيضاً فيها حظ ولا نصيب، فوجدت قريش باستيلائها على الخلافة فرصة للانتقام من أهل

(١) ذكره الطبري في تاريخه (٢/ ٥٧٨/ ط: دار الكتب العلمية) بلفظ: فقال عمر: كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة فتبجحوا على قومكم بجحاً بجحاً..إلخ، ومثله في الكامل في التاريخ (٢/ ٤٣٩)، وفي شرح نهج البلاغة (١٢/ ٥٣): فيجحفوا جحفاً.

البيت، ومن الأنصار، غير أن تلك الفرصة لم تكن كافية للانتقام الكامل -القتل والإبادة- لقرب العهد بالنبي ﷺ فعمدت الخلافة القرشية إلى الانتقام بما هو دون ذلك وهو:

١- أخذ أموال[١] فاطمة من تحت يدها وكانت أموالاً كثيرة، وذلك لإضعاف علي مادياً.

٢- إبعاد علي وسائر رجالات بني هاشم عن جميع أعمال الخلافة.

٣- إبعاد الأنصار أيضاً من جميع أعمال الخلافة.

٤- تذويب شخصية علي وطمس فضائله، وإشاعة الدعايات ضدّه، والترويج لشخصيات قرشية.

٥- سلّطت قريش شعراءها في أوّل خلافة أبي بكر على هجو الأنصار وذمّهم.

٦- قتلت قريش سعد بن عبادة سيد الأنصار غيلة في خلافة عمر.

وعلى الجملة فقد كانت الخلافة بعد النبي ﷺ بمثابة انقلاب سياسي على الدولة التي أسَّسها النبي ﷺ، حُوكِمَ فيه أعظم أنصار النبي ﷺ وعلى رأس المحاكَمين علي بن أبي طالب.

بل حوكمت ابنة النبي ﷺ فاطمة الزهراء فأُخِذَ مالها الذي نحلها أبوها

---

(١) روى القصة كاملة البخاري في صحيحه ومسلم في صحيحه والترمذي في سننه، وذكر أنها لم تكلم أبا بكر وعمر حتى ماتت، وابن حبان في صحيحه، وعبدالرزاق في مصنفه، وأحمد في مسنده، والبيهقي في سننه، وفي دلائل النبوة، والطبراني في مسند الشاميين، والطحاوي في مشكل الآثار، وابن سعد في الطبقات وغيرهم. وروى سؤالها لأبي بكر ميراثها من رسول الله ﷺ روى ذلك أبو داود في سننه، والنسائي في سننه، والطبراني في الأوسط، وأبو يعلى في مسنده، والبغوي في شرح السنة، وابن الجارود في المنتقى، والضياء في المختارة، وأبو عوانة في مستخرجه، وابن عساكر في معجمه، وابن الأعرابي في معجمه وغيرهم.

ﷺ وانتهكوا حرمتها، وماتت كمداً مما لحقها من أبي بكر وعمر، وأوصت أن لا يصلي عليها أبو بكر وعمر.

وقد أجمع المسلمون على أن رضاها من رضا الله، وغضبها من غضب الله.

هذا وقد استطاعت الخلافة القرشية بقوّة نفوذها وشوكة سلطانها أن تجعل حبّ علي وحبّ أهل بيت النبي ﷺ ذنباً لا يغفر، بل استطاعت أن تجعل ذلك من قواعد الدين وأُسُسِهِ، وما زالت تلك العقائد سارية المفعول حتى اليوم، وفي المقابل استطاعت أن تخلق للخلفاء الثلاثة ولمعاوية قداسة عالية، وأن تجعل لهم حصانة عظيمة، وأدخلت ذلك في صلب عقيدة المسلمين، وأدخلت في صلب العقيدة أن أيّ خدش في القداسة أو أي اختراق للحصانة يعتبر زندقة وكفراً.

[دور قريش في خلافة الثلاثة]

الخلفاء الثلاثة دخلوا في الإسلام قديماً وهاجروا مع النبي ﷺ، وشهدوا مع النبي ﷺ حروبه مع المشركين واليهود، إلا أنه لم يكن لهم في تلك الحروب أي دور بل المذكور عنهم هو الفرار يوم أحد وفي خيبر ويوم حنين، إلا أنهم مع سابقتهم في الإسلام تحالفوا مع قريش أخيراً حين دخلت قريش في الإسلام قهراً، واتفقوا سراً على التعاون على إبعاد علي وبني هاشم عن الخلافة، وأيضاً إبعاد الأنصار والاستيلاء على الخلافة، ويمكن الاستدلال على ذلك بما يلي:

-إعطاء قيادة الجيوش لولدي أبي سفيان سيّد قريش وأشدّ أعداء الرسول ﷺ وهما: يزيد بن أبي سفيان، ثم من بعده لمعاوية بن أبي سفيان، ولخالد بن الوليد ولأشراف قريش.

-كثرة تشكّي أمير المؤمنين علي بن أبي طالب من قريش، وفي نهج البلاغة الكثير من ذلك، مثل قوله عليه السلام: (اللهم إني أستعديك على قريش فإنهم قطعوا

رحمي... إلخ)، وقوله: (جزت قريشاً عني الجوازي... إلخ).

-قول عمر بن الخطاب لابن عباس: «كرهت قريش أن تجتمع لكم الخلافة والنبوة».

-وقول عمر أيضاً لابن عباس: «إن قومك -أي: قريش- استصغروه -أي: علي بن أبي طالب-»(١).

-وقول علي عليه السلام وقد قيل له: إنك على هذا الأمر لحريص، فقلت: (بل أنتم والله أحرص وأبعد، وأنا أخصّ وأقرب، وإنما طلبت حقاً لي، وأنتم تحولون بيني وبينه، وتضربون وجهي دونه... إلخ).

-وقوله عليه السلام: (فدع عنك قريشاً وتركاضهم في الضلال، وتجوالهم في الشقاق، وجماحهم في التيه، فإنهم قد أجمعوا على حربي كإجماعهم على حرب رسول الله ﷺ قبلي، فجزت قريشاً عني الجوازي، فقد قطعوا رحمي، وسلبوني سلطان أبي و...إلخ).

وبعد، فلولا قريش ومكانتهم لم يستطع أبو بكر وعمر أن يتمردا على أوامر الرسول ﷺ في تنفيذ بعث أسامة، ولما استطاع عمر بن الخطاب أن يحول بين الرسول ﷺ وبين كتابة الكتاب، ولما استطاع أبو بكر وعمر أن يستوليا على الخلافة على رغم الأنصار، وعلى رغم بني هاشم، ولولا مكانة قريش وقوّتها لما سكت علي وبنو هاشم.

---

(١) انظر عن هذا وما سبق من قول عمر: شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (٦/ ٤٥- ١٢/ ٥٣)، كنز العمال (١٣/ ١٠٦) تاريخ دمشق (٤٢/ ٣٤٩) تاريخ الطبري (٤/ ٢٢٢) الكامل في التاريخ (٢/ ٤٣٩).

[مركز أهل البيت عليهم السلام بعد موت النبي صلى الله عليه وآله وسلم]

ضعف مركز أهل البيت في المجتمع الإسلامي بعد موت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وذابت شخصياتهم في المجتمع ذوبان الملح في الماء، ولم يبقَ لهم قيمة ولا وزن في ذلك المجتمع، وكل ذلك بفعل سياسة الخلافة القرشية، التي ركّزت من يومها الأول على تهميش علي وأهل البيت عليهم السلام وتصغير شأنهم، وسحب الثقة عنهم، ودفن فضائلهم، وإشاعة الدعايات ضدّهم، و.... إلخ.

وقد كان الغرض من كل ذلك:

١-أن علياً وأهل البيت هم المنافسون الوحيدون على الخلافة، مع ما يُدْلُون به من الحجج والبراهين الواضحة على استحقاق الخلافة، ولا سيما علي بن أبي طالب، مما أدى بالخلافة القرشية إلى الجدّ والتشمير من أول يوم في إبعاد ذلك الخطر الذي يهدد خلافتهم.

٢-كراهة قبائل قريش لقبيلة بني هاشم، وهذه الكراهة تاريخية أثارتها المنافسات الطويلة على الشرف بين بيوتات قريش، وقد عبّر عن هذه المنافسة أبو جهل حيث قال ما معناه:

ما زلنا نتسابق نحن وبنو هاشم على الشرف والفخر حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا: منّا نبي، والله لا يكون هذا أبداً. وقد رأت قريش أن بني هاشم قد سبقوهم بشرف النبوّة ويئسوا أن يلحقوهم في هذا الشرف، فحقدوا على بني هاشم، وحين تغلّبت قريش على الخلافة بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أبدت حقدها وسعت غاية السعي في تنفيذ ما في صدورها.

٣-ترى قريش أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وَتَرَها في حروبها ضده، وأذلّها، وقهرها، وأدخلها في سلطانه قهراً، وفعل بها الأفاعيل، ولم تجد قريش بعد موت النبي

ﷺ من تُعَلِّق به ثاراتها إلا علياً وفاطمة في الدرجة الأولى، ثم سائر بني هاشم في الدرجة الثانية.

فلما استولت قريش على الخلافة حانت لها الفرصة للانتقام والتشفي، وقد ذكرنا فيما تقدم كيف تعاملت قريش في أول خلافتها مع علي وفاطمة -أهل البيت- لذلك أصبح مركز أهل البيت في عهد الخلافة القرشية مركزاً ضعيفاً، صبَّت عليه قريش في خلافتها أحقادها التاريخية، وقطعت حبال المودة، ولم تراع في ذلك المجال وصايا الرسول ﷺ، ولا وشائج الأرحام، ولا حقوق الإيمان والإسلام، فجهدت قريش غاية الجهد وسعت غاية السعي إلى طمس فضائل علي عليه السلام وإلصاق التهم والمعائب بشخصيّته فما زالت تلك السياسة جاهدة حتى صار بغض علي وكراهته ثقافة عامة داخلة ضمن الثقافة الإسلامية، بل صار بغضه أخيراً من أساسيات الإسلام وقواعده، فكان علي في نظر تلك القوانين والسنن أعظم مجرم، وأكبر عدوّ لخلافتهم، ولم تظهر هذه السنن ظهوراً مكشوفاً على المستوى العام إلا في عهد معاوية بن أبي سفيان حيث أظهر تلك السنة فأمر بلعن علي عليه السلام في خُطَبِ الجمعة في جميع مساجد المسلمين، ثم بعد ذلك قتل يزيدُ بن معاوية الحسينَ بن علي بن أبي طالب، وسبعة عشر رجلاً من أهل بيته وداسوا جثثهم بحوافر خيولهم وَسَبَوْا نساءهم.

وقد أرادت السياسة بعد النبي ﷺ وما تعقّبها على اتخاذ إصلاحات في دين الإسلام منها: التشطيب على أهل بيت النبي ﷺ وعلى رأسهم علي بن أبي طالب، ونسف مركزهم الذي بناه لهم رسول الله ﷺ في الإسلام، وأرادت تلك السياسة أن يكون دين الإسلام خالياً عن ذكر علي وأهل البيت، وأن يكون بعيداً عنهم، وأن يصبح الإسلام في جانب وعلي وأهل البيت في جانب، ومع مرور

الزمن نجحت هذه السياسة نجاحاً تاماً، وذلك في عهد معاوية بن أبي سفيان، فإنه أصبح الإسلام في عهده خالياً وصافياً من علي وأهل البيت، وأصبح علي وأهل البيت في جانب والإسلام في جانب ولا يكون المسلم مسلماً حقاً إلا بشرط أن يتبرّأ من دين علي، وأصبح لعن علي[1] من السنن اللازمة على كل مسلم،

(١) قال في النصائح الكافية لمحمد بن عقيل: «ولنذكر هنا طرفاً مما صح ونقل عن معاوية وأتباعه من هذا القبيل: قد مر بك أن رسل معاوية إلى حجر بن عدي وأصحابه قالوا لهم قبل القتل: إنا قد أمرنا أن نعرض عليكم البراءة من علي واللعن له، فإن فعلتم تركناكم، وإن أبيتم قتلناكم؛ فقالوا: لسنا فاعلي ذلك فقتلوهم. (بعض ما نقل عن معاوية وأتباعه من لعن علي وسبه): أخرج مسلم في صحيحه والترمذي والنسائي في الخصائص عن عامر بن سعد بن أبي وقاص قال: أمر معاوية بن أبي سفيان سعداً فقال: ما يمنعك أن تسب أبا تراب؟ فقال: لا، ما ذكرت ثلاثاً قالهن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فلن أسبه؛ لأن تكون لي واحدة منهن أحب إلي من حمر النعم، وذكر قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ((أنت مني بمنزلة هارون من موسى ..)) الحديث المشهور، وزاد أبو يعلى عن سعد من وجه آخر: قال: لو وضع المنشار على مفرقي على أن أسب علياً ما سببته أبداً. ونقل ابن الأثير: أن معاوية كان إذا قنت سب عليا وابن عباس والحسن والحسين والأشتر. قال ابن عبد ربه في العقد: لما مات الحسن بن علي حج معاوية فدخل المدينة وأراد يلعن عليا على منبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقيل له: إن هاهنا سعد بن أبي وقاص ولا نراه يرضى بهذا فابعث إليه وخذ رأيه، فأرسل إليه وذكر له ذلك، فقال: إن فعلت ذلك لأخرجن من المسجد ثم لا أعود إليه، فأمسك معاوية عن لعنه حتى مات سعد، فلما مات لعنه على المنبر، وكتب إلى عماله أن يلعنوه على المنابر، ففعلوا؛ فكتبت أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى معاوية: «إنكم تلعنون الله ورسوله على منابركم؛ وذلك أنكم تلعنون علي بن أبي طالب ومن أحبه، وأنا أشهد أن الله أحبه ورسوله» فلم يلتفت أحد إلى كلامها مع علمهم بصحة روايتها وشرف مقامها، صم بكم عمي مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيرا. ونقل أبو عثمان الجاحظ في كتاب الرد على الإمامية: أن معاوية كان يقول في آخر خطبته: اللهم إن أبا تراب ألحد في دينك، وصد عن سبيلك، فالعنه لعناً وبيلاً، وعذبه عذاباً أليماً، قال: وكتب بذلك إلى الآفاق، فكانت هذه الكلمات يشاد بها على المنابر إلى أيام عمر بن عبد العزيز. وروى فيه أيضا: أن قوماً من بني أمية قالوا لمعاوية: يا أمير المؤمنين، إنك قد بلغت ما أملت فلو كففت عن هذا الرجل؛ فقال: لا والله، حتى يربو عليه =

الصغير، ويهرم عليه الكبير، ولا يذكر له ذاكر فضلا.

(تتبع معاوية شيعة علي وأسباب وضع الأحاديث): وروى أبو الحسن المدائني في كتاب الأحداث قال: كتب معاوية نسخة واحدة إلى عماله بعد عام الجماعة: أنْ برئت الذمة ممن روى شيئا من فضل أبي تراب وأهل بيته، فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر يلعنون علياً، ويبرأون منه ويقعون فيه وفي أهل بيته، وكان أشد الناس بلاء حينئذ أهل الكوفة؛ لكثرة من بها من شيعة علي عليه السلام، فاستعمل عليهم زياد بن سمية وضم إليه البصرة، فكان يتتبع الشيعة وهو بهم عارف؛ لأنه كان منهم أيام علي عليه السلام، فقتلهم تحت كل حجر ومدر، وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل، وسمل العيون، وصلبهم على جذوع النخل، وطردهم وشردهم عن العراق، فلم يبق بها معروف منهم. وكتب معاوية إلى عماله في جميع الآفاق: أن لا يجيزوا لأحد من شيعة علي شهادة، وكتب إليهم: أن انظروا من قِبَلَكم من شيعة عثمان ومحبيه وأهل ولايته الذين يروون فضائله ومناقبه فأدنوا مجالسهم، وقربوهم وأكرموهم واكتبوا إلي بكل ما يروي كل رجل منهم واسمه واسم أبيه وعشيرته، ففعلوا ذلك حتى أكثروا في فضائل عثمان ومناقبه؛ لما كان يبعثه إليهم معاوية من الصِّلاة والكساء والحباء والقطائع، ويفيضه في العرب منهم والموالي، فكثر ذلك في كل مصر، وتنافسوا في المنازل والدنيا، فليس يجد امرأ من الناس عاملٌ من عمال معاوية فيروي في عثمان فضيلة أو منقبة إلا كتب اسمه وقربه وشفعه، فلبثوا بذلك حينا، ثم كتب إلى عماله: إن الحديث في عثمان قد كثر وفشا في كل مصر وكل وجه وناحية، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوا الناس إلى الرواية في فضائل الصحابة والخلفاء الأولين، ولا تتركوا خبرا يرويه أحد من المسلمين في أبي تراب إلا وائتوني بمناقض له في الصحابة، فإن هذا أحب إلي وأقر لعيني وأدحض لحجة أبي تراب وشيعته، وأشد عليهم من مناقب عثمان وفضله، فقرئت كتبه على الناس؛ فرويت أحاديث كثيرة في مناقب الصحابة مفتعلة لا حقيقة لها، وجَدّ الناس في رواية ما يجري هذا المجرى حتى أشادوا بذكر ذلك على المنابر، وألقي إلى معلمي الكُتَّاب فعلموا صبيانهم وغلمانهم من ذلك الكثير الواسع، حتى رووه وتعلموه كما يتعلمون القرآن، وحتى علموه بناتهم ونساءهم وخدمهم وحشمهم، فلبثوا بذلك ما شاء الله ثم كتب إلى عماله نسخة واحدة إلى جميع البلدان: انظروا من قامت عليه البينة أنه يحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان، وأسقطوا عطاءه ورزقه، وشَفَع ذلك بنسخة أخرى: من اتهمتموه بموالاة هؤلاء القوم فنكلوا به، واهدموا داره؛ فلم يكن البلاء أشد وأكثر منه بالعراق، ولا سيما بالكوفة حتى إن الرجل من شيعة علي ليأتيه من يثق به فيدخل بيته فيلقي إليه سره ويخاف من خادمه ومملوكه، ولا يحدثه حتى يأخذ عليه الأيمان الغليظة ليكتمن عليه، فظهر حديث كثير موضوع وبهتان منتشر، ومضى =

وهكذا أصبح الدين الرسمي للإسلام في جميع بلدان الإسلام من طنجة غرباً إلى حدود الصين شرقاً.

وقد انعكس ذلك الانقلاب السياسي على كثير من الأحكام الإسلامية بالتغيير والتبديل، والزيادة والنقص، وما زلنا إلى اليوم نعاني من آثار تلك الظروف السياسية فما زال السواد الأعظم من المسلمين إلى اليوم يرون أن حب علي بن أبي طالب جريمة وذنب، ولا تقبل لمحبّي علي شهادة ولا تقبل لهم رواية، ويسمي أهل السنة والجماعة ذلك بـ: (سُنَّة الخلفاء الراشدين)، وروّجوا لذلك برواية اختلقوها: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي»، وكان خلفاء قريش يرون لأنفسهم حقّ الصلاحية في التحليل والتحريم، والتغيير والتبديل، و..إلخ مما أدّى إلى وجود سنة أخرى هي سنة الخلفاء الراشدين، وأصبحت هذه السنة هي السنة الحية، أما سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقد

على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة، وكان أعظم الناس في ذلك بلية القراء المراؤون والمستضعفون الذين يظهرون الخشوع والنسك فيفتعلون الأحاديث ليحظوا بذلك عند ولاتهم ويقربوا في مجالسهم، ويصيبوا به الأموال والضياع والمنازل، حتى انتقلت تلك الأخبار والأحاديث إلى أيدي الديانين الذين لا يستحلون الكذب والبهتان فقبلوها ورووها وهم يظنون أنها حق، ولو علموا أنها باطلة لما رووها، ولا تدينوا بها، فلم يزل الأمر كذلك حتى مات الحسن بن علي عليهما السلام، فازداد البلاء والفتنة، فلم يبق أحد من هذا القبيل إلا وهو خائف على دمه أو طريد على الأرض، ثم تفاقم الأمر بعد قتل الحسين عليه السلام وولي عبد الملك بن مروان فاشتد الأمر على الشيعة، وولى عليهم الحجاج بن يوسف، فتقرب إليه أهل النسك والصلاح ببغض علي وموالاة أعدائه وموالاة من يدعي من الناس أنهم أيضاً أعداؤه، فأكثروا من الرواية في فضلهم وسوابقهم ومناقبهم، وأكثروا من الغض من علي كرم الله وجهه وعيبه والطعن فيه والشنآن له، حتى إن إنسانا وقف للحجاج -ويقال: إنه جد الأصمعي عبدالملك بن قريب- فصاح به: أيها الأمير، إن أهلي عقوني فسموني علياً، وإني فقير بائس، وأنا إلى صلة الأمير محتاج؛ فتضاحك الحجاج وقال: لِلُطْفِ ما توسلت به قد وليتك موضع كذا.

صارت منسية، وقد حظيت سنة الخلفاء الراشدين برعاية أهل السنة والجماعة وعنايتهم وتعصبّوا لها على طول التاريخ إلى اليوم.

[خلافة أبي بكر وتمرّد قبائل العرب]

لما تسلّم أبو بكر الخلافة في المدينة المنورة تمرّدت على خلافته قبائل العرب في الجزيرة العربية، وأبوا الانقياد لطاعته، ولم يبقَ تحت خلافته إلا المدينة، فشاور نصحاءه في ذلك الأمر، فعزم بعد المشاورة على حرب المتمرّدين عن طاعته، وكانوا قد تمردوا عن تسليم الزكاة إلى أبي بكر، أما الأذان والصلاة فقد كانوا يؤذّنون ويصلون، فقال أبو بكر: والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه(١)، فبعث الجيوش، وأمر عليها صناديد قريش فأخضعوا تلك القبائل العربية على الطاعة بعد أن خاضوا في دمائها بلا رحمة، وطحنوها بلا شفقة، وسبوا نساءها وذراريها، وتغنّموا أموالها، ولم تكن تلك القيادات تعرف العفو والرحمة، فقد كانوا يحاصرون القبيلة حتى تستسلم، فإذا استسلمت ضربوا أعناقهم صَبْراً وسبوا نساءهم وتغنّموا أموالهم.

والذي يطالع حروب الردة في كتب التاريخ، كتاريخ الطبري وغيره يجد في تلك الحروب قساوة وغلظة، لا يصنعها إلا الجبابرة، ولا ينبغي إطلاقاً أن تنسب إلى دين الرحمة، ودين العفو ودين الإحسان: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ [الأنبياء].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، ومسلم في صحيحه، وأبو داود في سننه، والترمذي في سننه، وابن حبان في صحيحه، وغيرهم، كلهم بلفظ: قال عمر لأبي بكر: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله..)) وفيه: « والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه.

[خارج الجزيرة العربية]

وحين انتهت حروب الردة واستسلمت قبائل الجزيرة العربية لخلافة قريش جيّش أبو بكر الجيوش وجعلها جيشين، جيش وجّهه إلى ممالك الفرس، وجيش وجهه إلى ممالك الروم -بلاد الشام-

وأعطى قيادة الشام ليزيد بن أبي سفيان وخالد بن الوليد، وقيادة العراق لسعد بن أبي وقاص الزهري.

[عمر بن الخطاب]

ومات أبو بكر وأوصى بالخلافة لعمر بغير مشورة، وسار عمر بسيرة أبي بكر، إلا أن عمر كان حاقداً على خالد بن الوليد فعزله عند توليه، وأقرّ سائر ولاة أبي بكر، وفي عهده انتصرت الجيوش الإسلامية على الفرس وعلى الروم، ثم طُعِن عمر وهو يصلي بالناس طعنه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة فكتب عهده بالخلافة إلى ستة من الصحابة هم: علي، وعثمان، وطلحة، والزبير، وعبدالرحمن بن عوف، وسعيد بن زيد، وقال في عهده: إذا اجتمع أربعة على اختيار واحد وخالفهم اثنان فاقتلوا الاثنين، وإن اجتمع ثلاثة وثلاثة فالحق مع الذين فيهم عبدالرحمن بن عوف وإذا أصرّ الثلاثة على الخلاف فاقتلوهم، فأجمع القوم برئاسة عبدالرحمن بن عوف على مبايعة عثمان فبايعوه، فخالف عثمان في سيرته سيرةَ أبي بكر وعمر، فجعل الخلافة حكراً على بني أمية، وسلّطهم على الناس، وأطلق أيديهم في عمل ما شاؤوا، وأحدث أحداثاً كثيرة أدّت إلى كراهته، وأخيراً اجتمع المسلمون على مطالبته بالتخلّي عن الخلافة فأبى وأصرّ على الاستمرار فيها فقتلوه.

ووصول كل من الخلفاء الثلاثة إلى الخلافة قد كان وفق ترتيبات مسبقة

وخطط مرسومة، بيتتها قريش ووفّرت لها أسباب النجاح؛ ولم يكن للشورى في خلافة الخلفاء الثلاثة أي تدخل، فكانت خلافة الخليفة الأول كما وصفها عمر: «إن بيعة أبي بكر كانت فلتة وقى الله شرّها، فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه»[١]، هكذا روى البخاري، وكانت بيعة عمر بالوصية من أبي بكر، وكانت بيعة عثمان بالوصية من عمر، وكانت خلافة معاوية بالقهر والغلبة.

[علي عليه السلام في عهد الثلاثة]

وقد التزم علي بن أبي طالب خلال عهد الخلفاء الثلاثة السكوت[٢]، وجلس في بيته، وفي ماله بينبع وكانوا يراقبونه أشدّ المراقبة، فلم يصدر منه ما يبعث على قلق الخلافة القرشية، وقد ذكر عليه السلام المانع له من حربهم، فقال كما في نهج البلاغة: (فنظرت فلم أجد إلا أهل بيتي فضننت بهم عن الموت، فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى أرى تراثي نهباً... إلخ).

ورأى عليه السلام مع هذا أن قيامه بالحرب في وجه الخلافة القرشية ربما أدى إلى ضياع الإسلام لقرب العهد بالشرك فتكون الحرب سبباً للردة، فآثر عليه السلام

---

(١) رواه الإمام الهادي عليه السلام في تثبيت الإمامة بهذا اللفظ، وممن رواه من المخالفين البخاري في صحيحه وأحمد بن حنبل في مسنده وعبدالرزاق في مصنفه وابن حبان في صحيحه وفي الصواعق لابن حجر روى الشيخان البخاري ومسلم في صحيحيهما ثم ذكر الرواية، وهؤلاء ذكروه بلفظ: ((تغرة أن يقتلا..)) وفي تاريخ اليعقوبي بلفظ: « فمن عاد لمثلها فاقتلوه ».

(٢) المراد بالسكوت عدم الحرب، ولذا قال المؤلف حفظه الله تعالى: وقد ذكر عليه السلام المانع له من حربهم، وأما المطالبة بالكلام فلم يسكت عنها، ومن ذلك ما رواه الجوهري في كتاب السقيفة ومنه قول علي عليه السلام: (يا معشر المهاجرين، الله الله لا تخرجوا سلطان محمد عن داره وبيته إلى دوركم وبيوتكم)..إلى قوله: (فوالله يا معشر المهاجرين لنحن أحق بهذا الأمر منكم..إلخ)، ورواه ابن قتيبة في الإمامة والسياسة، والواقدي في كتاب الردة، وابن أبي الحديد في شرح النهج وغيرهم.

المصلحة العامة للإسلام والمسلمين، وقد سألتْهُ فاطمةُ عن سبب قعوده عن القيام بسيفه في وجه الخلافة، فقال لها وكان المؤذّن يؤذن بالشهادتين: (أتحبين أن يذهب هذا النداء؟ فقالت: لا فقال: هو ذاك) أي: أن الحرب ستكون سبباً لذهاب الشهادتين. هذا معنى الرواية.

وكان علي عليه السلام رأس المعارضين للخلافة القرشية، وأتباعه في المعارضة هم بنو هاشم، وعمار بن ياسر، وأبو ذر الغفاري، والمقداد بن الأسود، وآخرون لا يتجاوز عددهم عدد أصابع اليدين.

[سبب ميل الأغلب مع قريش]

وقد يقال: كيف مال أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم مع خلافة قريش وهي غير شرعية؟ وأيضاً كيف أعرضوا عن أهل بيت نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم إلا قلّة قليلة؟

قلنا: لم تكن صحابة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم على مثل قلب عمار، وأبي ذر، بل كانوا خليطاً من العوام الذين هم أتباع كل ناعق وهذا هو الصنف الغالب فيهم، وفيهم الكثير من المنافقين، وفيهم الطلقاء وهم أهل مكة، وفيهم..، وفيهم..، وكان ذوو العلم وذوو البصائر فيهم قلّة قليلة.

وقد نُسب الكثير من الصحابة إلى العلم وفي الحقيقة أن أكثر من نسبوهم إلى العلم ليسوا بعلماء، والدليل على ما ذكرنا ما اشتهر وتواتر عن عمر بن الخطاب الذي يعدّه علماء أهل السنة من أبرز علماء الصحابة، فإنه قال يوم مات النبي صلى الله عليه وآله وسلم ورأى الناس مجتمعين حول بيته صلى الله عليه وآله وسلم يبكون ويقولون: مات النبي صلى الله عليه وآله وسلم-: ما مات النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولن يموت حتى يقطع أيدي وأرجل رجال من المنافقين، وجعل يضرب الناس بدرّته ويفرّقهم، فما زال كذلك يضرب كل من يقول: مات النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى جاء أبو بكر فقال: إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد مات وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا

﴿مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ...﴾ الآية [آل عمران١٤٤]، فهَمَدَ عمر وقال: أحقٌّ هي من القرآن؟ فقال أبو بكر: نعم. فإن هذه الرواية المشهورة المتواترة تدل على واحد من أمرين:

١-إما أن عمر جاهل لا ينبغي مع تلك الرواية أن ينسب إلى العلم.

٢-وإما أن تكون تلك المقالة صدرت من عمر دهاءً، وخداعاً، ومكراً، فيكون أراد أن يحيّر الناس ويدهشهم عن التفكير في خليفة للنبي ﷺ، وفي التفكير فيمن يكون الخليفة، فإن ذلك ربما يكدّر عليهم نجاح مخطّط عمر وأصحابه وترتيبهم الذي كانوا قد رسموه.

إذا عرفت ذلك فالظاهر أن العلماء وذوي البصائر في الصحابة قليلون، فحين استولت قريش على الخلافة مال الناس معهم، ففوجئ العلماء وذوو البصائر بذلك، وتحيّروا ولم يستطيعوا الإنكار والتغيير لقِلَّتهم وذِلَّتهم، فاضطروا إلى السكوت، وقد كانت الخلافة القرشية على كامل الاستعداد بالضربة القاضية على كل من يعارضها أو يذكر علياً وبني هاشم، وأصبح ذكرُ علي وذكر فضله واستحقاقه للخلافة أو أنه أولى بها من أبي بكر، أو أنه أفضل جريمةً لا تغتفر، وزاد التشدد في ذلك قليلاً قليلاً حتى أصدر معاوية قراره بِسُنَّةِ لعن علي والبراءة منه وبضرب عنق من يأبى ذلك.

[عثمان وتحويل الخلافة القرشية إلى أموية]

خالف عثمان بن عفان في خلافته سيرة أبي بكر وعمر، فقد كانت الخلافة في زمن أبي بكر وعمر خلافة قرشية، أما خلافة عثمان فقد كانت خلافة أموية، يتحكّم فيها رجال بني أمية، فغضبت قريش والمسلمون، ومن الغاضبين طلحة والزبير وعبدالرحمن بن عوف وأبو ذر وعمار بن ياسر وعائشة، ثم عامة أهل

الأمصار بما فيهم أهل المدينة، إلا أهل الشام فلم يكونوا من جملة الغاضبين على عثمان، والسبب في ذلك أن أهل الشام منذ يومهم الأول تربّوا تربيتهم الدينية والسياسية على يدي أميرهم ومربّيهم معاوية بن أبي سفيان، وقد ربّاهم على حبّ بني أميّة وعلى رأسهم عثمان بن عفان، وعلى حبّ معاوية ومروان والوليد بن عقبة ومن شاكلهم، وعلى كراهة علي بن أبي طالب وأهل البيت وبني هاشم وعمار بن ياسر وأبي ذر والأنصار، وأوليائهم جميعاً.

وأما عمار بن ياسر رضوان الله عليه فقد لقي من العناء ما لقي في زمن عثمان بن عفان في سبيل حبه لعلي ولأهل البيت، فقد ضربه غلمان عثمان وداسوه بأقدامهم حتى فتقت خصيتاه، وأُغْمِيَ علي بسبب ذلك الضرب ثلاثة أيام.

[دور قريش بعد مقتل عثمان والبيعة لعلي عليه السلام]

كانت قريش أشدّ أعداء نبي الإسلام فلقي النبي صلى الله عليه وآله وسلم منهم من الأذى في مكة قبل الهجرة ما لا يقدر قدره، وقد حكى الله تعالى في القرآن من ذلك كثيراً، وأمره الله تعالى أن يقابل أذاهم بالصبر فقال تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ**﴾ [الأحقاف:٣٥]، وآذوا أصحابه وعذّبوهم بألوان من العذاب وقد مات من ذلك العذاب والدا عمار: ياسر، وسمية رحمة الله عليهم، وبعد الهجرة حاربوه في بدر وأحد والخندق، وكانت هذه أعظم الحروب وأشدّها التي واجهها النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمون، ثم غزاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعد ذلك في عقر دارهم، فاستولى على مكة وأرغمهم على الإسلام فأسلموا خوفاً من السيف.

هذا هو دور قريش في حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

فلما مات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم استولوا على الخلافة فأبدوا حقدهم وعداوتهم على الذين قاتلوهم مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بدر وغيرها، لذلك لقي علي وأهل

البيت والأنصار ما لقوا من عداوة قريش وأذاها، وكان من أول قرارات الخلافة القرشية بعد النبي ﷺ ابتزاز أموال فاطمة بنت الرسول ﷺ التي أنحلها إيّاها أبوها ﷺ في حياته، وما زالت الخلافة في عهودها الثلاثة تستهدف أهل البيت ولا سيما علي بن أبي طالب، فلما استولى علي على الخلافة بعد عثمان سلَّت قريش في وجه خلافته سيوفها، وقاتلته يوم الجمل بقيادة عائشة وطلحة والزبير، وهُزِمت قريش وأنصارها من أهل البصرة في هذه المعركة، ثم قاتلته في صفين بقيادة معاوية بن أبي سفيان، وانتهت معارك صفين بالتحكيم.

وقصة التحكيم: أن جيوش معاوية ضعفت عن الوقوف في وجه جيوش علي عليه السلام، وكادت أن تنهزم وأيقنَ معاوية بالهزيمة، وبدأ يخطط للانسحاب والهزيمة، وكان عمرو بن العاص من دهاة العرب البارعين في ابتكار الحيل، فقال لمعاوية: عندي رأي غير الهزيمة إنْ قَبِلَه أصحاب علي اختلفوا وإن ردّوه اختلفوا، هو أن نرفع المصاحف على رؤوس الرماح وندعوهم إلى المحاكمة إلى القرآن الكريم، ففرح معاوية بهذا الرأي، فلما أصبح الصباح رأى أصحاب علي المصاحف على رؤوس الرماح وإذا هم ينادون بالتحاكم إليها.

فوقفت جيوش علي عليه السلام وتحيَّرت، فقال لهم علي عليه السلام: هذه حيلة من ابن العاص حين عضَّتهم السيوف وأخذتم منهم بالمخنق، إنهم ليسوا من أهل القرآن ولا يريدون حكم القرآن، وجرت مناقشات ومحاولات ومحاورات بين علي عليه السلام وأصحابه، فأصرَّ القُرّاء من أصحاب علي عليه السلام على قبول التحاكم إلى القرآن الكريم، وكانوا كثرة كاثرة تنيف على عشرين ألفاً، وأحدقوا بعلي عليه السلام وحملوه على القبول بالتحكيم، واضطرّوه إليه، وهو كاره له، وإنما قَبِلَ علي التحكيم وهو كاره له لأنه عليه السلام لم يكن أمامه في تلك الحال غير خيارين:

١-القبول بالتحكيم.

٢-الرفض للتحكيم الذي يترتّب عليه حتماً في تلك الحال نشوب القتال بين المصِرِّين على قبول التحكيم وبين الرافضين له، وقد كان المصرّون على قبول التحكيم قد سلّوا سيوفهم وأحدقوا بعلي عليه السلام، وقالوا: لا بد من أن توقف الحرب وتقبل التحكيم وإلا قاتلناك، فرأى علي عليه السلام أن قبول التحكيم أهون الشرَّيْنِ، فقبل به وأمر بتوقيف الحرب.

فلما تم ذلك صاح القراء الذين اضطروا علياً إلى القبول بالتحاكم قائلين: لا حكم إلا لله كفرتَ يا علي وكفرنا وإنا نتوب إلى الله و..إلى آخر القصة، وكان هذا أول ظهور الخوارج...، وأخيراً قاتل علي عليه السلام الخوارج كما أمره رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الحديث المشهور أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أمره بقتال الناكثين والقاسطين، والمارقين، فالمارقون هم هؤلاء القراء الذين ذكرناهم، والناكثون: هم طلحة والزبير، ومن ضامَّهم، وقد قاتلهم علي عليه السلام في البصرة واشتهرت تلك الوقعة بوقعة الجمل، والقاسطون: هم معاوية وأصحابه، وقد قاتلهم علي عليه السلام في صفين، ثم قتلت الخوارج علياً عليه السلام غيلة بسيف أشقاها عبدالرحمن بن ملجم لعنه الله، ثم بايع أصحاب علي عليه السلام الحسن بن علي بالخلافة بعد أبيه وأراد أن يقاتل بهم معاوية فلم يفوا له بالبيعة، وخانوه، وكادوا أن يسلموه لعدوّه معاوية، بل طعنوه في فخذه وهو متوجّه إلى معاوية، ونهبوا متاعه، ورأى عليه السلام أن النتيجة الحتمية للدخول في حرب مع معاوية هي القضاء عليه وعلى أهل بيته وعلى أتباعه المخلصين، وسحقهم تماماً، فلم يرَ عليه السلام الدخول في معركة خاسرة، فقرَّرَ بعد المشاورة أن يصالح معاوية فصالحه على شروط، وغادر عاصمة خلافته-الكوفة- ورجع بأهل بيته إلى المدينة، فلم يفِ له معاوية بالشروط، وسقاه السمَّ

على يد زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس، وانتقل إلى رحمة الله شهيداً.

واستولى معاوية بعد الصلح على جميع البلدان، وقرَّر لعن علي بن أبي طالب في خطب الجمعات، وسمّاه السنة، وأمر بالتبرّؤ من علي بن أبي طالب.

وفي عهد يزيد قتلت جيوش يزيد الحسين بن علي وسبعة عشر رجلاً من أهل بيته في كربلاء، واستباحت جيوش يزيد المدينة المنورة عدة أيام بعد أن سحقت الجيوش أبناء المهاجرين والأنصار، ورأى يزيد أنه بذلك قد أخذ ثأره في قتلى بدر، فتمثل قائلاً[1]:

لَيْتَ أشياخي ببدرٍ شَهِدُوا ... جَزَعَ الخزرجِ من وَقْعِ الأَسَلْ

لأهَلُّوا واسْتَهَلُّوا فَرَحاً ... ثُمَّ قَالُوا يا يزِيْدُ لا شَلَلْ

لستُ من عُتْبَةَ إن لم أَنْتَقِمْ ... مِنْ بَنِي أَحْمَدَ ما كانَ فَعَلْ

[عداوة بني أمية لبني هاشم والإسلام]

أبو سفيان (والد معاوية) كان سيد قريش ورئيسها وكان القائد لها في حربه للنبي ﷺ وللإسلام، ولم يزل حرباً للنبي ﷺ وللإسلام مُجِدّاً في حربه غاية الجدِّ حتى غلبته قوّة الإسلام، وقهره سلطان الإسلام، فدخل في الإسلام كرهاً حين لم يجد لنفسه مهرباً إلا الإسلام أو السيف.

ومن أسباب عداوة أبي سفيان للإسلام وحربه للنبي ﷺ ما كان بين بني أمية وبني هاشم من المنافسة على السيادة، والمطاولة في الشرف والمسابقة في ميادين الذكر والعزّة، فلما بعثَ الله عز وجل محمداً ﷺ نبياً قال قائلهم: أطعم بنو هاشم وأطعمنا ونحروا ونحرنا وفعلوا وفعلنا حتى إذا صِرْنَا كفرسي رهان قالوا:

---

[1] مقاتل الطالبيين (١/ ٨٠).

منا نبي، والله لا يكون هذا أبداً.

لهذا اغتاضت بنو أمية حين أكرم الله تعالى بني هاشم بالنبوة وعلموا أنهم قد فاتوهم بالشرف، وأنه لا سبيل إلى اللحاق بهم، فأجمعوا على الحرب إلى أن يطسموا النبوة وينسفوها نسفاً.

وقد ذكر الله تعالى بني أمية في القرآن وسمّاهم الشجرة الملعونة في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْءَانِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿٦٠﴾﴾[1] [الإسراء].

بل ذكر الله تعالى أمَّ جميل أخت أبي سفيان وسمّاها (حمَّالة الحطب) وكانت

---

[1] ذكر أن المقصود بها بنو أمية أو الحكم وبنوه ضمن الأقوال في تفسيرها في: الدر المنثور للسيوطي (٥/ ٣٠٩) نقلاً عن ابن أبي حاتم عن ابن عمر وجعلهم الحكم بن أبي العاص وولده، وفيه روايات ذكر أن النبي ﷺ رأى في المنام بني أمية على منابر الأرض. وفيه (٥/ ٣١٠) رواية عن عائشة أنها قالت لمروان: سمعت رسول الله ﷺ يقول لأبيك وجدك إنكم الشجرة الملعونة في القرآن. وفي التفسير البسيط للواحدي (١٣/ ٣٨١) ذكر الأقوال في تفسير الآية وقال: وروى السدي عن أبي مالك عن ابن عباس قال: «الشجرة الملعونة في القرآن بنو أمية» وقال في رواية عطاء: يعني الحكم بن أبي العاص، ثم ساق وذكر قول عائشة لمروان.اهـ وذكر في حاشية الشهاب (٦/ ٤٤) قول عائشة لمروان. وذكر في تفسير القرطبي (١٠/ ٢٨٦) هذا التفسير عن ابن عباس، وذكر قول عائشة لمروان: لعن الله أباك وأنت في صلبه فأنت بعض [فضض. (هامش)] من لعنة الله. وذكره صاحب البحر المحيط (٧/ ٧٦) وقال: وقيل: بنو أمية، حتى إن من المفسرين من لا يعبر عنهم إلا بالشجرة الملعونة..إلخ. وفي إيجاز البيان عن معاني القرآن (٢/ ٥٠٢) قال: وقيل: الشجرة الملعونة بنو أمية فإنهم الذين بدلوا وبغوا. وفي فتح الباري (٨/ ٣٩٩) عن عبدالله بن عمرو: الحكم بن أبي العاص وولده.اهـ (منقولاً من هذه المصادر وفي بعضه اختصار يسير). وانظر أيضاً: تفسير ابن كثير (٥/ ٩٢)، غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٤/ ٣٦٢)، فتح القدير للشوكاني (٣/ ٢٨٤)، مفاتيح الغيب للرازي (٢٠/ ٣٦١)، فتح البيان في مقاصد القرآن (٧/ ٤١٥)، اللباب في علوم الكتاب (١٢/ ٣٢٣)، وغيرها.

شديدة العداوة والأذى لرسول الله ﷺ في مكة.

وكان معاوية هو ابن سيد قريش يعيش مع أبيه ويشاهد ما يجري في الساحة، وأم معاوية هي هند بنت عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف وهي التي بقرت يوم أحد بطن حمزة، واستخرجت كبده وأكلتها، فلم تقدر أن تبتلعها فلفظتها.

وكان قد قتل علي بن أبي طالب حنظلة بن أبي سفيان أخا معاوية، وقتل خاله، وشارك في قتل جده عتبة وجده شيبة، فدخل أبو سفيان وابنه معاوية في الإسلام وبنو أمية وسائر قبائل قريش الذين أسلموا يوم الفتح رغماً وهم مغلوبون ومقهورون، ولم يستطيعوا في عهد النبي ﷺ أن ينالوا من آمالهم السيئة أيّ منال، فلما توفى الله نبيه محمداً ﷺ وتولى أبو بكر الخلافة صارت قرشية، تتحكم فيها رجالات قريش بما فيهم أبو سفيان وابنه يزيد وابنه معاوية.

لذلك تمكنت قريش من حرمان علي وسائر بني هاشم من تولي أي منصب في الخلافة فهمّشوهم تماماً، وهكذا فعلت الخلافة القرشية بالأنصار فلم يعطوهم أي ولاية أو قيادة بل سلّطوا شعراءهم على هَجْوِهم وذَمِّهم.

ولم تكتف الخلافة القرشية بإبعاد علي وبني هاشم من استلام أي دور من أعمال الخلافة بل عملت على تذويب شخصية علي بن أبي طالب وطمس فضائله وتصعيد شأنه حتى صار حُبُّه جريمة وصار ذكر فضله ذنباً لا يغفر.

ولم يزل ذلك إلى اليوم فمذهب أهل السنة والجماعة على طول التاريخ إلى اليوم هو أن حب علي وأهل البيت ذنب لا تُقْبَل معه شهادة ولا رواية.

[معاوية والنهج الأموي]

وحين استولى معاوية بن أبي سفيان على منصّة الخلافة حانت له الفرصة التامّة ليشفي غيظه التاريخي، فسَنَّ للمسلمين لعن علي بن أبي طالب، وألزم أتباعه بالبراءة

من دينه، وسَنَّ في شيعة علي سنناً لم تزل حيَّة إلى اليوم.

وفي الحقيقة والواقع أن معاوية أسَّسَ مذهب أهل السنة والجماعة على عداوة علي بن أبي طالب وأهل البيت وأشياعهم وكل ما يتصل بهم، وعلى تقديس أبي بكر وعمر وعثمان ومن في صفِّهم من الصحابة.

وتلخيص المقال: أن أُسُس مذاهب أهل السنة والجماعة ناتجة عن عداء جاهلي بين بيوتات قريش، ولا سيما فيما بين بني أمية وبني هاشم، بالإضافة إلى ما حدث من العداء بعد مبعث النبي ﷺ، ثم ما نتج عن هذا العداء الأخير من كثرة قتلى قريش بما فيهم الكثير من عظمائها وساداتها، وقد كان معاوية وسائر قبائل قريش يرون أن ثأرهم بعد موت النبي ﷺ عند علي بن أبي طالب في كل قتلاهم، وذلك أن الذين هاجروا مع النبي ﷺ ونصروه من بني هاشم هم: علي وحمزة وعبيدة بن الحارث وجعفر لا غير، فقُتِل حمزة وعبيدة وجعفر في عهد النبي ﷺ، أما بقية بني هاشم فلم يهاجروا ولم ينصروا النبي ﷺ ضدّ قريش، فلما مات رسول الله ﷺ لم تجد قريش وبنو أمية من تُعَلِّق ثأرها به بعد موت النبي ﷺ سوى علي بن أبي طالب؛ لذلك حصل ما حصل من العداء لعلي بعد موت النبي ﷺ ولا سيما في عهد خلافة معاوية ثم في خلافة من تَعَقَّبَهُ من بني أمية، وقد قال يزيد بن معاوية في طلبه للثأر:

لستَ من عتبةَ إن لم أنتقم ... من بني أحمد ما كان فعل

فقَتَلَ في كربلاء الحسينَ بن علي وسبعَةَ عشر رجلاً من بني هاشم.

يتبيَّن بما تقدم أن الخلاف اليوم بين أهل السنة والجماعة وبين الشيعة هو امتداد لذلك الخلاف التاريخي بين قريش بقيادة أبي سفيان وبين بني هاشم بقيادة النبي ﷺ.

[النهج الأموي في عهد يزيد]

لما مات معاوية بن أبي سفيان عهِد بالخلافة لابنه يزيد، وكان معاوية قد مهَّد الأمور لخلافة يزيد، ولم يَعُدْ يخاف عليه وعلى خلافته من أحد إلا من الحسين بن علي، وعبدالله بن الزبير، وأهل المدينة فأوصاه بالفتك بهم.

وكان يزيد فاسقاً خليعاً عاكفاً على الخمر واللهو واللعب معروفاً بذلك بين المسلمين؛ لذلك استاء الصالحون من خلافته، وحاولوا التهرّب من طاعته والانضواء تحت إمارته، فخرج أبناء المهاجرين والأنصار الذين هم أهل المدينة من تحت طاعته، فأرسل إليهم جيشاً من أهل الشام بقيادة مسلم[1] بن عقبة المري فقاتلهم وقاتلوه، وانتصر جيش يزيد على أهل المدينة فقتل أكثرهم، ودخل الجيش الشامي المدينة واستباحها ثلاثة أيام بأوامر عُلْيَا، فكانوا يقتلون من وجدوا من الرجال، وينتهبون ما وجدوا من المال، ويفعلون ما شاءوا من الفساد والظلم والتعذيب والقتل العام للرجال والنساء والأطفال، ونكحوا النساء وافتضوا العذارى حتى قيل: إنه ولد نتيجة لذلك أكثر من ألف مولود لغير أب، فلما انتهت الثلاثة الأيام أمر الأمير مسلم بن عقبة جيشه بالكفّ، ونادى بالأمان العام لأهل المدينة فأَمِنَ الناس، وخرجوا من مخابئهم، ودعاهم الأمير إلى بيعة أمير المؤمنين يزيد، وكان مسلم بن عقبة يبايعهم على أنهم عبيد لأمير المؤمنين يزيد، فمن أبى ضُرِبَت عنقه من غير مراجعة، فضُرِبَت هنالك الكثير من الأعناق، وكان مسلم يختم على أعناق المبايعين بختم العبودية ليزيد، وقد حكى المؤرِّخون لهذه الحادثة ما تقشعر من فضاعته الجلود؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون.

---

(١) وقد اشتهر في كتب التاريخ بـ(مسرف بن عقبة) بسبب هذه الأعمال الشنيعة.

وقد رأى يزيد بن معاوية أنه بهذه الوقعة قد أخذ بالثأر من أهل المدينة الذين نصروا النبي ﷺ يوم بدر ضدَّ قريش حيث هُزِمت قريش وقُتِل منها سبعون وأُسِرَ سبعون فقال يزيد منتشياً بأخذه بالثأر من أبيات مشهورة:

ليت أشياخي ببدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل

لأهلّوا واستهلوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا شلل

مأساة كربلاء

تهرَّب الحسين بن علي بن أبي طالب من بيعة يزيد وطاعته، فخرج من المدينة إلى مكة، ثم خرج من مكة متوجِّهاً إلى العراق، ومعه سبعة عشر رجلاً من أهل بيته وجماعة قليلة من الصالحين، وكان أهل الكوفة قد وعدوه النصر، وأعطوه المواثيق المؤكّدة، وفي أثناء توجّهه إلى العراق أرسل أمامه إلى الكوفة مسلم بن عقيل بن أبي طالب لتمهيد الأمور، وكأنّ يزيد أحسَّ بخطورة الأمر في العراق فعزل الوالي عليها لضعفه وأرسل عبيدالله بن زياد خلفاً له، فدخل الكوفة قبل وصول مسلم بن عقيل وضَبَطَ أمور الكوفة وحَزَمَها وشَدَّد على أهلها، ولا سيَّما مشائخ القبائل ووعد وأوعد فخافه الناس وحَذِرُوه.

فلما وصل مسلم بن عقيل الكوفة وجد الأمور شديدة فاختفى، ولما علم عبيد الله بن زياد بوصول مسلم بن عقيل الكوفة واختفائه سارع في طلبه والبحث عنه، وسرعان ما وجده، فأخذ مسلم أسيراً بعد ما دافع بسيفه وقاتل، وقد قتل في مقاتلته رجلاً، وأمر عبيد الله بن زياد بقتل مسلم فضُرِبَتْ عنقه على رأس قصر الإمارة وألقي جسده ورأسه إلى الأرض، وضُرِبت أيضاً في ذلك المكان عنق هانئ بن عروة لمساعدته لمسلم بن عقيل رحمة الله عليهما ورضوانه.

وقد كان مسلم بن عقيل أراد أن يرسل رسولاً لينذر الحسين من القدوم إلى

الكوفة ويخبره بتغيّر الوضع في الكوفة وأن الناس غير الناس، وأن الذين كانوا قد بايعوه قد انضموا إلى طاعة الوالي الجديد عبيد الله بن زياد واجتمعوا على موالاته ونصرته، فلم يتمكّن مسلم من إبلاغ الحسين بذلك، فواصل الحسين عليه السلام وأصحابه المسير إلى الكوفة.

وحين علم عبيدالله بن زياد بقدوم الحسين إلى الكوفة جمع لمواجهته جيشاً من أهل الكوفة يقدر بأربعة آلاف مقاتل، وأمَّر عليهم عمر بن سعد بن أبي وقاص، فخرج هذا الجيش لمواجهة الحسين، وكان الحسين في سبعين رجلاً، منهم سبعة عشر رجلاً من بني هاشم والباقون من غيرهم، فالتقى الفريقان بكربلاء، وضرب الحسين الخيام على نسائه وأطفاله، وحالت جيوش الكوفة بين الحسين وبين ماء الفرات واشتدَّ بهم العطش.

وحين رأى الحسين ذلك الجيش علم أنه لا طاقة لهم بمواجهته وأن في مواجهتهم هلاكه وهلاك أصحابه جميعاً، فأراد الحسين أن يحول دون وقوع مأساة عظيمة، فجمع أصحابه وقال لهم: القوم إنما يريدونني وحدي، فاذهبوا في جنح هذا الليل فقد أَذِنْتُ لكم، فأبوا من ذلك أشد الإباء، ثم نادى الحسين عليه السلام جيش الكوفة وعَرَضَ عليهم أموراً فيها السلامة من وقوع المواجهة:

١- أن يتركوه ليعود من حيث جاء.

٢- أن يتركوه ليذهب في الأرض حيث لا يضرّ بسلطانهم.

٣- أن يَدَعُوه ليذهب إلى يزيد.

فلم يقبل ذلك الجيش شيئاً من تلك العروض، بل أصرّوا على إعطائه واحداً من أمرين:

١- إما النزول على حكم عبيد الله بن زياد.

٢- وإما الحرب.

فأبى الحسين النزول على حكم عبيد الله بن زياد لعلمه بأن حكم عبيدالله بن زياد فيه وفي أهل بيته وأصحابه سيكون القتل المحتَّم مع ما يصحبه من الشتم والإهانة و..إلخ، فاختار عليه السلام الحرب الذي معناه الموت المصحوب بالعزّة والكرامة، فمال ذلك الجيش بآلافه على الحسين وأصحابه الذين أوهى قواهم العطش.

[منشأ الافتراق في الدين]

كان المسلمون في عصر النبي صلى الله عليه وآله وسلم على منهج واحد وسنة واحدة إمامهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولم يكن هناك خلاف بين المسلمين، وكان من يخالف منهج النبي صلى الله عليه وآله وسلم وطريقته يعد منافقاً أو مرتداً هكذا كان المسلمون في ذلك العصر الزاهر.

ثم مات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وتمت البيعة بالخلافة لأبي بكر وحظيت بدعم قبائل قريش (الطلقاء) وعارضها علي عليه السلام وسائر بني هاشم وقلّة من المهاجرين والأنصار، أرغمتهم الظروف السياسية على القبول بالوضع الراهن والبيعة لأبي بكر إلا علياً فإنه لم يقبل الخلافة ولم يبايع حتى مضت فترة وماتت فاطمة فاضطرّ إلى القبول والمصالحة(١)، وكان علي عليه السلام يرى أنه الأولى والأحقّ بالخلافة من أبي بكر وقد روى ذلك البخاري في صحيحه في قصّة مصالحة علي لأبي بكر، وقد كان لعلي عليه السلام أتباع كثيرون في هذا الرأي إلا أن الظروف السياسية ألجمتهم ولم تسمح لهم بالجهر بذلك.

---

(١) في كتاب لوامع الأنوار للإمام الحجة مجدالدين بن محمد المؤيدي عليه السلام ما لفظه: ثم كانت المصالحة التي أخرجها البخاري هكذا بلفظها بين علي وأبي بكر وسببها عند آل محمد عليه السلام ومن اتّبعهم إشفاقه من انتشار حبل الإسلام واختلال أمر الملّة وذهاب الدين الحنيف..إلى آخر كلامه عليه السلام.

وقد كان علي عليه السلام هو زعيم هذا الرأي ورأس هذا المذهب.

وقد كان الخلفاء – أبو بكر ثم عمر ثم عثمان – على خوف عظيم من علي بن أبي طالب لعدّة أسباب:

١ – لأنه أقرب الصحابة إلى النبي ﷺ وأسهم رحماً به.

٢ – لأن له سوابق في الإسلام لم يشاركه فيها مشارك.

٣ – لأن له شخصيّة مرموقة وقويّة.

٤ – لأن النبي ﷺ نصبه للخلافة في يوم الغدير وفي حديث المنزلة.

٥ – لأن له فضائل لا تُحصى على لسان النبي ﷺ.

لذلك أيقن الخلفاء وأنصارهم أنها لا تستقرّ خلافتهم ولا تتمّ إلا بالتخلّص من معارضهم القويّ علي بن أبي طالب.

وكان تخلّصهم منه بالاغتيال قد تكون نتائجه سلبيّة تفضح الخلافة والخلفاء، ولولا ذلك لتخلّصوا منه بالاغتيال، وتماماً كما تخلصوا من معارضهم سعد بن عبادة سيّد الأنصار فإنهم قتلوه غيلة، وقالوا قتله الجن لأنه بال قائماً قال الشاعر:

وما ذنب سعد أنه بالَ قائماً ولكن سعداً لم يبايع أبا بكر

فسلك الخلفاء للتخلّص من معارضهم علي بن أبي طالب طريقاً أخرى غير الاغتيال هي:

١ – إبعاد علي وبني هاشم وإقصائهم عن تولي أي منصب في الخلافة وعن القيام بأي دور أو عمل أو قيادة أو مشورة.

٢ – سلب أموال علي وأخذها كي لا يتمكن من الدعوة إلى نفسه فأخذوا فدكاً وقد كانت فدك تغلّ أموالاً طائلة.

٣ – إذكاء الدعاية والترويج ضدّ علي والتنقيص له وذمه، والتحذير منه وتشويه

شخصيته، لقّنوا بذلك الصغير والكبير، والأحرار والعبيد، والرجال والنساء، وألقوا هذا الترويج إلى الداخلين في الإسلام والوافدين، وإلى جيوش المسلمين، وسعوا في ذلك غاية السعي وجدّوا غاية الجدّ.

٤- المحاولة الجادّة لمحو فضائل علي وأهل البيت وطمسها.

٥- الترويج لشخصيّات جديدة واصطناع الفضائل لها فنحتوا الفضائل لأبي بكر وعمر وعثمان وخالد بن الوليد وغيرهم ونسبوها إلى النبي ﷺ.

٦- المضايقات الشديدة لمؤيّدي علي وأنصاره وأشياعه بإقصائهم وإيذائهم وحرمانهم من العطاء واحتقارهم وإهانتهم، ويظهر ذلك ظهوراً واضحاً في عصر الخليفة الثالث.

[سلف ونهج الشيعة والسنة]

فسلكت الكثرة الكاثرة من المسلمين مسلك الخلفاء الثلاثة، وأخذت بسنّتهم وآرائهم، وأطلق على هؤلاء أخيراً أهل السنة والجماعة، وأتباع السلف الصالح، والسلفية.

وسلك الكثير مسلك علي بن أبي طالب وأخذوا بسنّتِه وسيرته وذهبوا في مذهبه، وسمي هؤلاء (شيعة علي) أو(الشيعة).

ثم افترقت الشيعة في عهد الإمام زيد بن علي إلى فرقتين: فرقة بايعته وناصرته وجاهدت معه فسموا (زيدية)، وفرقة رفضت الجهاد معه وتعلَّلت بأن الإمام هو جعفر بن محمد وسموا هؤلاء (إمامية)، ثم...الخ.

وأهل السنة يحتجّون على صحّة مذهبهم وفساد مذاهب غيرهم بأنهم هم وحدهم الذين اتبعوا السلف الصالح من الصحابة.

ونقول: إنهم صدقوا في ذلك فإنهم اتبعوا منهج الخلفاء والكثرة الكاثرة من

الصحابة.

وتقول الزيدية: إنهم اتبعوا سلفهم الصالح الذي هو علي بن أبي طالب، وقد صدقوا في ذلك.

ومازال العداء بين الطرفين منذ يومهم الأول وإلى اليوم، فالذي نلاحظه اليوم من العداء والتجريح و...الخ بين الطرفين هو نفسه ذلك العداء في العهد الأول.

وأهل السنة يحتجّون على صحّة مذهبهم بأنهم أتباع السلف الصالح، وأنهم على ما كان عليه السلف الصالح، وأن الرسول ﷺ قال: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي).

وشيعة علي يحتجّون على صحة مذهبهم بما روي في علي وأهل البيت في صحاح أهل السنة وغيرها.

والشيعة في عداهم لأهل السنة والجماعة فريقان:

فريق منهم تشدّد في العداء حتى كفَّر أو فَسَّق الخلفاء وأنصارهم، والفريق الثاني هم الزيدية لم يبلغ تحاملهم وعداؤهم إلى درجة الحكم بالكفر أو الفسق للخلفاء وأتباعهم، بل حكموا على الثلاثة حيث تقدّموا علياً في الخلافة بالعصيان وفتحوا مع ذلك باب التأويل، وصار الأمر عندهم جديراً بالتوقف، هذا هو رأي الغالبية العظمى من الزيدية.

وذلك لأن للصحابة ولا سيّما الخلفاء الثلاثة فضل السبق إلى الإسلام والهجرة وصحبة النبي ﷺ؛ لذلك كانوا أهلاً للتوقف عن إصدار الأحكام عليهم، وحكم الزيدية هذا في حق الخلفاء وأنصارهم هو حكم معتدل بين حكم أهل السنة، وبين حكم بعض الشيعة غير الزيدية حيث قال أهل السنة: لا يجوز ذكر معاصي الصحابة ومساوئهم على الإطلاق وإن فعلوا ما فعلوا من الكبائر، وحيث

جزمت طوائف من الشيعة بالكفر أو الفسق في حق الخلفاء ومتابعيهم؛ لذلك كان مذهب الزيدية أعدل المذاهب وأوسطها، لأن أهل السنة غلوا في الصحابة حتى أعطوهم صفة لا تنبغي إلا للعلي العظيم، وصفته تعالى هي: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء].

فما كان ينبغي لأهل السنة والجماعة أن يُحَرِّموا ذكر معاصي الصحابة وتوجيه النقد إليهم وتوجيه التساؤلات على ما اشْتَبَهَ علينا من أعمالهم و...الخ.

ثم أعطوهم حصانة حصينة لا تضرّهم معها معصية ولا يلحقهم ذنب وسيئاتهم مغفورة وكل ذلك لأنهم صحابة.

ولغلوِّهم في الخلفاء وسائر سلفهم الصالح من الصحابة غلوا في إصدار الأحكام ضدَّ خصومهم، فقالوا: إن حب علي بن أبي طالب ذنب عظيم لا تقبل معه شهادة ولا رواية، وسموه شيعياً، والشيعي عندهم في منزلة الكافر، وهكذا قالوا فيمن يقول: إن علياً أفضل من أبي بكر[1]، أو إنه أولى بالخلافة بعد النبي ﷺ.

وأيضاً قالوا كذلك فيمن يوجّه النقد على أبي بكر في أخذه للخلافة أو أخذه لفدك، وبمثل غلوِّهم في أبي بكر غلوا في معاوية بن أبي سفيان.

الذي أراه وأجزم به أن غلو أهل السنة في تلك الأحكام إنما جاءت به خلافة أبي بكر وعمر وعثمان ثم خلافة معاوية وكان القصد من ورائه هو القضاء على المنافس لهم في الخلافة -علي بن أبي طالب- ومحو ذكره وطمس فضائله، والقضاء على مذهبه، وعلى أتباعه تماماً؛ لأن وجود علي ووجود محبيه وأتباعه وأنصاره وذكر

(١) انظر كتاب لوامع الأنوار للإمام الحجة مجدالدين بن محمد المؤيدي عليه السلام (ج١/ ٣٨٨) تحت عنوان: ذكر بعض من رماه القوم بالرفض.

فضائله يهدد خلافة أبي بكر وعمر وعثمان ومعاوية، ثم خلافة سلاطين بني أمية، فدعت الظروف السياسية للخلافة والخلفاء بتشريع تلك الأحكام الغالية وإدخالها في دين الناس ومعتقداتهم والترويج لها حتى أدخلوها في دين الإسلام، ودين الإسلام منها بريء.

خاتمة

وهذا آخر ما تيسر من هذه السيرة المباركة
والحمد للّه أولاً وآخراً، وصلى اللّه على
سيدنا محمد الأمين وعلى آله
الطاهرين وسلم تسليماً
كثيراً طيباً
مباركاً
فيه
.

الفهرس

مقدمة مكتبة أهل البيت (ع) ٥
تقديم ١٨
مميزات هذه السيرة: ١٩
[مقدمة] ٢٣
[السيرة النبوية في القرآن الكريم وأهميتها] ٢٣
بداية حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ٢٦
مولده صلى الله عليه وآله وسلم ٢٦
نشأته صلى الله عليه وآله وسلم ٢٦
[مدى صحة حادثة شق الصدر] ٢٧
العصمة والتعبد ٢٩
معاصي الأنبياء عليهم السلام ٣١
[حياة النبي صلى الله عليه وآله وسلم قبل البعثة] ٣٣
[حالة العرب قبل الإسلام] ٣٤
من البعثة إلى الهجرة ٣٦
[البعثة] ٣٦
التدريج في الدعوة ٣٦
عموم الرسالة وطبيعتها ٤٢
موقفُ قريشٍ العام من نبي الإسلام ودعوته ٤٣
[قصة آل ياسر] ٤٥
الهجرة إلى الحبشة ٤٦

إسلام أبي طالب.....٤٧
[من تاريخ اليعقوبي في إسلام أبي طالب].....٥٣
وقائع هامة حدثت قبل الهجرة.....٥٤
الإسراء.....٥٤
المعراج إلى السموات.....٥٦
[مما أوحى الله إلى نبيه ﷺ في ذلك المقام].....٥٧
كلام الله تعالى.....٦١
[روايات أهل السنة في الإسراء والمعراج والصلوات الخمس].....٦١
نزول القرآن على رسول الله ﷺ.....٦٢
كيفية تلقي النبي ﷺ للوحي.....٦٣
[الخروج إلى الطائف وبيعة العقبة].....٦٣
[اجتماع قريش على الفتك بالنبي ﷺ].....٦٤
[دور علي عليه السلام في الهجرة].....٦٦
خروج النبي ﷺ من مكة إلى المدينة.....٦٧
آيات بينات حصلت في الهجرة.....٦٧
طبيعة فترة ما قبل الهجرة.....٦٨
[حال المسلمين بعد الهجرة].....٦٩
غزوة بدر الكبرى.....٧٠
نزول الملائكة يوم بدر.....٧٣
هل قاتلت الملائكة يوم بدر؟.....٧٣
[أول مبارزة في الإسلام وبعض ما وقع في غزوة بدر].....٧٤

[نصر الله للمسلمين يوم بدر] ٧٥
[شبهة حول آية: {وما رميت إذ رميت}والجواب عليها] ٧٦
أسرى بدر ٧٧
غزوة بني قينقاع في شوال سنة ٢ هـ ٨٠
غزوة أحد سنة ٣هـ ٨١
رؤيا رسول الله ﷺ ٨١
[ذكر مقتل حمزة بن عبدالمطلب عليه السلام] ٨٣
[بقية من قتل في هذه الغزوة] ٨٥
[دروس وعبر من غزوة أحد] ٨٨
غزوة بني النضير سنة ٤هـ ٨٩
[بعض العبر من حادثة بني النضير] ٩٠
غزوة بني المصطلق ٩٢
حديث الإفك ٩٢
غزوة الخندق وتسمى غزوة الأحزاب ٩٥
حال المؤمنين الصادقين في غزوة الأحزاب ١٠١
غزوة بني قريظة ١٠٤
[حكم سعد بن معاذ وسماحة الإسلام] ١٠٥
[فتح الحديبية في ذي القعدة/ ٦هـ] ١٠٧
بيعة الرضوان ١٠٩
[رسل قريش وصلح الحديبية] ١٠٩
وتم الصلح على: ١١١

ابتلاء واختبار..... ١١١
استنكار عمر لهذا الصلح ١١٢
[الرجوع إلى المدينة ونزول سورة الفتح]..... ١١٣
[مكاتبات النبي ﷺ إلى الملوك] ١١٨
[كُتَّاب النبي ﷺ]..... ١٢٠
[علم الكتابة]..... ١٢٠
[النبي الأمي]..... ١٢١
فتح خيبر [محرم / سنة ٧ هـ]..... ١٢٢
[فتح خيبر على يد علي عليه السلام] ١٢٣
استسلام يهود خيبر وفدك..... ١٢٥
قدوم جعفر بن أبي طالب والمهاجرين معه من الحبشة ١٢٦
عمرة القضاء في ذي القعدة سنة سَبْع للهجرة..... ١٢٦
غزوة مؤتة [جمادى الأولى/ ٨هـ]..... ١٢٩
[فتح مكة رمضان/ سنة ٨ هـ]..... ١٣١
[الخروج بالجيوش إلى مكة]..... ١٣٣
بنو جذيمة..... ١٣٥
[غزوة حنين شوال سنة ٨ هـ]..... ١٣٦
[مكانة قريش]..... ١٣٧
[أثر فتح مكة على إسلام جزيرة العرب]..... ١٣٩
غزوة تبوك رجب سنة ٩ ..... ١٤٠
سبب الغزوة:..... ١٤٠

[ساعة العسرة]..... ١٤١
[تميز المؤمن الصادق من المنافق]..... ١٤٢
[عاقبة من لم ينصر الدين]..... ١٤٣
[كثرة المنافقين وضررهم]..... ١٤٣
[خروج الجيش]..... ١٤٤
[ثمار غزوة تبوك]..... ١٤٥
[غزوات النبي صلى الله عليه وآله وسلم وسراياه]..... ١٤٧
فضل نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم على الأنبياء والرسل..... ١٥٤
أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم - وآل بيته - وآل النبي..... ١٥٧
[أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام]..... ١٥٨
شخصيات بارزة على عهد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم..... ١٦٢
عمار بن ياسر:..... ١٦٢
أبو ذر الغفاري:..... ١٦٣
سلمان الفارسي، والمقداد بن الأسود:..... ١٦٤
سعد بن معاذ الأنصاري:..... ١٦٤
[دور المهاجرين والأنصار في نصرة الدين]..... ١٦٥
[فضل المهاجرين والأنصار]..... ١٦٦
[ظهور النفاق في المدينة ومكة]..... ١٦٧
[أنواع المنافقين]..... ١٦٧
[نسبة المنافقين بين الصحابة]..... ١٦٩
[معاملته صلى الله عليه وآله وسلم مع المنافقين]..... ١٧٠

[أصناف الصحابة ومنازلهم]..... ١٧٠
[الصحابة وطبائع البشر]..... ١٧١
[غلو المخالف في الصحابة والجواب عليه] ١٧٢
[فوائد]..... ١٧٣
سيرة النبي ﷺ في أصحابه ١٧٤
في التواضع:..... ١٧٤
مع أهل الزلات من المؤمنين:..... ١٧٤
مع المنافقين..... ١٧٤
معاملته ﷺ مع عدوه ١٧٥
معاملته ﷺ مع أهله وقرابته..... ١٧٦
[مع المرضى والموتى]..... ١٧٧
[النبي ﷺ في السفر]..... ١٧٧
زوجات النبي ﷺ ١٧٨
[خديجة بنت خويلد] ١٧٨
[عائشة بنت أبي بكر]..... ١٨٠
أفضل زوجات النبي ﷺ..... ١٨٠
بقية زوجات النبي ﷺ..... ١٨٤
[إبطال التبني في الإسلام]..... ١٨٤
وصية رسول الله ﷺ لزوجاته..... ١٨٥
سيرته ﷺ مع زوجاته..... ١٨٦
تاريخ التشيع والنصب في أهل بيت النبي ﷺ..... ١٨٨

[تشيع أبي ذر وما ناله في خلافة عثمان]..... ١٩٠
[دولة القرآن الكريم]..... ١٩١
[النبي صلى الله عليه وآله وسلم في دولته]..... ١٩٥
[أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم في دولته]..... ٢٠٠
[أصحاب اليد الطولى في نصرة الدين]..... ٢٠١
[الدولة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم]..... ٢٠١
[نزول فريضة الحج]..... ٢٠٤
[البعث بالبراءة سنة ٩ هـ]..... ٢٠٥
[حجة الوداع سنة ١٠ هـ]..... ٢٠٦
[حديث الغدير]..... ٢٠٧
الخلافة..... ٢٠٩
[وفاة النبي الكريم صلى الله عليه وآله وسلم]..... ٢١٢
[خلافة قرشية بحتة]..... ٢١٣
[دور قريش في خلافة الثلاثة]..... ٢١٥
[مركز أهل البيت عليهم السلام بعد موت النبي صلى الله عليه وآله وسلم]..... ٢١٧
[خلافة أبي بكر وتمرد قبائل العرب]..... ٢٢٢
[خارج الجزيرة العربية]..... ٢٢٣
[عمر بن الخطاب]..... ٢٢٣
[علي عليه السلام في عهد الثلاثة]..... ٢٢٤
[سبب ميل الأغلب مع قريش]..... ٢٢٥
[عثمان وتحويل الخلافة القرشية إلى أموية]..... ٢٢٦

[دور قريش بعد مقتل عثمان والبيعة لعلي عليه السلام]..... ٢٢٧
[عداوة بني أمية لبني هاشم والإسلام]..... ٢٣٠
[معاوية والنهج الأموي]..... ٢٣٢
[النهج الأموي في عهد يزيد]..... ٢٣٤
مأساة كربلاء ٢٣٥
[منشأ الافتراق في الدين] ٢٣٧
ولكن سعداً لم يبايع أبا بكر ٢٣٨
[سلف ونهج الشيعة والسنة]..... ٢٣٩
خاتمة..... ٢٤٢
الفهرس..... ٢٤٣